



# أسرار الجليس

ملهم الملائكة

أسرار الجليس

ملهم الملائكة

سراية بلا تاريخ

إلى سراب

التي كانت وما زالت وستبقى معي

رغم بعدها عني

## توضيح

ليست هذه رواية أدبية على طريقة السرد العربي، بل اعترافات غير متسلسلة غير مترابطة توجز تاريخ المنطقة العربية وما حولها، وحيث يتداخل الخاص بالعام والحقيقة بالخيال فيها، تجنبت الرمزية والغموض واللغة الصعبة قدر الإمكان، لتناسب عصر الثقافة السريعة وأدب شبكات التواصل الاجتماعي. إنها رواية بوقع سريع، لكنه يناسب نبض الحياة الشرقية.

كل ما في هذه الرواية من نسج الخيال، والإشارات الواردة الى الشخصيات المعروفة منتقاة من وقائع نشرتها وسائل الإعلام العربية وغير العربية. أيّ تشابه لوقائع معينة مع معطيات وأحداث واقعية هو محض مصادفة.

رن هاتفي في الثانية عشرة ليلاً، كنت مستلقياً على سرير فسيح بعد دوش سريع في فندق بالعاصمة بغداد في يوم خريفي من عام 2005. أجبته الهاتف على مضض، ففي هذا الوقت لا أجب عادة إلا الهواتف التي أعرفها، والرقم الذي يرن عليّ غير معروف عندي. على الجانب الآخر من الخط، حادثني رجل مرتبك بعض الشيء، وسألني إن كان وقتي يسمح بالاستماع إليه!

استغربت طلبه، فالوقت متأخر، والمرء لا يخابر غرباء في هذه الساعة المتأخرة ليطلب منهم الاستماع إليه! أجبته أنني قد استمع له، لكن بالتأكيد ليس في هذا الوقت، واقترحت أن نتفق على لقاء في وقت ما في بحر أسبوع. وهكذا انتخبنا الساعة السادسة من مساء الجمعة المقبل (بعد 3 أيام) في صالة فندق الأفندي الذي أقيم فيه بشارع 52، واعلمني أن اسمه هو عامر م .

حين حلت الجمعة، هبت على العاصمة عاصفة ترابية، وتقلص مدى الرؤية إلى بضعة أقدام، كما تعسر التنفس بسبب الغبار وشدة الحرارة. كان أيلول في منتصفه، وفي العادة تبدأ درجات الحرارة بالتدني، لكنّ العراق ومنذ عام 2003 يشهد عواصف ترابية مخيفة على مدى أيام الصيف، وتتطاول حتى تقضم من الخريف. التحليلات المبنية على نظرية المؤامرة تعزو كل هذا إلى الدبابات والعجلات الأمريكية التي اسقطت نظام صدام حسين وتتجول منذ 9 نيسان 2003 بحرية في كل أنحاء البلد، لكنّ هذا في الحقيقة مستبعد جداً، لأنّ ما يجري مرتبط إلى حد كبير بالتغير المناخي الذي يعم الكوكب، ويبدو أن العراق طاله هذا التغير بعواصف ترابية كثيفة بسبب تباين درجات الحرارة بين الليل والنهار وبين مناطق العراق المختلفة، وبين بلدان الجوار.

في الموعد المحدد، نزلت إلى صالة الفندق، وانتبذت زاوية فيه تقع في الجانب الآخر من الصالة الذي لا يطل على ساحة الواثق المكتظة بالسيارات ليل نهار، فهذا الاختيار يقلل من تعرضي وضيبي إلى خطر تفجير عشوائي أمام مدخل الفندق، يطل تأثيره الصالة التي نجلس فيها، والتفجيرات تجتاح مدن العراق منذ عامين بلا هوادة، كما أنه يمنحنا مساحة هادئة لحديث قد يتطاول.

مضت نحو ربع ساعة، ولم ألتق بمن كلمني، فقد أخبرني أنه جاوز الستين من العمر، أسمر اللون، أصلع الرأس وسيأتي مرتدياً سترة شاموا بيجية اللون، وسروال جينز، وسنيكر رياضي من نوع أديداس. وبقيت أترقب هذه الأوصاف في كل من يدخل للصالة بلا جدوى، ثم خطر لي أن أطوف بنظري على الجالسين في الصالة، ولم يكن عددهم يتجاوز 8 أشخاص، فراودني الشك في رجل ستيني أسمر اللون، أصلع الرأس، يجلس إلى طاولة منفردة وقد ارتدى تراكسوت نبلي اللون بخطين على جانبي ذراعه وسرواله، وينتعل حذاء رياضياً أديداس، ويحتسي بهدوء فنجان قهوة، وهو يدخلن بإفراط.

بلا تردد اتجهت نحو طاولته المتكئة على ألواح زجاجية كبيرة تطل على مدخل الفندق، وحين اقتربت منه، نهض من جلسته وعلى وجهه نصف ابتسامة تكشف عن فم شبه خالٍ من الأسنان، فيما يعلو بشرته السمراء شحوب ملفت للنظر. قدم نفسه بأدب جم، ودعاني للجلوس، فدعوته إلى طاولتي البعيدة، وبلا تردد نهض ورافقني دون أن يلتفت إلى فنجان القهوة نصف الخالي، باعتبار أن النادل سيتبع الزبون به بلا تردد.

جلسنا إلى طاولتي، فجاءنا نادل يسألنا عن طلباتنا، طلبت عصير فواكه مشكل، وطلب هو أيضاً عصير فواكه. ثم بادرت أقول له أنه لم يرتد الملابس التي وصفها لي على الهاتف، وهذا سبب عدم تعرفي عليه، فابتسم مرتبكاً وقال معذراً إنه نسي ما قاله لي، وارتدى ببساطة هذا التراكسوت وجاء إلى الفندق في الموعد المحدد. ثم بادرت مبتسماً أسأله عن قصته التي أراد أن يسردها لي كما طلب مني هاتفياً، فعاود الابتسام وتساءل: هل هي حقيقة إذا أن عمك هو الاستماع إلى الناس، مهما كانت قصصهم، حين أخبروني بهذا واعطوني رقم هاتفك لم اصدق الحكاية؟

قلت له جاداً: أكيد، إنها وظيفتي، وأعتقد أنك تعاني من الوحدة، وتريد أن تجد من يصغي لك، وهذا جوهر الموضوع، تفضل فأنا أستمع، هات ما عندك، وأذكرك هنا أن كل ما تقوله لن يغادر خصوصية لقائنا هذا نحن الاثنين.

تبسم ثانية وقال: واووو إنها وظيفة باذخة، وأهنتك عليها، لا بد أن في صدرك مئات القصص من مئات الناس، أو ربما ألوف منها، لكن سؤالي هو من يمول هذا المشروع؟

اجبته بهدوء متجاهلاً ملاحظته بشأن تمويل المشروع: شكراً للمجاملة الرقيقة،  
تفضل قل ما عندك!

عاد يتكى بكل ظهره على مقعده، وتناول من علبة الدخان سيجارة أخرى، رغم أن سيجارته ما زالت متقدة على حافة منفضة السكائر الأنيقة! ثم تنبه إلى أن سيجارته ما زالت متقدة، فأعاد السيجارة الجديدة إلى العلبة، والتقط الأخرى واستنشق منها نفساً عميقاً وقال: تعلمت في خيرة مدارس هذا البلد، في كلية بغداد، واطممت دراستي الجامعية في جامعة الحكمة الأمريكية في الزعفرانية، ثم درست في انكلترا، جامعة لندن، وحصلت منها على ماجستير إدارة أعمال. واشتغلت في مكتب شركة أي بي أم للحاسبات في بغداد لنحو 5 سنوات، ثم انتقلت للعمل في الحاسبة الالكترونية لوزارة التخطيط، وكانت في أول عهدها، وتوليت إدارة قسم البرمجة فيها.

وكانت لي قصة حب مع إحدى زميلات الجامعة، ليلي، واسمها الحقيقي ليلي، لكنهم كتبوها هكذا في الهوية الشخصية تجنباً لصعوبات إدارية محتملة، ولكي لا يبدو الاسم أجنبياً. أمها سيدة مجتمع تركية معروفة في صالونات بغداد واسطنبول، وأبوها، تقلد 3 حقائب وزارية على مدى ربع قرن. كما أن شقيقها الأكبر كان وزيراً في عهد الجمهورية الأولى عام 1960، عمته أيضاً كانت نائبة في البرلمان العراقي الأول الذي تشكل عام 1953 أما جدها فكان عيناً في مجلس الأعيان، لثلاث دورات متعاقبة.

في هذا البيت المترف الذي تختلط فيه القوة بالمال، كبرت ليلي، وحين عرفت في الجامعة، كانت فتاة كل ما فيها ناعم وصغير، والجميع يقولون إنها النسخة البغدادية من المغنية المصرية الشهيرة "نجاة الصغيرة"، فهي مثلها في الحجم، وشكل الرأس والشعر والوجه، وتهمس في الكلام مثلها. وتتكلم العربية والتركية والانكليزية بطلاقة تامة. عشنا قصة حب جارفة، كثير من فصولها جرت في سيارتها المرسيديس 180 الأنيقة .

سكت هنيهة، فسألته ماذا يشرب بعد عصير الفواكه؟ نظر في عيني وسألني بنبرة من يستأذن: هل لي في زجاجة بييرة؟

ضحكت، مؤكداً له ذلك، فناديت النادل، وطلبت لنفسي زجاجة كولا، فيما طلب لنفسه بيرة مثلجة، وضمن فستق وضمن جبس.

حين وضع النادل طلباتنا ومضى لشأنه، قلت لعامر: من الأفضل أن تترك مكاناً في معدتك لعشاء، مشاويهم هنا ممتازة .

ضحك عامر كاشفاً مرة أخرى عن فمه الخالي من الأسنان وقال : في الحقيقة لا يوجد فندق عراقي يقدم مأكولات شهية، أشهى المأكولات تجدها في المطاعم الصغيرة، وأحياناً تجدها في مطاعم لا مكان فيها للجلوس، بل يتناول الناس طعامهم وهم واقفون، أذكر منها كباب العاصفة في ساحة الشهداء، ومشويات مهدي أمام تمثال الرصافي، ومشويات السعدون مقابل سينما سميراميس في شارع السعدون.

علقت بعد أن لحظت حماسه لتناول الطعام خارج هذه الصالة: لكن ذلك يستوجب الحركة والانتقال الى مكان آخر، وهذا سيقطع سلسلة حديثنا! ما يهمني أن أستمع لقصتك، أما الأشياء الأخرى فهي ديكور يكمل المشهد! لنعد إلى حكاية حبك الأول، كيف انتهت؟

قصة حبنا انتهت بزواجنا وقد أقمنا حفل الزفاف في صالة الكريستال بفندق بغداد، وهو الفندق ذو النجوم الخمس الوحيد في العراق آنذاك. دفع أهلها وأهلي كل النفقات الباهظة. وبعد الحفل سافرنا إلى روما حيث قضينا شهر عسل من 3 أسابيع، هي الأجمل في حياتي، وأقول هذا بلا ندم وبلا تردد، نافورة تريفي في روما وفيلا تيلافانتور ومدرج كولسيوم ومبنى البانثيون وساحة نافونا والسلالم الإسبانية الرائعة والمنتدى الروماني الفخم وكنيسة سانتا ماريا وساحة ريبوبليكا، محطات فرح وسعادة لا أنساها ما حبيت.

لم تشتغل ليلى بعد تخرجها في أي مكان، مع أن أباه وجد لها وظيفة مرموقة في وزارة الخارجية العراقية، لكنّ انشغالها بقصة حبنا، ورغبتها في أن تصبح أمّاً، غلبا عليها، وهكذا رزقنا خلال الأعوام الثلاثة الأولى من زواجنا ببنت وولد.

كان بيتنا الصغير الأنيق في حي المنصور، محطة فرح يزورها عشرات الأصدقاء والصدقات، ورغم وجود طفلين، استطاعت ليلى أن توفق بين حياتها الاجتماعية وأمومتها، من خلال توظيف مربية مسيحية تشرف على رعاية



الطفلين، ولم تكن ليلي ترضعهما، فقد كانت بلا حليب منذ ولادة الطفلين، لذا ربتهما على الحليب المعبأ المستورد، فيما تولت عاملة خدمات تنظيف البيت كل يوم من الساعة العاشرة صباحاً حتى السادسة مساءً. كنا في السابعة والعشرين من العمر وفي منزلنا خادمتان !

هذا الترف المغلف بالفرح والسعادة الدائمة، بدأ يتخذ منحى آخر مع تعرفنا على مقول عراقي ثري متخرج من الولايات المتحدة الأمريكية اسمه هاشم، وزوجته وهي شقراء أمريكية اسمها فيفيان. فقد تعمقت علاقتنا بعد لقاء عابر جمعنا بهما في حفل رأس السنة لعام 1971. أقيم الحفل في نادي العلوية، وطيلة السهرة تبادلنا الأنخاب والزوجات والرقص بشكل جنوني .

صبيحة الأول من كانون الثاني 1971، عدنا أنا وليلي إلى البيت في الساعة الخامسة صباحاً وقد اتعبنا السهر، وحين دلفنا إلى غرفة النوم، حاولت أن أقاربها، لكنها اعتذرت متعللة بالتعب، فمنا بلا لقاء حب نفتتح به العام الجديد. بالنسبة لي كان صدودها عني في تلك الصبيحة بداية السقوط نحو هاوية القطيعة، لكنني لم أكتشف ذلك بوضوح ولم أكتشف لها عنه.

مع مرور الأشهر، تعمقت صداقتنا بالزوجين، وبدأنا نلتقي كل أسبوع في بيت أحدنا، ونخرج في رحلات قصيرة، وطويلة، وفي خريف ذلك العام، ذهبنا بسيارتينا في سفرة إلى جزيرة السندباد بالبصرة دون أن نصطحب طفلينا، كما لم يصحب هاشم وزوجته طفليهما، حيث أكثرينا بيتين متجاورين. ذات غروب كنا نجلس في التراس المشترك خلف البيتين، ونحن نتأمل شط العرب، والزوارق والمشاحيف وهي تمخره بانتظام وعلى متنها عشرات السائحين، كشف لنا هاشم عن متعة جديدة، فقد جلب معه حبوب LSD والتي لم أكن قد سمعت بها ذلك الحين.

هل هو نوع من المخدرات؟

نعم أنه من أقوى المخدرات المسببة للهلوسة ولذلك هي ممنوعة في أغلب بلدان العالم ومحظور تداولها دون وصفة طبية، ولشدة قوتها تقاس جرعاتها بالميكروغرام. تناول هذه المادة يؤدي إلى أعراض وتأثيرات تستمر لعدة ساعات وعادة تسمى ب"الرحلة" وهي تتفاوت من شخص إلى آخر.

في الغالب يشعر الشخص بأن ألوان المحيط الذي هو فيه تبدأ بالتوهج وتبدو كأنها تتحرك وتتنفس يصاحبها ظهور رسوم وأشكال متحركة على الجدران، تشوه الإحساس بالزمن فيبدو كأنه يتمطى ويكرر نفسه وتتغير سرعته وأحياناً يتوقف تماماً. ثم يتعرض المرء لما يشبه تجربة الخروج من الجسد مصحوبة بتعرق وجفاف الفم، كما يرتفع ضغط الدم وتزداد دقات القلب وتنتاب المتعاطي هلاوس بصرية وسمعية وأحياناً يتشمم رائح لا وجود لها .

هذه الأعراض تختلف من شخص لآخر، كما تختلف مدة الرحلة وهلاوسها حسب الجرعة التي يتناولها الإنسان وبسبب طبيعة هذه المادة فقد شاع استعمالها بين الجماعات الدينية والروحانية كما أنها لا تسبب الإدمان وهذا يميزها عن الماريوانا والحشيشة والترياق.

سألته متعجباً: هل هو مسحوق يتنشقه الإنسان أم حقنة يحقن بها أم قرص يبتلعه فحسب؟

كرع كأس البيرة العملاق مرة واحدة، وسارع يوقد لفافة تبغ، وعاد يروي لي وقائع تلك الحياة الصاخبة: عادة "إل إس دي" يكون في شكل قرص يبتلعه الإنسان، وأحياناً يكون قرصاً يوضع تحت اللسان ويمتصه الإنسان تدريجياً، وذلك بعد تثبيته على ركيزة من قبيل طبقة ماصة فوق ورقة نشافة، ويمزج معه بعض السكر أو الجيلاتين المحلى، كما يمكن أن يكون سائل القوام فيستخدم تجرعاً بقطرات صغيرة ويمكن أيضاً عن طريق الحقن العضلية أو الوريدية .

ما عرضه هاشم علينا في تلك الليلة كانت أقراصاً للمص، ذات لون بنفسجي فاتح، وضعناها تحت ألسنتنا، ونحن نأكل المشاوي ونتجرع قناني الجعة. وهنا لا بد أن ألفت نظرك إلا أنّ ثمن الأقراص الأربعة التي تناولناها باهظ لدرجة أنه يعادل مرتبي لشهر واحد، علماً أن مرتبي كان أربعة أضعاف راتب مهندس حديث التعيين.

تلك الليلة، رحلنا طويلاً مع عالم الهلوسة، وحين أفقنا صباحاً، وجدنا أنفسنا قد نمنا عراة في صالة المعيشة في البيت السياحي الخاص بنا! تلك الرحلة كسرت حاجز الخجل بيننا نحن الأربعة، وصار جزء من لقاءاتنا يتم بتبادل القبل واللمسات أمام بعضنا، ثم تطور الأمر إلى تبادل الزوجات لغرض التقبيل،

وتطور كل شيء سريعاً إلى ليلة تبادلنا فيها الزوجتين بشكل كامل، فنامت فيفيان في سريري، فيما نامت ليلي في سرير هاشم. وحين التقينا في الغداة (نحو الساعة الواحدة بعد الظهر) وقد غادرنا تأثير السكر والمخدرات، لم نخجل من بعضنا، بل تصرفنا بشكل طبيعي، وصار متعارف عليه أن يواقع أحدنا زوجة الآخر بلا حياء .

صمت ينتظر رد فعلي، وقد تعودت ممن يروون لي حياتهم وسيرتهم هذه التوقعات، فهم ينتظرون أن أتفاعل معها، لكني جليس ولست أنيساً ووظيفتي لا تنص على تفاعلي مع الراوي واستجابتي لمشكلاته، وهكذا بقيت صامتاً لا أرد على عامر بل أحته على المزيد فقال بعد أن يؤس من صمتي :

حتى مطلع عام 1973 بقينا نتخبط في الصداقة التي كانت جزءاً من ثقافة الهيبيز الشائعة عبر العالم آنذاك، وما كنا نجد غضاضة في أن تتجاوز هذه الصداقة الخطوط الحمراء في مجتمعنا.

ليلة رأس السنة لعام 1973، وبعد سهرة كبرى في نادي الهندية بمنطقة المسبح، توتر الوضع بيني وبين ليلي، وبين هاشم وفيفيان بشكل كبير. حين غادرنا الحفلة إلى صالة استقبال النادي، أصرت لينا على أن ترافق هاشم لبيتها، وطلبت من فيفيان أن تذهب معي. مبدئياً لم يكن ذلك مصدر خلاف بيننا نحن الأربعة، لكنني وفي اليوم الأول للعام، أردت أن اجتمع بزوجتي ليلي وبطفلي باعتبارنا أسرة تحتفل بالعام الجديد. وتطور الأمر إلى خلاف ثم شجار تبادلنا فيه الشتائم. وكان هاشم ما برح يسكتني ويطلب الهدوء، فيما اعتصمت فيفيان بالصمت وهي تجلس ملتصقة بي. انتهى الوضع بأن ذهبت ليلي مع هاشم، وجاءت فيفيان معي، وهكذا لم يتح لي أن أعود بأبني وابنتي اللذين كانا في بيت والدتي في الكراة.

في بيتنا ظلت فيفيان تحدثني أن هاشم بات لا يطاق، وأنها قد تقرر العودة إلى بلدها لا سيما أن غيوم خلاف سياسي بين بلدها وبين العراق تلوح في الأفق، وهي لا تريد أن تكون وسط هذا الخلاف. وحين اقتربت منها وجذبتها للسري لم تمنع في البداية، ولكن بعد أن غرقنا في قبل متعبة (نحو الساعة السادسة فجراً)، ابتعدت عني، وسحبت فوقها دثاراً وهي تعلن أنها متعبة ولا رغبة عندها في الاستمرار، فيما كنت أنا متهيجاً مشتتلاً وبحاجة إليها فوراً، ولأني مدرك أنها

أمريكية، ومن غير الممكن إجبارها على خصوصية المواقعة ما لم تكن بكامل شهوتها، فقد أهملتها محاولاً النوم ونسيان الموضوع، ولكن هذا لم يتم.

في حدود الثامنة صباحاً، نهضت من فراشي بعد أن جفاني النوم، وارتديت ثياباً شتوية على عجل وغادرت بسيارتي إلى بيت هاشم. قرعت جرس الباب، فلم يفتح أحد مع أن سيارته كانت في الكراج، فتحت باب الحديقة ودلفت إلى الباب الداخلي، ففرعته بشدة حتى جاء هاشم والنعاس قد أثقل عينيه، وفتح الباب متسائلاً ما الذي جرى. فأخبرته أنني أريد رؤية ليلي لأمر هام، فقال إنها تغط في النوم، ومحاولة ايقاظها في هذا الوقت المبكر قد تثير مشكلة بينكما. وتجادلنا، حتى وصل بي الأمر وتجاسرت وقلت له: انها زوجتي في النهاية، وأريد لقاءها!

رد هاشم بتعبير ممتعض على وجهه، ودعاني للدخول وأخبرني أن انتظر في صالة الجلوس ريثما يخبرها. بعد نحو عشرة دقائق، نزلت ليلي من الطابق العلوي وهي ترتدي قميصاً من هاشم يستر عريها العلوي، فيما ظل فحذاها مكشوفين بشكل صارخ. ودون تحية بادرتني بالقول: يا لك من قليل الذوق وثقيل الظل، عزيزي نريد أن نرتاح بعد السهرة، أنا لست مستعدة لسماع أي شيء منك في هذا الوقت! الشرر يتطاير من عينيها، وهي تنظر لي مغتاضة.

ابتسمت قليلاً، ثم أعلنت لهما: أنا بحاجة لك يا ليلي، وأنت مع هاشم، لماذا لا نتقاسم السرير نحن الثلاثة، فتكونين امرأة لرجلين في نفس اللحظة!

تصاعد غضبها فجأة، وتفجرت ترعد وهي تقول: أيها الحقير، هل تظنني كلبة شوارع أنام مع رجلين في وقت واحد، إنه خيالك الكحولي المريض يوصلك إلى هذه النتائج، من تحسبني، واحدة من بنات أم غانم (قوادة اشتهرت في سبعينيات القرن العشرين في بغداد)؟

تصاعد غضبي إزاء رد فعلها المفنعل، فتفجرت أقول بصوت مرتفع: ومن تحسبين نفسك أذاً؟ نحن متسامحون في علاقتنا الجنسية، وهذا يجب أن يقوم على رضا جميع الأطراف، أما في هذه الحالة فأنا أريدك لي، الآن بلا تأخير، أنت زوجتي ومن حقي أن أضاجعك وأنا في أوج الرغبة!

ردت غاضبة: نعم أنا زوجتك، لكن لا رغبة لي بمضاجعتك الآن، وإذا أردت الحقيقة، أنا كرهتك، وأريد ان أنفصل عنك، ولا أسمح لك منذ اليوم بأن تلمسني.

أنس أنني امرأتك! أنس هذا فوراً، وصرخت منفعة بصوت أجش: أنس هذا، أنس، أنا لكن أكون لك بعد اليوم، لا أطيعك ولا أشتهيك !

صعدت السلم مسرعة، وبقيتُ مع هاشم في الصالة، وقد بلغ مني الغضب والشهوة أشدهما، التفت نحوه أبحث عن نوع من التعاطف، فوجدت وجهه متصلباً لا يبتسم، بل إنه مد يده إلى كتفي، كأنه يطردني، وقال: اذهب يا عزيزي الآن وسنلتقي في وقت آخر لنحسم هذا الموضوع، يبدو أن الامور وصلت حدّاً لا رجعة فيه.

كانت تلك المواجهة الحاسمة فعلاً، ولم تعد ليلي إلى بيتي قط، بل أخذت الولد والبنت من بيت أمي وعادت إلى بيت أهلها. وبعد تأميم النفط عام 1973، سافرت فيفيان زوجة هاشم دون ابنائها إلى بلدها بغير رجعة، ويبدو أن علاقتها بهاشم قد انتهت كما هو حال علاقتي بليلى .

وبعد مرافعات قضائية عديدة، تخلت ليلي عن حقها المتأخر الكبير جداً مقارنة بمهور ذلك الزمن، مقابل أن يقع الطلاق، وهكذا أعلن القاضي طلاقنا بشكل خلعي لا رجعة فيه (رغم أن وجود اطفال صغار السن بين الزوجين يمنع الطلاق الخلعي النهائي).

سكت عامر لا يريم، وهو ينتظر رد فعلي، ومرة أخرى اعتصمت بالصمت، ونظرت إليه مطولاً قبل أن أسأله هل نطلب طعام العشاء؟

رد ضاحكاً: الحقيقة أنني لم أنته من حكايتي، لكنني أشعر بالجوع، ولا بأس أن نتعشى إن كان هذا لا يضايقك؟

طلبنا العشاء، وعدنا نتجرع قنينتي جعة باردتين، ونتبادل أطراف الحديث مثل صديقين! وحين امتلأت المائدة بأطياب الطعام، انقض محاورتي يلتهم ما لذ وطاب، فيما بقيت سجائره متقدة لا تنطفي. أكاد أجزم أنه دخن نصف علبة خلال لقائنا هذا!

كانت نتف من حكايته تقاطع انشغالنا بالعشاء، فروى أنه بعد الطلاق، قد أصيب بانهيار عصبي، وأدخل مستشفى الأمراض العقلية لمدة 6 أشهر، حيث تلقى

صدّات كهربائية كجزء من العلاج المعروف آنذاك، هذا إضافة إلى أنواع من الحبوب تحتم عليه تناولها بانتظام.

وما أن انتهينا من الطعام، حتى تدفقت روايته بلا انقطاع: كان صعباً عليّ أن أعيش دون ليلي، إنها حبي الحقيقي الوحيد، وقد سافرت مع هاشم والأطفال الأربعة إلى الخليج منتصف سبعينيات القرن الماضي، وبقيت أنا اتلّظى بنار لا تنطفي.

هل كنت تعشقها إلى حد دمر حياتك!؟

في حياتي عشقان فحسب، ليلي والخمر... هما عشقان لا شفاء منهما، وقد بلغت اليوم 61 عاماً، ما زلت أرى فيهما عشقي الأهم والنهائي.

رفع النادلان الأطباق، وجاء أحدهما بصينية أنيقة عليها كتلي المنيوم، وقوري فرفوي فيه الشاي، وقد وضع القوري فوق الكتلي فوق جمر منقلة صفراء صغيرة أنيقة، وفي الصينية 4 استكانات مذهبة أنيقة، وطلب من الرجلين الانتظار 10 دقائق ليحصلوا على شاي منزل طازج لم يذوقا مثله.

بانتظار الشاي، أوقد عامر لفافة أخرى منتبهاً إلى أن علبة السجائر بقي فيها سيجارة واحدة أخيرة، فنادى النادل وطلب منه علبة سجائر من نفس النوع، فاعتذر الأخير معلناً أن السجائر الموجودة في الفندق هي من نوعي دنهيل ومارلبورو حصراً. فبهت صاحبي، وسكت هنيهة ثم طلب علبة مارلبورو.

عدنا للحديث، فقال عامر إنه قد قضى سبعينيات القرن العشرين في نوبات سكر متصلة، تتبعا نوبات علاج ومشافي عصبية متصلة، وما إن بدأت حرب الثمان سنوات بين العراق وإيران، حتى تزوج من فتاة يعرفها أهله، فكانت زيجة كلاسيكية خائبة، نتج عنها طفل جميل عاش مظلوماً بين أب يتعتعه السكر والعقاقير المهدئة ونوبات الرقود في مشافي الأعصاب والرجات الكهربائية، وأم تزوجت متأخرة بعد حصولها على شهادة جامعية ووظيفة مرموقة في أهم وزارة بالدولة. ولم يولد بينهما أي حب، بل بقي عامر يجاهر أمامها بعشقه المجنون للمرأة التي هجرته ورحلت مع رجل آخر.

سكت عامر، وبقيت انتظر المزيد، ف جاء النادل له بعلبة السجائر التي طلبها، ليسارع بفضها وابقاد لفافة أخرى. كان رجلاً بديناً مترهلاً لا يقوى على الحركة، وقد كسى وجهه شحوب يلفت النظر، فيما خلى فمه من الأسنان باستثناء بعض الطواحن، وقد علل ذلك لي بأنّ الرجات الكهربائية التي تعرض لها طيلة حياته كانت سببا في انهيار اسنانه.

سألته مغيراً مسار الحوار: كيف تعيش اليوم يا عامر؟

أنا متقاعد، راتبي ليس كبيراً ولكنه يكفي.

وأين تسكن؟

أسكن في غرفة فوق كراج بيت قديم يملكه أحد اصدقاء أهلي، وقد منحني الغرفة بعد أن مات حارس البيت الذي سكنها لمدة 40 سنة.

أين كنت حين اسقط التحالف الدولي صدام حسين في 9 نيسان 2003؟

ضحك كاشفاً عن فمه القبيح، وقال: كنت في مستشفى الرشاد، ومنذ يوم 1 نيسان، فتح الحراس أبواب المستشفى، ليخرج مرضى الأعصاب والمجانين إلى بيوتهم، لأنّ المستشفى خلا من الغذاء والأطباء، لكن كثيراً من المرضى وحتى المجانين لم يغادروا المكان، لأنهم لا يعرفون إلى أين يذهبون. وأنا كنت من بين من بقوا في المستشفى لأنني لم أكن أعرف مكاناً أذهب إليه. الغرفة التي أسكنها الآن نزلت فيها قبل عام فحسب، وقد ساعدني بعض الأصدقاء القدامى للحصول عليها. ذاكرتي تمزقت، لا أتذكر سوى تفاصيل علاقتي بليلي، وانهياراتي المتعاقبة .

طلب علبة جعة أخرى، وهو منهمك في تدخين لا يتوقف، ونظر إلي بانكسار وهو يسألني إن كانت قصته قد أفادتني، فأجبت بهدوء أن الإعجاب والتعاطف مع القصص ليس في صميم واجبي.

وفيما هو يعب جرعات كبيرة من علبة الجعة الأخيرة، توقف قليلاً ليبلغني بخبر آخر، كأنه يريد أن يعلن لي انتصاراً صغيراً حققه.

سمعت من بعض الأصدقاء، أن هاشم قد مات، ويلي ترقد في المستشفى لإصابتها بمرض ألزهايمر.

سألته وكأنني أعلن له نهاية هذا الحوار: سمعت كل ما قلته، لكن تفصيلاً صغيراً لم تقله، ما مصير أبنائك الثلاثة؟

أبنتي من ليلي متزوجة من مهندس نفط معروف وتعيش في دبي، وابني منها يعمل في لندن بوظيفة أجهلها. أما أبنائي من الزوجة الثانية، فقد أنهى دراسته الجامعية العام الماضي، وهو يعمل في شركة أجنبية في أربيل الآن.

اعتقد أن هذا كل ما عندك؟

نعم، في الحقيقة أن عندي المزيد، لكنني أحتاج إلى بعض الوقت لتذكره. شكراً لأصغائك وصبرك ألف شكر، تعرف طبعاً أنني لا أملك أن أدفع ثمن ما أكلناه وشربناه في هذا المكان!

لا بأس عليك، هذه الضيافة وتكاليفها جزء من خدمات الجليس، وأدفعها ممتناً. نهضت أمد له يد الوداع، فنهض وصافحني، وحمل علبة سجائره غير المفضلة، وغادر المكان إلى غرفته فوق مرآب سيارة البيت في مكان ما من العاصمة.

\*\*\*



تلقيت رسالة نصية على موبايلي، كان النص قصيراً ومفعماً باللهفة "رجاء لازم أشوفك، قضية حياتية". وكان عليّ أن أرن على رقم الهاتف الذي جاءت منه الرسالة لأفهم المطلوب.

بعد رنتين أجنبي صوت نسائي يغلب عليه الهمس، قلت لها إنها قد طلبت مقابلي، وتساءلت منها عن تفاصيل الموضوع فقالت بارتباك:  
 "أهلا وسهلا أستاذ، آسفة لم أستطع الاتصال بك مباشرة لتوضيح المطلوب لأنّ رصيدي متدني"، ثم أردفت بلهجة يعلوها الحياء "في الحقيقة ليس لدي رصيد في الهاتف وأمل أن تتفهم ذلك".

أجبتها بعفوية واجبة في هذا المقام "هذا غير مهم يمكن أن أتصل أنا بكم، لكني أريد أن أعرف كيف ومن أين حصلت على هاتفي؟"

أجابت بلغة الهمس، إنها صديقة من لبنان عرفتھا منذ سنوات بعيدة، دلّتها عليّ وكشفت لها أنّ وظيفتي هي الإصغاء إلى الناس، وأحيانا يصنع اصغائي حلولاً لمشكلاتهم.

قلت لها: وهو كذلك، أين أنت الآن وأين تقترحين أن نلتقي ومتى؟

قالت: أنا في بغداد، بيتي في جانب الكرخ، وأفضّل أن نلتقي أمام مدخل مطعم المحطة العالمية بعلاوي الحلة، إذا كان هذا يناسبك؟

لكن هذا مكان لتناول الطعام فحسب، لن نستطيع أن نتحدث؟

أعرف المكان، ولن ندخل إليه، بل سأكون هناك لأخذك إلى مقهى صغير في داخل المحطة، يناسب مثل هذا اللقاء، ولا يعرفه أغلب المسافرين وزوار المحطة.

طيب، كيف سنتعرف إلى بعضنا ونحن لم نلتق سابقاً؟

قالت: سأرتدي معطفاً مطرياً أبيض اللون، وبيدي مظلة سوداء تمام، وأنا سأرتدي معطفاً مطرياً خاكي اللون، وبيدي مظلة سوداء قصيرة.

قالت: ممتاز، هل يمكن أن نلتقي مساء الجمعة المقبلة بعد 3 أيام؟ الساعة السابعة مساءً مثلاً؟

وهكذا كان، قبل الساعة بدقائق، ركنت سيارتي في موقف سيارات بمدخل المحطة وحال أن ترجلت منها بدأ المطر ينثّ خفيفاً يهيج رائحة أتربة الأرض الجافة، فدلفت إلى الصالة ذات القبة اللازوردية الجميلة، المكان نظيف والمرمر الذي يفتersh الصالة الكبرى من عصر الإنكليز ما زال محتفظاً بجماله ولمعانه، العاملون كلهم بنغال وسريلانكيون ومنشغلون بجد بتنظيف المكان. لمسة رمادية باردة تغطي على كل شيء، إنها سمة المحطات في كل العالم، ولا أدري هل تقاسمني من دعنتي للحوار هذا الشعور أم لا. بحثت عن مطعم المحطة، فوجدت أن مدخله الرئيسي يقابل مطار المثني، وله مدخل ثانوي يطل على أرصفة المسافرين.

بناية بيضاء قديمة من الطراز الفيكتوري أعيد تأهيلها حديثاً، وضيفت لها نوافذ ألومنيوم بدلا عن النوافذ الخشبية القديمة التي بنيت في عشرينيات القرن العشرين، وقد طليت افاريزها باللون الأزرق.

والمرء يتساءل، لماذا لم يستطع حكام العراق منذ 100 سنة أن يبنوا مثل هذه المحطة في جانب الرصافة، ليكون للعاصمة المليونية الكبيرة محطتان، شرقية وغربية؟

شاهدتها من بعيد، سيدة قصيرة القامة، قصيرة الشعر كاشفة في زمن باتت فيه كل نساء هذا الجزء من العالم منقبات ومحجبات بأمر الكهنة، وقد رفعت ياقة معطفها عالياً لتغطي ملامح وجهها من الجانب. تتدلى من كتفها الأيمن حقيبة نسائية زرقاء صغيرة معلقة بسلسلة فضية. اقتربت منها من جهة اليمين، وحين أوشكت أن أصلها التفتت باتجاهي وابتسمت، فحييتها بابتسامة وبجملته ترحيب، ومددت يدي أصافحها دون خشية أن تكون من "المؤمنات" اللاتي لا يصادحن الغرباء. فمدت يدها وصافحتني بأدب وحرارة، وقالت بهدوء بصوت ناعم "بشائر صبيح، لنسر باتجاه جنوب الرصيف، هناك حيث دكات الانتظار التي تستقبل المودعين والمغادرين ومن لف لفهم".

سرنا صامتتين تساقط على رأسينا حبات مطر ناعمة، حتى وصلنا نهاية الرصيف تقريباً، فأشارت كالأطفال إلى بناية مسقفة قديمة معزولة، يتخيلها الزائر مركزاً لسائقي ومفتشي الخطوط، فكل جدرانها زجاجية، وقد طلّبت بعض ألواحها الزجاجية بألوان بلورية معتمة، بابها من خشب مقطّع بألواح زجاجية. اقتربنا من الباب، وفتحته بنفسها فدلفنا، ليستقبلنا مكان دافئ شديد الالفة كأنه مشهد هارب من فيلم انكليزي خمسيني. على الجدران لوحات خمسينية، وبوسترات لممثلين بينهم همفري بوغارت وكيرك دوغلاس وفيفيان لي. على طاولات المقهى يتوزع بضع جلاس بعضهم في سن الخمسين فأكثر، وآخرون من الشباب، القاسم المشترك بين الجميع هو اللقاءات المختلطة.

في إحدى الزوايا استقر على طاولة عتيقة عالية جهاز غرامفون قديم قد طلي بوقه الطويل باللون الذهبي وفوهته مزترّة بحزام قرمزي. اتجهت بشائر إلى مائدة لصق هذه الزاوية، واتخذنا كرسيين فارغين من الكراسي الأربعة التي تؤطر الطاولة الأنيقة العتيقة.

جلسنا بعد أن نضونا عنا معطفينا، كأننا عاشقان وصلاً توأماً إلى مواعدهما الهني. حال أن جلسنا قلت لها: هذا المكان غريب جداً، ما كنت أتخيل علاوي الحلة فيها مقهى بهذا الجمال. رأيت شيئاً شبيهاً بهذا في القاهرة في وسط البلد، اسمه مقهى ريش، وهو مكان للقاء المثقفين وقد اعتاد نجيب محفوظ على زيارته، ولكن في آخر مرة زرته وجدت أن صاحبه قد توفي، وتولته إدارة جديدة، سيئة جداً وتتقن طرد الزبائن!

ابتسمت لملاحظتي وقالت: التعامل هنا ممتاز، قياساً بالمقاهي العراقية الأخرى، فأخلاق القائمين على المكان رفيعة، والزبائن كلهم تقريباً من الطبقة المثقفة. المفارقة هنا، أن مطعم المحطة الكبير الذي التقينا ببابه، يرتاده نوع مخالف لنوع جمهور هذا المقهى...تباين واضح.

نظرت في عينيها العسليتين الصغيرتين، فخال لي أن دمعيتين صغيرتين معلقتين بأهدابهما وتريدان رمشة عاطفة صغيرة لتساقطاً بكاءً على وجنتيها المنتفختين. لم تعد هذه المرأة الجميلة شابة، لكن مسحة جمال وأناقة ما زالت تفيض عليها، رغم أن ملابسها لم تكن غالية الثمن، إلا أن التناسق الأنيق يشي بماضٍ بالغ الأناقة وبذوق رفيع.

جاء النادل، فطلبت قهوة مع كرواسان بالجبنه البيضاء، وعرضت لها أن تطلب هي، لكي أكون أنا صاحب الدعوة وأتولى دفع الحساب فيما بعد، فطلبت قهوة وكرواسان سادة.

ذهب النادل، فوضعت هاتفي المحمول على الطاولة، وشغلت تطبيق التسجيل فيه، وقلت لها: تفضلي يا سيدتي أو يا آنستي، فأنا أصغي لك، وكذلك جهاز التسجيل في الهاتف!

ابتسمت بطريقة شاحبة، ثم رنت تختلس النظر إلى هاتفي، وقالت: أنا سيدة، كنت أعمل ممرضة، ثم أحلت نفسي قبل 3 سنوات إلى التقاعد. لا أستطيع أن أروي لك كل قصة حياتي، لكنني عشت قصة حب كبيرة مع رجل يعشقني حتى الثمالة، ثم تزوجنا، قبل سنوات طويلة. هو يعمل حداد قالب، وكل عمله في بغداد، فلا يغادرها إلى عمل آخر، وهكذا قضينا نحو 25 عاماً لم نفترق فيها ولا ليلة. سافرنا معاً بعد 2008 إلى اسطنبول وإلى تفليسي وإلى عمان وطهران. تلك كانت أجمل أيامنا، رغم وحدتنا المرة ونحن نعيش بلا أطفال. ولشدة تعلقنا ببعض، لم نعرف حتى الآن من هو السبب في عدم الانجاب، هو أم أنا!

وافانا النادل بطلباتنا، فطلبت منه قبل أن يذهب أن يأتي لنا بقدحين من عصير الفواكه، وهو خليط قرأته في قائمتهم، ورجبت أن أجربه، وأوصيته أن يأتي بالطلب بعد ربع ساعة من الآن. حين ذهب، بدأنا نرشف القهوة وقلت لها، هذه طريقتي في مشاغلة النادلين، فأكلفهم بطلب مؤجل كي يكفوا عن زيارتي كل خمس دقائق للسؤال إذا كنت أرغب بشيء آخر أو إن كل شيء تمام.

ردت بابتسامتها الشاحبة، ومدت أصابعها المنتفخة إلى حقيبتها، وأخرجت علبة سكاثر أجهلها، وقدمت لي سيكارة لأشكرها بإصرار، فاستأذنت إن كنت أسمح لها بالتدخين ولا يضايقني ذلك، اتحت لها ذلك بالإيجاب وفي نفسي أسئلة كبرى حول مستوى الأدب الجم لهذه السيدة؟

قالت وهي تنظر إلى زجاج النوافذ: أنظر إلى حبات المطر تسيل على زجاج النوافذ، ما أحلى ذلك، مقهي في محطة القطار، في يوم مطير، والمكان هنا أليف رقيق، والجميع منشغلون بعوالمهم الجميلة... مثل هذه اللحظات تذكرني بحبيبي، وتألفت في عينيها مرة أخرى تلك الدموع التي توشك أن تسقط... ثم قالت:

وليكتمل المشهد، ها أنّ قطاراً آخر يغادر المحطة إلى وجهة أخرى، لا يهتم إلى أين، المهم أنّه يسافر بركابه إلى عالم آخر.

كانت نوافذ المقهى وزجاج الجدران والباب قد كستها أبخرة أنفاس الجلاس من الداخل، فيما تواصل حبات المطر قرعها السيمفوني عليها من الخارج، ويتحرك بطيئاً قطار متثاقلاً على الخطوط الخارجة من جوف المحطة متجهاً إلى مكان آخر، قد يكون البصرة. نفثت بشائر من فمها المدهون بقلم حمرة خفيف دخاناً عطر الرائحة، وشربت قهوتها حتى الثمالة ثم واصلت قصتها.

بدأ عالمي يتكسر قبل 4 سنوات، فقد أصيبت أُمي التي تبلغ من العمر 83 عاماً بجلطة دماغية أعقبها شبه شلل أعاقها عن الحركة. وكانت وحدها في بيت أهلي الكبير، فاضطرت أن أحيل نفسي للتقاعد لأقضي معي نهاراتها، فيما تأتي إحدى الجارات وهي إحدى زميلاتي في مستشفى الكندي لتقضي الليل عندها، تلك الجارة كانت أرملة قضت حروب العراق على زوجها و3 من أبنائها، فلم يبق لها سوى ولد مهاجر، وبنت متزوجة تعيش في الأردن. وكان قضاؤها الليل مع أُمي تسلية لها وعزاء عن وحدتها الصعبة.

وفي كل يوم، حين يعود زوجي من عمله، يأتي بسيارته إلى بيت أهلي، ليأخذني معه إلى بيتنا.

ومضى عام، فأصابنا زلزال آخر، فقد سقط زوجي من سقالة البناء في الطابق الخامس لأحد المباني، وانكسر عموده الفقري فبات كسيحاً ضجيع الفراش بشكل دائم، لا يتحرك في جسده سوى الرأس والحواس التي فيه، فهو يسمع ويرى ويتكلم ويتنفس ويتذوق، لكنه لم يعد أكثر من مجرد رأس. لا شيء آخر. ولأنني أعشقه، لم أستطع عنه فراقاً، وأُمي الهرمة المقعدة لا تحبه ولا تريد لقاءه، فقد بات دوري من جديد ممرضة لأُمي الكسيحة ولزوجي الكسيح. كلنا قد بلغنا عتياً من العمر، وكلنا في سن الراحة، لكنني الوحيدة التي يجب أن أكدح وأن أوصل الركض والخدمة كي يستمر الآخرون بالحياة، قل لي بربك ما أنا فاعلة؟

في هذه اللحظة، جاء النادل بكأسين طويلين من عصير الفواكه الذي تشكل في داخلهما بطبقات ملونة مغرية، وحين وضع الكأسين الرشيقين الطويلين، خلت أن نقاطاً براقاً تنبض من داخل الطبقة القرمزية في الكأس، فسارعت أسال النادل

عن هذا السائل القرمزي الذي تتلأأ فيه حبات فضية براقه مجهولة، فقال باسماء، إنها ثمار فولوكولا، ومصدرها غابات الأمازون في البرازيل، وهي فواكه نادرة، لكننا نحصل عليها بجهودنا.

حين انصرف متأنقاً، باشرنا نرشف من كأسينا الطويلين، و ما برحت حائراً في العثور على جواب عن سؤالها، ثم سارعت أكسر حاجز الصمت بالقول: لعلك تحتاجين إلى شخص آخر يعينكم في حياتكم.

أجابت والدمع المشارف على السقوط قد باشر يسيل فعلاً على وجنتيها السمراوين: من أين لي بشخص آخر؟ ليس عندي لا ولد ولا تلة، لا شقيق ولا أخت في هذا البلد، ولا ولد ولا بنت، وما تبقى من أقربائنا لن يشغلوا انفسهم بمجموعة من المعلولين العاجزين. لم أعد شابة جميلة فأفكر في زواج جديد قد يغير كل الأوضاع... لا أعرف... وبكت تشهق بشدة مؤلمة.

يحدث هذا في وظيفتي دائماً، فالاستماع إلى هموم الناس وأسرارهم جوهر عملي كجليس، لكنّ التعاطف معهم ينقلني من حالة الجليس إلى حالة الخل الأليف، وهذا صعب عليّ غالباً.

كفكفت شهيقها المؤلم وعادت تقول: أنا الآن ممرضة متقاعدة أقوم بخدمة معلولين كسيحين، وعلي أن أقضي العمر معهما في هذه الحالة، أنا اليوم في الرابعة والستين وكذلك زوجي، وأمي قد قاربت التسعين، من يلتفت إلى هذه المجموعة التعيسة العاجزة؟ إلى متى أبقى ممرضة للمعلولين؟ لماذا أصلاً ذهبت إلى التقاعد؟ متى أرى حياتي وماذا تبقى منها؟

تغيرت الأغنية في جهاز تسجيل المقهى، وصارت نجاه تغني أنا بعشق البحر، فسارعت افتح موضوع حوار آخر ينسيها هذا الهم المرعب، فصرت أسألها عن هذا المقهى الأصيل الجميل وكيف وجدته، فنظرت إلي بعينين انهكتها عشرين السنين من خدمة المرضى والجرحى في العراق المحارب، ثم مسحت دمعها بظاهر كفها الصغيرة السمينة، وقالت: هذا المكان عرفته مع زوجي، كنا في أيام الجمعة، قبل سنين طويلة، نأتي إلى هنا بعد أن نكون قد شهدنا فيلماً مختاراً في سينما الزوراء في الساعة الواحدة بعد الظهر، وتناولنا الغذاء بعدها في المتنزه الكبير، حيث كنت أطبخ لنا أشياء بسيطة، ثم نقضي الأمسية في هذا المقهى، لنعود إلى البيت الصغير في ساعة متأخرة ونحب بعضنا وننام بانتظار يوم جديد

بأمل من نوع آخر. فعلنا هذا سنوات طويلة. كان هذا المقهى في البداية مجرد كشك جرائد صغير، يبيع القهوة والسندويشات لركاب القطار وللمودعين والمستقبلين في المحطة. ثم طوره صاحبة حتى بات بهذا الشكل الجميل.

سكنت برهة وهي تنظر في عيني، ثم قالت وهي تبتهل: حتى هذه المتعة الصغيرة لم يعد بوسعنا الحصول عليها. آتي إلى هنا أحياناً لوحدي، لكنّ هذا كئيب وحزين جداً، ويزيد لوعتي وعذابي.

سكنت تنظر في حبات المطر الملتصقة بزجاج المقهى، وانصرفت اتطلع في البوسترات الجميلة وأرشف من كأس العصير الأنيق. ثم بادرت تسألني: هل تملك حلاً يعفني من هذا العذاب الأبدي؟ أفكر كثيراً في الانتحار، لكن... لكن الشمس ما زالت جميلة ومن المؤسف ان أغادرها إلى ظلمة القبر، ثم لو رحلت باكراً هكذا من سيبقى لهذين المقعدين؟ أتدري كيف أقضي أيامي؟ هناك العم راضي وهو جارنا وسائق حافلة صغيرة، يوصلني كل صباح لبيت أمي كي ألبث إلى جانبها، ثم يلتقني من بيتها مع حلول الظلام حين ينتهي من عمله المضني ويعود بي إلى هنا، فأجد البيت في أسوأ حال، رغم أنّ لنا جاراً هو صديق زوجي، يقضي معه بضع ساعات كل يوم، إلا أن رجلين في البيت يزيد البيت وسخاً وخراباً ولا يفيد الزوجة في شيء.

وهكذا أقضي أول كل ليلة في التنظيف والطبخ لليوم التالي، حيث أقسم ما طبخته بين أمي وزوجي وبين وبين العم راضي وجارنا الذي يزور زوجي كل يوم. هل تتخيل أي حياة مقرفة أعيشها؟

تشهق مع نفسها بصمت، وقد بدأ جسدها الممتلئ الواهن يهتز لشدة النحيب. أنقل بصري بينها وبين الجدران، بحثاً عن جملة أواسيها بها، ثم أربّت بهدوء على كفها الأسمر الصغير الممتلئ مثل أكف الأطفال، وأقول لها: الحب يلغي كل الاعتبارات، وما دمت تحبين هؤلاء فأنت تنسين هذه المرارة.

شهقت بالدمع ونظرت إلي وبين أسنانها المترابكة على بعضها بلا نظام أسئلة وقالت: إلى متى؟ إنها نهاية العمر، متى سأرتاح إذا، أي حياة هذه التي قضيتها؟ قضيت ما تبقى من اللقاء في تهدئة خواطر السيدة بشائر، ودفعت حساب المقهى الجميل وشكرتها لأنها عرّفتني بهذا المكان الرائع في قلب بغداد الكرخي.

وحين غادرنا، أوصيتها أن تكتب لي كلما شعرت بحاجة للحديث، فإذا كنت موجوداً في بغداد فسوف أوافيها. وافترقنا بوداع معطرّ برائحة بغداد بعد المطر.

\*\*\*



تسوق لي الصدف أحياناً محاورين لا يطلبوا أن استمع لهم باعتباري جليساً اسمع هموم الناس وقصصهم، فيحدث حينها أن يتحول دوري من جليس إلى محاور يتبادل الرأي مع طرف ثانٍ دون اتفاق مسبق وهذا ما جرى لي في الشأن التركي ذات شتاء.

كانت محطة قطار روتردام العصرية بالغة الأناقة تعج بالمسافرين، رغم البرد. وما إن يجتاز المرء المدخل الذي يظله مثلث اسمنتي يمثل مقدمة قطار سريع وهو يبدو من السماء مثل طائرة نفاثة توشك على الاقلاع، حتى يغمره دفء المكان رغم حجمه الشاسع. السقف مرتفع بشكل مخيف، والواجهة الزجاجية تسرب نور النهار بشكل مستمر إلى الفناء مترامي الأطراف. حشود المسافرين تتحرك بشكل كتال بشرية متراسة مسرعة، كل منها باتجاه بوابة. البوابات الزجاجية التي تقود المسافرين إلى طبقات متعددة من السكك الحديدية تجبر المرء على التأنى قبل أن يدلف إلى أي منها خشية أن يتيه في دوامة السكك الحديدية والأرصفة.

كان علي أن أستقل قطار ICE الألماني العابر لأوروبا مثل سهم أبيض رشيق ليوصلني إلى محطة برلين المركزية. لكن الرصيف المكتظ بالمسافرين، بدأ يخلو ولا أثر لقطاري المنتظر ولا لركاب يتجهون إلى نفس وجهتي، رغم أن اليافطة الالكترونية الزرقاء كانت تبين أن رحلة القطار رقم 238 ستصل به إلى هذه المحطة في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً، أي بعد نحو 10 دقائق من الآن، لكن لا أثر للمسافرين على الرصيف إلا بضع أفراد، وهذا ما أثار مخاوف من وجود خطأ ما. وانتبهت فجأة إلى حيرة مسافر آخر أوروبي المظهر وهو ينظر في موبايله إلى التوقيتات والساعة ويظيل التحديق في خطة حركة القطارات الأسبوعية الصفراء المعلقة في واجهة زجاجية تتوسط الرصيف. وقفت خلفه، متأملاً بدوري الخطة. كل القطارات المحددة اتجاهاتها وأوقاتها مؤشرة بوضوح، والقطار الذي انتظره بالرحلة رقم 238 واضح التوقيت والاتجاه، وبهذا لم يبق أمامي سوى الانتظار.

في تمام الثانية عشرة، وصل القطار رصيفنا وفتحت أبوابه، وانتبهت إلى أن عدد المسافرين المغادرين من روتردام بهذا القطار لم يتجاوز بضع أشخاص، بينهم الأوروبي النحيف الذي بدا مثلي متلهفاً للتأكد من وصول القطار. صعدت إلى العربة التي سنتقلني كما تشير البطاقة، واتجهت إلى مقعدي المطل على طاولة قراءة يتوفر فيها وصلة انترنت ووصلة شحن الموبايل. وما إن جلست حتى قدمت شابة يافعة وجلست قبالي متكئة إلى النافذة وغرقت في موبايلها، وبعد دقائق، جاء الرجل الذي كان معي على الرصيف وجلس في مقعد آخر يقابلني، حيث يمكن أن يتحلق حول طاولة القراءة 6 مسافرين. وما إن جلس في مقعده، حتى جاءت سيدة تجاوزت الخمسين من عمرها، وانضمت إلى طاولتنا.

حسب بطاقتي، تستغرق الرحلة 7 ساعات يقطع القطار فيها 610 كيلومتر، وهكذا بدأت أقرأ تقريراً نشره بالإنكليزية معهد الأمن والسياسة في برلين عن السياسة التركية وعنوانه **Turkey's Role in the Middle East** والذي كتبه باحث ألماني متخصص بالسياسة والأمن، حول توجهات تركيا الإردوغانية خلال الألفية الثالثة، وفي عصرنا هذا يبدو أن النخبة الألمانية هي خير من يفهم توجهات السياسة التركية. وما برحت أدون في صفحة ملاحظات هاتفي المحمول رؤوس أقلام قد تكون مفيدة لي.

وانتبهت مرتين أن الأوروبي النحيف الذي كان معي على رصيف محطة روتردام، يختلس النظر إلى غلاف التقرير الأنيق باللونين الأحمر والأزرق وهو غارق في هاتفه المحمول. بعد نحو ساعة، غادر الرجل الطاولة تاركاً حقيبته اليدوية ومعطفه السميك على كرسيه. بعد نحو نصف ساعة، غادرت أنا إلى عربة الكانتين، وطلبت وجبة غداء مع زجاجة كولا، فيما كان الأوروبي الذي يشاركني طاولة القطار يعب زجاجة بييرة ثانية بعد أن انتهى من الأولى وهو واقف إزاء إحدى النوافذ على طاولة طويلة ممتدة على طول العربة. وقفت قريباً منه، وبي شعور أنه سيبدأ معي حواراً. ما إن شرعت اتناول طعامي حتى واجهني بابتسامة وهو يقول بإنكليزية غير رشيقة: من الغريب أنك مهتم بتركيا، وتجلس إلى طاولة واحدة مع مهتم آخر بهذا البلد. وهكذا صرنا نتحدث عن سياسة تركيا فيما يعرف بالعثمانية الجديدة التي يخطها رجب طيب أردوغان. أثناء حديثه لفت نظري شكل فمه أثناء الحديث، وهذه من خواصي الشخصية، إذ تلفت نظري دائماً أفواه الناس وهم يتحدثون أو يضحكون أو يبكون أو حتى

يغنون، وخلت لوهلة أني أعرف هاتين الشفيتين وهما تتقلصان وتنفتحان، كما أن انكليزيتة بلكنتها الثقيلة لم تكن غريبة عني.

سارعت أشاركه الحديث قائلاً: طالما كانت اسطنبول محطة ترانزيت للمسافرين من آسيا إلى أوروبا وبالعكس، وهذا تابع لموقعها الجيو سياسي، ويتعاضم إلى حد كبير دور هذا المعبر الآسيو - أوروبي في الألفية الثالثة، لكن يخال لي أننا التقينا في مكان ما، لا أتذكر أين، ولكن لدي شعور قوي أننا عرفنا بعضنا عن كئب.

نظر إليّ بعينيه الزرقاوين الثاقبتين، وقد تقلصت الابتسامة على شفتيه في محاولة منه لاستذكار مكان معين التقينا فيه، وصار يقول لي أنه تركي الأصل، وقضى فترات طويلة من حياته في بغداد وأربيل وبيروت، قبل أن ينتقل إلى برلين ليستقر فيها، وهنا استوقفته بحركة من يدي وقلت له: لحظة واحدة، أظن أننا اقتربنا من بعض، كان اسمك... حسن علي خان أو...؟

ضحك بصوت عال وهو يقول: نعم تقريباً وصلت، إحسان بدرخان!

ارتبكت لحظة وأنا أحاول أن استعيد تلك الأيام التي التقيت فيها هذا الرجل في ورشة عمل بمكتب مؤسسة كارنيغي في بيروت، وسألته: لحظة واحدة أظن أننا التقينا في بيروت عام 2010 بورشة عمل "علاقات تركيا مع عالم عربي متغير" نظمتها مؤسسة كارنيغي في بيروت حيث اجتمع خبراء عرب وأتراك وأوروبيون لمناقشة العلاقات التركية - العربية! اعتقد أنك شاركت بتلك الورشة؟

ضحك الرجل وقال: نعم، نعم بالضبط، أظن أنني بدأت أتذكر لقاءنا، نعم تذكرت، وصار يستذكر محطات من ذلك اللقاء بصوت متحمس، ثم وضع يده على كتفي وهو يقول مبتهجاً، يالها من مصادفة غريبة، تخيل نحن نلتقي في قطار يسافر عبر أوروبا لنجلس على طاولة واحدة، ثم نلتقي في كانتينا القطار لنجد أننا عرفنا بعض قبل زمن قديم...واووووووووو!

وانطلقنا نتحدث عن وضع سياسة تركيا بشكل عام وتدخلها في سوريا وموقفها من إسرائيل، وإلى أين يمضي اردوغان بسياساته. فقال إحسان: أنخراط تركيا في شؤون الشرق الأوسط تعاضم بفضل استخدامها ما يعرف بالقوة الناعمة، هل تذكر الجدل العلني بين اردوغان والرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في دافوس، وحادثة أسطول الحرية قبل أشهر، ودعم تركيا للمتظاهرين في ميدان التحرير

ضدّ الرئيس المصري السابق حسني مبارك. الدور التركي في الشرق الأوسط يستند على ثلاث ركائز: التحوّل الديمقراطي، والتنمية الاقتصادية، وسياسة خارجية محسّنة تعد بتصدير الحلول.

قلت له: لكن المعنى الحقيقي للأردوغانية هي إحياء نموذج تركي اسلامي يتماهى إلى حد كبير مع الإخوان المسلمين وصنائعهم من التنظيمات السلفية المتشددة!

أجاب مظهراً اعتراضه: لكن السلفيين في مصر، حزب النور، وقفوا مع الرئيس السيسي ضد حكومة محمد مرسي الإخوانية. فكيف نضعهم في صف الإخوان؟

هذا استثناء نادر، فحزب النور أدرك أن قضية الإخوان خاسرة بعد سنة مرسي سيئة الصيت، وأدرك أن ورقتهم محترقة فذهب ليتحالف مع الطرف الأقوى، وهم الجنرالات.

قال إحسان: اعتقد أننا متفقان في العموميات لكننا مختلفان في التفاصيل. الأمر يتعلق بدول الشرق الأوسط غير العربية، تركيا وإيران وإسرائيل، الدول العربية التي يراها البعض تتّجه نحو الديمقراطية، بشكل ما باتت تستعيد سيادتها. وما يراه البعض عجزاً كلّ من تركيا وإيران عن لعب دور بارز في العالم العربي مرتبط بحقيقة أنهما ليستا دولتين عربيّتين، وعليهما بالتالي أن تتخطّيا عقبات ثقافية وقومية كبيرة. كما أن المشاكل التي شابت العلاقة بين تركيا والدول العربية تعود هي أيضاً إلى الاختلاف الكبير في النظامين السياسي والاجتماعي-الاقتصادي لهذين الطرفين. فالأتراك والعرب كان لهما، تاريخ من التشابه الكبير، إلا أن الأتراك تقدّموا في حين أن العرب تراجعوا.

قلت: أيّ ديمقراطية نتحدث عنها: النموذج الليبي، أم المصري الإخواني أم التونسي المرتبك أم الإيراني أم التركي؟ الإسلام السياسي لا يصنع ديمقراطية ولا استقرار ولا دولة عصرية، بل أن أنظمة الإسلام السياسي لا تقبل بالديمقراطية ولا يمكن أن تتبناها، والدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط هي دولة غير عربية ولا إسلامية، إنها الدولة العبرية.

عدنا إلى طاولتنا في القطار، وجلسنا متقاربين نواصل الحديث، فقال محدثي مستعرضاً: الأوضاع ليست كلها في صالح أردوغان، أنظر! نحن الآن في شتاء عام 2015، انظر إلى ما جرى حتى الآن:

انتخابات برلمانية مبكرة في الأول من نوفمبر / تشرين ثاني الماضي، تعزز فيها موقع أردوغان وحزب العدالة والتنمية، واستضافت تركيا قمة مجموعة العشرين، هي الحدث الاقتصادي الأهم بالنسبة لتركيا خلال العام، كما أنه حدث شديد الأهمية لأوروبا التي لا تريد ان تبتعد عن تركيا، فالأخيرة صارت صمام الأمان الذي يحمي أوروبا من موجات التطرف والقتلة العائدين من سوريا والعراق وملايين المهاجرين غير القانونيين. تركيا تحافظ على بوابة أوروبا من جهتها.

لا تنس الأزمة التركية - الروسية هي الحدث الأهم الذي ألقى بظلاله على مجريات الأحداث في تركيا.

كما أن رعاية تركيا للمجاميع "الجهادية" لم تكن كلها بنفع اوردوغان وحزبه، فقد كان التفجير الإرهابي بأنقرة، والذي أودى بحياة 109 مواطن هو الحادث الأكثر مأساوية بالنسبة لتركيا خلال أعوام، قبل هذا شهدت منطقة " ميدان السلطان أحمد" التاريخية بإسطنبول، هجوماً انتحارياً نفذته مواطنة روسية، منتمية لداعش، في يناير، على شعبة السياحة، بمديرية الأمن في المنطقة، وأسفر الهجوم عن استشهاد مصرع تركي.

الصراع بين اردوغان وكولن يتفاقم مثل نار تحت الرماد، ففي شباط/ فبراير قام صندوق تأمين الودائع الإيدخارية التركي، بوضع يده على 63% من إدارة بنك آسيا، التابع لجماعة فتح الله كولن، بعد أن أظهرت التحقيقات وجود مخالفات كبيرة بالبنك، وذلك في إطار التحقيقات بقضية "الكيان الموازي".

ويبدو أن فبراير هو الشهر الأكثر حيوية سياسياً في هذه السنة، فقد وقعت تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، على اتفاق تدريب وتجهيز المعارضة السورية المعتدلة.

وفي فبراير نفسه قامت القوات التركية بعملية عسكرية ناجحة، لنقل ضريح "سليمان شاه" (جد مؤسس الدولة العثمانية) من مكانه القديم قرب قرية قره قوزاق قرب حلب، إلى مكانه الجديد بقرية "آشمة" غربي "عين العرب"، إثر تعرض الضريح للتهديد من قبل تنظيم داعش الإرهابي.

وفي نفس الشهر وجه "عبد الله أوجلان" زعيم تنظيم حزب العمال الكردستاني (بي كا كا) رساله من محبسه، بجزيرة إيمرالى التركية، لعقد مؤتمر عام حول

ترك السلاح، والتخلي نهائياً عن العمل المسلح، لينتهي بذلك فترة من النزاع المسلح دامت أكثر من ثلاثة عقود.

ثم جرى اغتيال رجل الأعمال والسياسي الطاجيكي، أومار الي قوتوف، بأحد أحياء إسطنبول. ثم اغتيل سعيد كريميان مدير عام شبكة التلفزة الايرانية جم تي في إسطنبول بإطلاق رصاصات عليه وهو يستقل سيارته.

ثم جرى قتل المدعي العام بإسطنبول، محمد سليم كيرازلي، إثر اقتحام متمردين منتمين لتنظيم جبهة حزب التحرير الشعبي الثوري، لمكتبه بالقصر العدلي بإسطنبول، وإطلاق النار عليه.

وفي نيسان نفذ هجوم آخر على مقر مديرية الأمن بإسطنبول، وأسفر عن مقتل أحد منفذي الهجوم، والقبض على الآخر.

الملفت للنظر أن البرلمان الأوروبي في شهر ابريل نفسه، وبعد شهر من انتهاء ارمينيا اتفاقيتها مع تركيا، قد أقر بالإجماع قبول مشروع قرار يصف أحداث عام 1915، بالإبادة الجماعية في حق الأرمن.

وفي أيار/ مايو اندلعت اشتباكات أثناء فعاليات الاحتفال بعيد العمال، وإصابة 50 شخصاً منهم 25 شرطي، وتوقيف 339 شخصاً لإثارة الشغب.

الملفت للنظر أنه في حزيران/ يونيو جرت الانتخابات البرلمانية التركية، وجاءت نتائجها فوز حزب العدالة والتنمية بنسبة فقات 40 % وحصول حزب الشعب الجمهوري، أكبر الأحزاب المعارضة بنسبة اقتربت من 25 %. وخسارة حزب العدالة والتنمية للأغلبية المطلقة التي تؤهله لتشكيل الحكومة لأول مرة منذ أول انتخابات خاضها عام 2002. لكن هذا الفوز متزامناً مع الحراك لم يقدر إلى تغيير في المشهد السياسي

وفي تموز / يوليو وقع تفجير انتحاري، بقضاء سروج، التابع لولاية شانلي أورفا، جنوب شرق تركيا، أسفر عن مقتل 23 ، وإصابة 100 آخرين. وأعلن تنظيم داعش مسؤوليته عن الحادث.

وما لبثت أن أعلنت الخارجية التركية التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص السماح لقوات التحالف الدولي ضد داعش باستخدام قاعدة "إنجيرليك" الجوية وسط تركيا.

وفي آب/ أغسطس أعلن الرئيس أردوغان، إجراء انتخابات برلمانية مبكرة، بعد فشل الأحزاب في الوصول الى اتفاق بشأن تشكيل حكومة ائتلافية.

في نوفمبر من نفس العام اسقطت مقاتلتان تركيتان من طراز إف-16 طائرة حربية روسية من طراز سوخوي-24 اخترقت المجال الجوي التركي، ولم تستجب للتحذيرات التي أطلقتها الطائرات التركية، ونشبت أزمة سياسية لكنها انطفأت بشكل غامض يعزوه البعض إلى اتفاق على تقاسم المصالح في سوريا، مقابل السكوت عن قضية الطائرة.

توقف هنيهة عن سرد المعلومات، ولفت نظري دقة معرفته بالمشهد التركي، ثم نظر إليّ وقال: نحن في قراءتنا، نرى المشهد يسير إلى تغيير كبير في بوصلة السياسة التركية، تغيير يمكن وصفه بأنه انفجاري.

هل تعني أن منعطفاً غير متوقع سيطراً على سياسة اردوغان؟

بل أعني أن النخبة السياسية برمتها تسير في طريق الزوال، هناك تحالف غير معنن بين تنظيمات يسارية وديمقراطية وبين تنظيم فتح الله غولن الإسلامي المعتدل لإجبار اردوغان على قبول التغيير.

- هل تتوقع أن يقبل تغيير سياسته؟ إنه يبشّر بالعثمانية الجديدة، وبهذا ينقشى شعوبياً بين الطبقات الأفقر من الأتراك. إنه ينجح في تعبئتهم ضد الانتلجنتسيا والقوى الديمقراطية وضد اليسار "الكافر" وبذلك يضمن لنفسه سيادة مطلقة على المشهد السياسي.

إن لم يقبل سيجبرونه بالقوة، وحتى إذا اقتضى بقوة السلاح. جنرالات العسكر ليسوا معه.

- لدي رؤية خاصة بشأن دور دول الشرق الأوسط غير العربية، تركيا وإيران وإسرائيل. هذه الدول تمثل نموذجاً متقدماً للسياسة والاقتصاد في المنطقة، وعليها

إذا ارادت أن تغير المعادلات السياسية، أن تجد لنفسها مكاناً مؤثراً بين النخب السياسية العربية، للخروج بها من تأثير كارتل البترودولار.

قال مبتسماً: من جانبي أرى أن تركيا وجدت لها مكاناً بين النخب السياسية السنية في المنطقة وباتت تؤثر في قراراتها، كما أن إيران نافذة جداً بين النخب السياسية الشيعية في العراق ولبنان واليمن والبحرين وبضع دول إفريقية، وتؤثر هي الأخرى إلى حد كبير في قراراتها، الدولة الوحيدة التي لم تنفذ إلى النخب السياسية العربية هي إسرائيل، وهذا يكشف عن ضعف موقعها السياسي في هذه المرحلة الحاسمة.

- إسرائيل تمثل قوة الردع النووي الحقيقية الوحيدة في المنطقة، هذا غير أنها دولة علمانية أوروبية الطراز، وبالتالي فإن أي مشروع لفتح نافذة على الديمقراطية في المنطقة يجب أن تكون إسرائيل جزءاً منه. ألم تر المشروع الأمريكي في العراق عام 2003؟ إنه أهمل أن يفتح نافذة على إسرائيل اهمالاً كبيراً، فتحولت البنادق العراقية كلها إلى جانب إيران ضد أمريكا وإسرائيل، ما أساء إلى وضع حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة.

قال بصوت هادئ حاسم: دعني أقول لك شيئاً يا عزيزي، إسرائيل النووية تخشى تركيا وإيران حتى إذا كانتا نمرين بلا مخالف نووية، إنهم يدركون قوة الجيوبولتيك التاريخي في المنطقة، وهذه القوى لن تتغير مواقفها بسهولة دون زلزال من نوع ما. كما أن إسرائيل لم تجرؤ حتى اليوم أن تدعم أي قوة سياسية عربية علمانية ديمقراطية، لا تنس أن إسرائيل مشروع دولة تقوم على المزج بين الدين والقومية في النهاية، وهذا يجعلها جزءاً من تعقيدات مشكلات الشرق الأوسط، وليس جزءاً من مساحة حلول مقترحة.

-حتى يؤذن ذلك الزلزال، سيبقى المشروع الإسلامي التركي العثماني، الإيراني الصفوي هو السائد ولكن تردعه دائماً القوة النووية الإسرائيلية.

تبسم وهو ينظر بعين تعلن الاعتذار إلى السيدتين الجالستين معنا على الطاولة وقد ضغن ذرعا بحوارنا السياسي الرتيب الممل بالنسبة لهن، فابتسمت الخمسينية وقالت: يمكنكما مواصلة الحوار على وقع الانخاب، مع الكحول نقل حدة الحوارات السياسية وتصبح مدعاة للسخرية والمزاح.



كانت إشارة ذكية، مفعمة بالإحساس، وفيها كثير من الدقة، لذا سارعنا نهض من مقعدينا، ونستأذنها لنذهب إلى الكانتينا مرة أخرى.

طلبنا علبتي جعة هولندية، ووقفنا ننظر من خلال زجاج النافذة إلى الحقول والطرق تمر علينا سراعاً حتى لا نكاد نراها. وعدنا لنكمل الحديث من حيث وقفنا، فقال إحسان: بعد كل هذه السنين، ما زالت النخب العربية لا تقبل بإسرائيل بدلاً عن القوة التركية والإيرانية، وأظن هذا سيستمر لفترة طويلة غير معلوم أجلها.

- المشكلة هي أنّ النخب العربية لم تستطع أن تغادر حتى الآن الطرز العثماني في الإدارة حتى على مستوى دوائرها الرسمية وهيئاتها التنفيذية، وهذا بحد ذاته مؤشر على مستوى تخلف هذه النخب عن القيم الديمقراطية والليبرالية في العالم.

قال وهو يهز كأسه العملاق من الجعة ليقلل من رغوتها المتصاعدة: لعل الخلل في الديمقراطية والليبرالية يا صديقي، كل التجارب التي جرت في المنطقة نحو الديمقراطية باءت بالفشل، ربما الاستثناء الوحيد هي مصر، لكنّ ديمقراطية مصر تحرسها حراب العسكر وبساطيل الجنرالات.

انهينا حوارنا، وعدنا لطاولتنا نواصل القراءة ساكتين.

---

\*بعد ثمانية أشهر من لقائنا في القطار وحوارنا حول السياسة التركية، وفي 15 تموز/ يوليو من عام 2016، ويلاحظ أن يوليو هو شهر الثورات عبر العالم، تناقلت وكالات الأنباء عبر العالم أخبار انقلاب واسع نفذه العسكر بدعم سياسي ضد سلطة اردوغان.

ويبدو أن حملة اردوغان وغريمه غولن على العسكر وسلطاته، قد حسمت الموقف لصالح القوى الإسلامية فتم تهميش الجيش، وبدأ الصراع على السلطة بين حزب العدالة والتنمية وحركة غولن من أجل السيطرة على البلاد، علماً أن وجود حركة غولن في بنية الدولة التركية عميق للغاية ومن الصعب تتبعه.

وظهرت للعلن عبر وسائل الاعلام نظريات تتهم إردوغان نفسه بتدبير الانقلاب لإحكام قبضته على البلاد والتخلص من كل معارضييه فيما تعهد الرئيس إردوغان

بتطهير البلاد مما أسماه "الكيان الموازي الإرهابي"، وأطلق حملة اعتقالات رهيبة قضت على أغلب ملامح ديمقراطية أتاتورك العلمانية الغربية، وما برح إردوغان أن سيطر على الوضع في ظل وقوف بعض قادة الجيش الكبار إلى جانبه. وهو ما يتضح خاصة إذا ما عرفنا أن قوات الدرك والقوات الجوية هم من نفذوا محاولة الانقلاب.. وسمعنا عن إدانة قطاعات رئيسية من الجيش محاولة الانقلاب بشدة.

وبحسب تقارير فإنّ المجلس العسكري، الذي حاول الانقلاب، احتجز القائد العام للقوات المسلحة واثنين من الجنرالات من القوات البحرية كرهائن. وأُفرج لاحقاً عن قائد القوات المسلحة. وتعددت النظريات حول من يقف وراء هذه المحاولة الانقلابية الفاشلة.

وتُشيع إحداها أن الرئيس إردوغان يقف وراء محاولة الانقلاب، وأنها "عملية مزيفة" أراد إردوغان من خلالها كسب المزيد من السلطة، ولكن المنطق يشير إلى أن الحدث أبعد ما يكون عن عملية مزيفة.

بينما تتبنى الحركة الكردية نظرية أخرى تتمثل في أن الكماليين الموجودين في الجيش، أتباع مؤسس تركيا العلمانية الحديثة مصطفى كمال أتاتورك، خدعوا أتباع فتح الله غولن وقرروا الإطاحة بهم من خلال تنفيذ هذا الانقلاب. ثم فهم الكماليون أن الانقلاب سوف يفشل، وعندها وجهوا إردوغان ضد أنصار غولن، فتحرك لتطهير الجيش والدولة منهم.

والنظرية الثالثة التي أعلن عنها أحد مسؤولي الشرطة، تشير إلى أن حكومة العدالة والتنمية كانت تخطط لاعتقال أنصار حركة غولن في الجيش يوم 16 يوليو/ تموز، وعندما علموا بهذه الخطط قرروا تنفيذ انقلاب عسكري سريع في يوم 15 يوليو/ تموز، لذلك ظهر بشكل مرتبك وغير منظم.

ووجه إردوغان ووزراؤه اللوم إلى حركة غولن وحملوها مسؤولية تدبير محاولة الانقلاب، وقالوا إن الجماعة في الرمق الأخير.

ثانياً، يشبه بيان المجلس العسكري، الذي تمت إذاعته بالقوة على التلفزيون الرسمي للحكومة أثناء محاولة الانقلاب، بصورة كبيرة خطاب مصطفى كمال أتاتورك الشهير إلى الشباب التركي.

كما أطلق مدبرو الانقلاب على أنفسهم أيضا اسم "مجلس السلام في الوطن"، وهو مشتق من مقولة أتاتورك الشهيرة "السلام في الوطن والسلام في العالم".

وتزعم حكومة حزب العدالة والتنمية أن المدعي العام العسكري يقف وراء المحاولة، جنبا إلى جنب مع 46 ضابطا سُربت أسماءهم إلى وسائل الإعلام في وقت متأخر من الليل.

يأتي كل هذا في وقت تعاني فيه تركيا من تمدد آثار الحرب في سوريا، والتهديد من تنظيم دولة الإسلامية، والتمرد الكردي.

شخصياً، أثارت دهشتي دقة قراءة إحسان بدرخان قبل بضعة أشهر لهذا الحدث، بحيث أنها جاءت مطابقة تماماً له، وهذا يضع أمامي مؤشرات مهمة على حجم هذا الرجل في المشهد السياسي التركي.

\*\*\*

قالت وكل ما فيها نشوان: لا أريدك أن تشتهيبي، عليك فقط أن تصغي إليّ،  
وتقول لي رأيك حين أسألك، هل أبدأ بالكلام؟

وبدأت شهرزاد هذا العصر تروي ما تحب دون وجل من سيف جلاذ قد يكون  
خلف بابي، رغم أنني لم أكن قط شهريار المترف المولع بالحكايا لتسليه عن عنته  
وعجزه عن مواجهة النساء.

عملي هو الإصغاء وتبادل الحديث مع الناس. أنال عن هذا العمل أجراً كبيراً،  
وأعمل في كل مكان يمكن أن يوجد فيه إنسان وحيد يحتاج الى من يبادلته الحديث،  
ويصغي له باهتمام. المستوحدون يعدّون بالملايين. كل واحد منّا يمكن أن يكون  
مستوحداً في لحظة ما، وفي هذه اللحظة تأتي فرصتي لأمارس عملي، ولمن  
يسأل: كيف لي أن أعرف هذه اللحظة ومن يدفع لي أتعابي؟ أقول إن هذا هو جزء  
من تفاصيل عملي وقد أبوح ببعضها خلال هذا السرد.

قالت: حين احتجت له لم يكن هناك، المرأة تريد الرجل معها حين تخاف، وحين  
تحزن وحين تقلق، وهو لم يكن هناك. هذا ليس ترفاً أبدده الليلة على طاولة  
يكسوها المخمل الأحمر، وفي أجواء صالة باذخة يحكي كل ما فيها قصة الإسراف  
وجزاف الترف، هذا جزء من قلبي الكسير أضعه على طاولتك أيها الغريب الذي  
جلست قبالي تصغي لأنيني دون أن تتنطق.

لا يهمني أن يكون زوجي أكبر من وزير، ولا يهمني أن السيارة التي تنتظرني في  
مرأب هذه الصالة قد فاق ثمنها قيمة بيت منيف، ولا يهمني أنني أستطيع بعد  
ساعتين أن أسافر بجواز سفري الدبلوماسي الى أي مكان أشاء دون الرجوع إلى  
أي جهة أو سلطة. كل هذا وأكثر منه لا يهمني قط، المهم بالنسبة لي هو أن زوجي  
لا يزور الطبيب معي لنعرف سر عدم قدرتنا على الإنجاب. نحن نملك كل شيء،  
لكننا لا نملك أحداً يرث هذا الجاه العظيم، نحن نملك كل شيء، لكننا لا نملك  
صريخ طفل يعبث فرحاً بصندوق العجائب الهندي في غرفة الضيوف، ويحطمه  
فأغضب لحظة ثم أنساه لأجل ضحكة لاثغة يطلقها الطفل.

وصل بلدنا طبيب مختص بالإنجاب الصناعي قادماً من بلد بعيد، بذلت جهداً لكي  
أحصل على موعد لزيارته، وفعلت، فطلب مني أن أحضر زوجي معي ليجري

فحوصه علينا، لكن زوجي رفض متذرعاً بالعمل، وبقيت وحدي عاقراً لأن لا أحد معي تحت مبصر الطبيب، هل تجد هذا أمراً طبيعياً؟

قلت: هذا يعني أن المشكلة في زوجك، وهو لا يريد أن يطلع أحد- حتى أنت -على أنه عنين.

هذا هو الاستنتاج الطبيعي، لكن ما هو غير طبيعي أن زوجي كان قد تزوج قبل سنين طوال ، وعنده من زوجته الاولى التي طلقها طفلة.

- لماذا طلقها، أو لماذا انفصلا؟

يقول إنّ خلافات بينه وبينها جعلت حياتهما جحيماً.

- من منهما طلب الطلاق؟

هو الذي أراد طلاقها.

- قد لا تكون الطفلة منه إذا، وقد يكون سبب طلاقه من زوجته هو خيانتها التي عرفها من خلال الانجاب، فهو ربما كان يعرف أنه عنين.

أراك ذهبت بعيداً في نتائجك، دعني أروي لك ما يحدث عادة بيننا، لتعرف أي رجل هو، وأيّ امرأة تجلس إزاءك.

يعود في التاسعة مساء الى البيت في الأحوال الطبيعية، أجهز له الحمام بنفسي و لا أدع الخادمة تقوم بأي شيء. بعد الإستحمام أجلسه في الصالة الشرقية، على تخت مرتفع، وأنضو عني ثيابي الا ما يغطي صدري ومنطقتي الوسطى، آتي بطشت مزين بالزخارف أهدي لنا من الهند، وابريق من نحاس مرصع بزمرد وياقوت يقوي الباه ابتعناه من بلاد الطواويس، املاه بماء معطر بماء الورد، ثم أشرع أغسل قدميه ومنطقته الوسطى، أغسل معالم رجولته بكفي وأعطرها بالمسك، وألبسه جلباباً من حرير بلون السماء، وأبدأ أنظف وأقلم أظافر كفيه وقدميه، كل ذلك كعابد يُجري مناسك عبادته في محراب إله.

ثم أدعو له بالطعام، فتضع الخادمة كل ما لذ له وطاب على مائدة كبيرة في ركن من الصالة الشرقية، وتضع أمامه عربية تملؤها قناني الخمر والنبيد من أغلى الأنواع، وتصطف في طابقها السفلي كؤوس الكريستال البوهيمي بمختلف الأحجام

لشتى أنواع الخمر. بيتنا تغمره رائحة البخور والمسك، وتُطفأ الأنوار إلا من نواويس الحب تتقد هنا وهناك وتملأ المكان ظلالاً توحى بألف شهوة وألف حلم ايروسي.

نبدأ ليلنا الموشح بالموسيقى والغناء العذب بالرقص، أرقص له بأحلى فساتيني، ثم أرقص له نصف عارية، فيحترق لي، وأجلس عنده، في حجره وكل ما في يرتجف راقصاً ويهز أعماقه، يشدني إليه بحنين نصفه شوق الذكر، ونصفه الآخر شوق المحبة، ونطير معاً لعالم الغيب حين يبدأ سياحة أصابعه في مساحات ومنحنيات وهضاب جسدي الذي تحسني عليه كل النساء.

بعد البركان، لا ينطفئ لهيبنا، يغذيه الكحول وصحون الكافيار الفارسي المطلي بالزبدة، فنبدأ نستشكف بعضنا، ونسيح من أعلى الجبهة الى أخمص القدم، وبين ذلك وتلك محطات طويلة يقف عندها الفم ليملاً زوادة روحينا برحيق اللذة. تشتعل هضابنا بحريقٍ جديد، نطفي الحريق بماء الحياة وننام إلى بعضنا والحب يلفنا حتى الصباح.

وهي تروي حكايا حبها لهذا الرجل ذي المنصب الرفيع جداً، يطوف بي خيالي في تفاصيل هذا الفردوس الذي صنعه المال والجاه والسلطة، هو في الخمسين، يمتلك زوجة ما زالت دون الثلاثين ولا يوجد عشر نساء بجمالها في هذا البلد، وتحبه بل تعشقه، ومع هذا لا يلتفت اليها، أي سر يختفي خلف الجزئيات الفاضحة الشهية؟ حكايتها وضعتني معها في ذلك القصر الحلم، وشوقي لها يفسر لي لماذا قالت في البداية " لا أريدك أن تشتهيني"، وكيف لي أن لا أفعل ذلك وأمامي أوقيانوس العطاء الذي لا ينضب.

قلت لك منذ البداية "لا تشتهيني"! قالت بلهجة أقرب للزعيق

- الأمر ليس كذلك، ولكني أحاول أن لا أسمح لنفسي...

( مقاطعة بلهجة امرأة ) ، خير لك أن لا تسمح لنفسك، وظيفتك أن تصغي لي، أنت جليسي ولست عشيقتي، لا يهمني أيّ رجل في العالم سوى زوجي، ويقلقني حتى الجنون الخراب الذي يدبّ بيننا، لا أبدل هذا الرجل – الرجل بأيّ كان، فلا تنس حدود وظيفتك!

صوتها الحازم القاطع، وسحرها الأسر، ووضعي المخيف العجيب، وضع نهاية سريعة لرحلة أحلامي الذكرية، عدت سريعاً إلى منطقة عملي، فعليّ أن أستمع وأن أنصح إذا استطعت، وإلا فالإصغاء كافٍ، هكذا ينص عقد عملي مع ... مع من أعطاني هذا الحق.

- طيب، لنعد إلى الحقائق، واسمحي لي أن اتحدث بصراحة، هل زوجك كامل الرجولة؟

- نعم.

- هل يصل بواجبه الزوجي؟

نعم، هو يتفجر رجولة كالبركان، ويفعل ذلك مرتين أو ثلاث في الليلة، لكننا لا نلتقي في السرير كل ليلة، بل حسب وقت فراغه، هو كثير العمل، كبير المسؤولية، وهذا يحتم عليّ الانتظار.

- سؤال هام آخر، هل أجرى فحصاً لرجولته؟

نعم فعل ذلك أكثر من مرة.

- هل اطّلت على نتائج الفحوص بنفسك؟

نعم، ولكني لست طبيبة أو خبيرة لأعرف ماذا تعني تلك الرموز، طبيب المختبر الذي أجرى التحليلات، كان يخبرنا كل مرة أنّ مستوى الخصوبة عالٍ والنتائج ممتازة.

- قد يكون الحل في أن تدعيه يجرب مع امرأة أخرى.

هل أنت تقول، أن أدعه يواقع امرأة أخرى، لتحبل منه وتنجب؟

- هذا ما أقوله!

ولكن هذا عين الجنون، كيف أدعه يخونني مع امرأة أخرى؟ وما مصير الولد القادم؟ والى أين ستنتهي علاقته بتلك المرأة؟ هذا لا يكون.

- سيدتي، أصغ لما أقول! بالقدرة التي يمتلكها زوجك، يمكنكما أن تنجزا صفقة من نوع ما مع أية امرأة بمبلغ من المال، لتريا قدرة زوجك على الإنجاب، وحين

يحصل ذلك، تدفعا لها المبلغ المتفق عليه، وتعطيها مكافأة لرعاية الولد، والله يحب المحسنين!!

نظرت إليّ بعينيها النجلاوين الكحلاوين الرائعتين بامعان، ثم غضت بصرها تنظر الى لا مكان في جسدها، وعادت لتتنظر بعيداً عني ساهمة وقالت: لعلك مصيب، عليّ أن اشاوره.

وبدأت تلمم نفسها لترحل عني، أمسكت بحقيبة يدها الجلدية الثمينة وقالت: كم يجب عليّ أن أدفع لقاء هذا الحوار؟

- لا شيء يا سيدتي، أنا أجري مدفوع، شكراً لك.

نهضت من مقعدها الوثير، وفتحت حقيبتها وأخرجت رزمتي نقود كبيرتين وضعتهما أمامي وهي تقول: هذه مكافأتي إذاً.

- أرجوك سيدتي! لا أقبل هذا المال، هذه إهانة لي، أنا لست نادلاً، خذي المال وارحلي بسلام، ويمكنك أن تعودي لحواري متى شئت أو لا تعودي.

نظرت إليّ بتفحص وتحدي، ثم قالت: لا أحد يرد مكافأتي، خذ النقود كي تبقى أصدقاء، ويمكنني أن أعود لك، وإلا اتخذتك عدواً وتكون الحرب بيننا. قالت ذلك وصوتها يصفر كأنه صوت أفعى.

لا أستطيع، سأفقد عملي، أنا أقدم خدمة مجانية للناس، وأنت أردت لقائي، هذا لن يكون وإذا اخترت أن تكوني لي عدوة فهذا شأنك. نهضتُ باذلاً كفي لها بالوداع.

لم تأخذ كفي بل رحلت وشعرها الأسود يتطاير مثل شرع أزرق كبير تعصف به الرياح.

\*



يُغرق الكأس بدخان سيجارته الفاخرة ، في ثنايا الدخان تتسرب تفاصيل عطر باذخ يقتنص مشاعر من يجالس هذا الرجل دون شعور. بزته الرمادية الأنيقة وقميصه الأسود الحريري، وربطة عنقه بالغة الانسجام والتناغم، وحذاؤه الجلدي الأسود الفاخر، تكشف كلها عن ثراء وقوة. ينظر إليّ بغموض ثمل ويعرض أن نذهب إلى مكان أكثر هدوءاً من صالة القمار ذات النجوم الخمس.

نغادر الصالة، فنقترب منا سيارة هامر بيضاء عملاقة يقودها سائق الصالة الذي ما يلبث أن يترجل منها ليترك بابها مفتوحاً لجليسي الذي يضع في يده ورقة نقدية ليست صغيرة، ويجلس خلف المقود، فيما أجلس على المقعد المجاور له.

دون أن ينظر ناحيتي يقول: أنا بحاجة إلى أن أتكلم، بحاجة إلى من يصغي لي ويبيدي اهتمامه بما أقول، المشكلة عندي ليست في صعوبة التحدث، بل في صعوبة أن أجد شخصاً لا يهمله أن يستغل ما سأقول. في صدري أسرار تهز هذا البلد، وإذا لم أجد أحداً أتحدث إليه، سأجنّ.

- هل لي أن أسأل قبل أن تبدأ الحديث، لماذا قررت أن تتحدث إليّ، ومن ذلك على مكاني؟

إحدى أهم سيدات هذا البلد أشادت عندي بحسن استماعك، وهي التي أعطتني رقم هاتفك الخليوي، وقالت لي إنك موجود في كل مكان يعبق بعطر المال، وتستريح فيه السلطة، وها أني قد وجدتك حسب دقة وصفها. في الصالة كنت أنظر في الوجوه، وحين رأيته توقعته أن تكون أنت جليس الأقوياء، وحين طلبت بك بهاتفك ورددت عليّ كنت أنظر إليك وأبتسم لصدق حدسي ودقة ملاحظتي.

- هات ما عندك، ودع صندوق أسرارك مغلقاً، أو على الأقل موارباً، فهذا خير لي ولك.

إن لم أتحدث عن الأسرار، فليس لي إلا أن أحدثك عن أفضل الطرق لتخفيف الوزن، أو عن طريقة حياكة خف غرفة النوم!! الأسرار تثقل صدري، مثل مكبّ قمامة يكبر كل يوم ويخنق سكان المدينة المجاورة برائحته النتنة.

لنبدأ من منطقة محايدة، قبل مدة وصلتني بالبريد الالكتروني وثيقة مهمة صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية تكشف أنّ السلطات التونسية صادرت نحو 2.5 مليون يورو من سهى عرفات أرملة الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات وطردتها من البلاد بعد تجريدتها من الجنسية التونسية، عقب خلاف نشب بينها وبين زوجة الرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي. التفاصيل الدقيقة التي أعرفها قبل وصول الوثيقة تشير إلى أنه بعد وفاة الزعيم عرفات في عام 2004 غادرت سهى عرفات أراضي السلطة مع ابنتها زهوة لتحصل في عام 2006 على الجنسية التونسية ولتبدأ التقرب من القصر الحاكم ومن ليلي الطرابلسي زوجة الرئيس زين العابدين بن علي، ولكن وبعد عام أصدر القصر بياناً مقتضباً جاء فيه: "إن الجنسية التونسية جرى سحبها من سهى عرفات".

وبعد شهرين من ذلك تحادثت سهى مع السفير الأمريكي وأبلغته أنّ القصة كانت عبارة عن انتقام شخصي من ليلي زوجة الرئيس، وأنّ السيدتين أقامتا مدرسة خاصة في تونس، مدرسة لأبناء الأغنياء في تونس واندلع بينهما خلاف جراء ذلك، حيث لم تتردد سهى في اتهام السيدة ليلي بالفساد والتي أمرت في رد فعلها بإغلاق المدرسة وعملت على سحب الجنسية من سهى.

قطع حديثه حين وصلت بنا السيارة إلى مبنى أنيق كبير، تحيطه حديقة كبيرة يفصلها عن الطريق جدار عال. وقفنا أمام البوابة، وضغط على جهاز التحكم البعيد من داخل السيارة فانفتحت البوابة، ودلفنا الى مرأب طويل توقفت السيارة في نهايته عند باب البيت.

دخلنا الى غرفة كبيرة بيضاء اللون بها نافذة واسعة إطارها معدني أسود اللون وأفريزها من الرخام الأسود. لا تحتوي الغرفة إلا على أريكتين كبيرتين أنيقتين يكسوهما مخمل أسود وتتوسطهما مائدة كبيرة كل ما عليها من المطبخ اللبناني، وعربة خشبية متوسطة الحجم عامرة بالمشاريب والأقداح. فوق الطاولة، من سقف الغرفة تتدلى ثريا عملاقة من كريستال معرّق بخطوط رمادية، فيما أرضية الغرفة من الرخام الأبيض في قلبها صورة من المرمر الأسود لسلويت امرأة ورجل متعانقين، أشار لي بالجلوس على إحدى الأريكتين، وجلس قبالي وعلى

وجهه ابتسامة مزعومة وقال: تفضل يا جليسي الحميم، أمل أن يروق لك الأكل اللبناني!

أخذت بضع ملاعق مقبلات، وأعددت لِنفسي كأساً كبيراً من الجعة، وجلست أنظر إليه وهو يأكل وعيناه لا تفارقان صحون الطعام لكنهما تسيحان في جوف جمجمته وفي مخزون صدره من الأسرار. لم أشأ أن أستعجله وأحثه على قول المزيد خشية أن أثير في نفسه شكوكاً غير مبررة، فبقيت أتجرع من كأس الجعة وآكل من حين لآخر لقيمات من صحن المقبلات الشهي الكبير.

بعد نحو نصف ساعة من صمت تقاطعه لغة الأسنان والألسن والبطون، لحظت خلالها أن الرجل يأكل بنهم كبير، عاد جليسي للحديث قائلاً:

في تفاصيل غير معلنة عن الخلاف بين السيدتين المترفتين عرفت أنّ سهى كانت قد طلبت مساعدة الرئيس الليبي السابق معمر القذافي والذي تدخل ووبخ بن علي لأنه لم يحافظ على أرملة ياسر عرفات - فما كان من الرئيس التونسي السابق إلا أنّ سحب الجنسية التونسية من سهى.

إلى هنا يبدو الأمر بعيداً عن دائرة اهتمامنا، لكنّ على المرء أن يعرض الوقائع بشكل محايد وموضوعي ليعرف إلى أين يصل.

- ذهبت سهى إلى مالطا لأنّ شقيقها غابي هو ممثل السلطة الفلسطينية في الجزيرة الصغيرة.
- سكنت سهى في بيت أنيق قليل النوافذ يقع في ضاحية معزولة ويرجّح أنّ مالكة عراقي يدعى صباح دهّام وهو أحد المقربين من عدي نجل الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين.
- صباح كان قد التقى قبل وصول سهى عرفات وابنتها إلى مالطا في نفس البيت بعائشة ابنة معمر القذافي، التي أقامت بعد لقائها به مباشرة تمثالاً لصدام حسين في طرابلس الغرب.
- رافق عائشة في زيارتها رجل الأعمال الليبي إدريس وهو رجل له صلة الى حد كبير بما كان يجري في الدائرة القريبة من القذافي. هذا الرجل اشترى من صباح دهّام بعد تلك الزيارة، أسهما قيمتها 3 مليون دولار في شركة خاصة للأصباغ هي واجهة لإنتاج غاز الخردل لاستخدامه في إنتاج

قنابل كيماوية، والشركة والمصنع موجودان في إحدى الدول العربية الأفريقية.

● صباح دهّام بعد هذه اللقاءات المتتالية، زار دولة خليجية وأقام فيها بضعة أشهر، وقد تسرب أنّه قد أنشأ حلقة اتصال مع ضباط في القاعدة الأمريكية في تلك الدولة.

سكت عن الكلام، وانحنى يرخي حزام سرواله وشريط حذائه الأنيق وهو يتنأب متعباً، ثم عاد يقول: هذا هامش مما أعرف... وأعترف أنّ بوحى لك بهذا الهامش الصغير يبعث في شعورا كبيراً بالارتياح... هل تدري أيها الجليس؟ في بعض الأحيان لا بد من البوح ببعض الأسرار وإلا فقد الإنسان شعوره بالأمان والانتماء الى عالم البشر. لا أعرف كيف أشرح مشاعري، لكني لا أقوى على قول المزيد الليلة، ربما سنواصل هذا الحديث أو غيره في لقاء آخر.

ودعته دون سؤال أو تعليق، وأوصلني سائقه إلى الفندق الذي أسكنه والساعة تقترب من الثانية ليلاً.

\*

جرى كل شيء فجأة، ففي مطلع نوفمبر 2018 كلمتني صحيفة سودانية هاتفياً على واتساب، وأبلغتني أنّ لديها ما تقوله لي، ولكنها لا تعلم كيف تصل إلي، ودعتني لزيارتها في الخرطوم لتحدث بإسهاب عن أوضاع البلد.

أهم عناصر عملي هي عدم المجازفة بالعمل في المناطق الساخنة، والسودان منذ سنوات واقع في قبضة الفوضى، وميلشيات ومخابرات عمر البشير، لذا كان دخوله يمثل لي مخاطرة كبيرة، وهكذا اعتذرت لها دون تردد، مبيناً أنني لا أذهب إلى المناطق الساخنة، فهذا يتعارض مع مبدأ عملي وهو الاستماع للناس فحسب، وليس حل مشاكلهم.. وتفهمت المرأة وضعي، وبقينا متواصلين على واتس وهي ترسل لي معلومات وفيديوهات وصور لما يجري، وكانت أول من كشفت عن آلاء صلاح التي باتت ايقونة الثورة وهي التي باتت تدعى "حبوتي كنداكة" بسبب أغنياتها الشهيرة التي شحنت النفوس ضد البشير. وأرسلت لي الصحيفة (واسمها لبنى) كلمات الأغنية بسبب ضعف النت عندها:

يا والدة أعفيلي..

وعدي القطعتو معاك..

إنو الكلام ممنوع.. في شلة الحكام

يا والدة دمي بفور.. لما البلد تغلي..

لما العساكر ديل.. الشوهو الإسلام

جايبين تفاهاتم..

سجنونا باسم الدين..

حرقونا باسم الدين..

حقرونا باسم الدين..

كتلونا باسم الدين..

الدين بريء يمه..

الدين بقول الزول.. إن خلى حقو يموت..

بيخاوي في شيطان..

الدين بقول تمرق..

تمرق تقيف في الضد.. وتواجه الحكام..

الدين بقول الزول.. إن شاف غلط منكر..

ما ينكتم يسكت..

ببقى الغلط ستين..

كوز السجم بيغرف.. في خيرنا ويتمتع..

نحن السقينا النيل.. من دمنا الفاير..

ما بننكتم نسكت.. في وش عميل جاير..

الخوف عديم الساس.. وأنا جدي ترهاقا..

حبوبتي كنداكة.. وعبد الفضيل الماظ..

فراس بشيلو الرأس..

يمة الشباب بحيو.. وأنا بالسكوت ميت..

وبعد يومين أشتعل يوتيوب بفيديو آلاء وهي تعتلي المنابر في كل مكان وتشعل حماس الشبيبة. كشفت لقطات الفيديو أن الشباب الجامعي والخريجين العاطلين عن العمل هم من أشعل الثورة، أما كلمات القصيدة / النشيد فتدل على نضوج الثائرين، والصور التي أرسلتها لبنى كشفت عورات الإسلاميين وهم يحاولون أن يركبوا أكتاف الثورة، لاسيما أن قناة الجزيرة القطرية تعمدت عدم التغطية، فسارت باقي القنوات العربية والدولية في أثرها. كان واضحاً أن ثورة اليسار في السودان لا تروق للأنظمة العربية، ولا تروق لكثير من القوى التي تدعم التيارات الإسلامية.

حراك السودان يقوده اليسار لأول مرة، وهذا ليس عجباً فكثير من السودانيين ما زالوا يرون في الحزب الشيوعي السوداني قوة مخلصه يمكن أن تغير أوضاع البلد وتخرجه من دوامة الفساد والانقسامات والتشرذم التي نتجت عن سياسات البشير والأحزاب الإسلامية.

<https://www.youtube.com/watch?v=QRWjPX-BOMA>

في يناير 2019 عقد في القاهرة مؤتمر قوى الاصلاح الشعبية في السودان، وحضره عدد كبير من الناشطين والصحفيين والمعارضين أغلبهم من قوى اليسار التي يتزعمها الحزب الشيوعي السوداني، وطيف كبير من سودانيي كردفان والنيل الأبيض ودارفور، كما حضر صحفي وناشط واحد من جمهورية السودان. لم تتسرب عن المؤتمر أي أخبار، ولم تقم قنوات الأخبار العربية والدولية بتغطيته.

دعتني لبنى وهي من منظمي المؤتمر للحضور، فاتصلت بموسى حنون الذي يمول مشروع الجليس وأبلغته كل التفاصيل، وضمنها دعوة لبنى لي، ومستوى تقييمي لها، فأجاب أنّ علي الذهاب والاستماع للجميع، وطلب مني أن أسجل ما يقوله ناشطو كردفان ودارفور والنيل البيض. وقبل أن ينهي الاتصال سألتني موسى حنون عن انطباعي حول طبيعة الحراك، فكتفت له أن أدبيات الحراك والفيديوهات التي تتسرب وامتناع الإعلام الدولي والعربي عن التغطية بشكل مباشر، كما جرى في أحداث الربيع العربي الأخرى قبل أعوام يوحي لي أن الحراك يساري، أو متعاون مع اليسار، لكن عسكر السودان الذين تولوا قمة القرار في البلد لم تعرف عنهم روح التعاطف مع اليسار.

طرت من أربيل إلى اسطنبول ثم إلى القاهرة، واستقبلتني في المطار لبنى، واخذتني إلى فندق حجزت لي فيه غرفة، كان الفندق في وسط البلد، لكنه سيء في كل شيء، فطلبت منها إلغاء الحجز، لكي أقوم بنفسي بالحجز في فندق انتركونتيننتال القاهرة. وهذا ما جرى وأصرت لبنى ان ترافقتي لتطمئن على راحتي معتذرة عن سوء الفندق الأول، لكنني طمأنتها إلى أنني سأتولى الانفاق في مثل هذه الأوضاع، فالمهم بالنسبة لي هو الوصول إلى الناس الذين لديهم ما يقولونه، ثم حجزت لنفسني جناحاً مطلاً على النيل في الطابق السادس من الفندق، ضامناً أنني أصبحت قريباً من مكانات لقاء الناشطين ومؤتمراتهم.

مساء ذلك اليوم رافقتني لبنى للقاء زعيمين من الحراك رشحتهما هي لمحاورتي، والتقيت بهما في غرفة متصلة بصالة نادي المثقفين القديم في وسط البلد والمعروف باسم "أتيليه القاهرة" في حارة كريم الدولة المتفرعة عن ميدان طلعت حرب. جدران الغرفة تغطيها لوحات رسمها أو صورها فنانون بأساليب تجريبية توحى للمرء أن الثقافة في هذا البلد ما زالت تتنفس.

في جو يسوده التكتم، التقيت شابين في عشرينياتهما، وتبدو عليهما ملامح الشباب الناشطين في عالم الرقميات وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، وما إن جلسنا في الغرفة الهادئة، حتى أخرجت هاتفني واستأذنتهما أن أسجل الحوار، فأجازا ذلك على أن لا ينتشر التسجيل، وأكدت لهما أنني لست صحفياً، ولن أنشر قطعاً ما يقولان، وطلبت من أحدهما أن يروي لي كيف بدأ هذا الحراك أولاً فأجاب:

في عام 2011، كان السودان غارقاً في عملية انفصال الجنوب التي جرت تحت أنظار البشير وبرضاه ثمناً لبقائه على رأس الهرم، ويتردد في الخفاء، أن طرفاً ثالثاً بالتنسيق مع سلطات جنوب السودان قد دفع للبشير 3 مليار دولار نقداً ليسمح بانفكاك الجنوب دون ضجيج. وكما تعلم فإن للسودان تاريخاً من الحروب الأهلية، لذا ترى أنه لم ينتفض، مع موجة الربيع العربي وثمة أسباب عدة لذلك لا مجال لطرحها في هذا اللقاء. لكن يمكن أن نضع سياق ما جرى بهذا الوصف:

اتبّع البشير نهجاً سلطوياً شمولياً، كما في سوريا، لكنه طُبِّقَ على نحو مختلف في السودان، حيث أن الانهيار الاقتصادي فيه كان قد دبّ على مدى سنوات ليصل إلى أطراف البلد الشاسع، ونجح البشير مثل كل مرة ومثل كل حاكم عربي في القضاء على التملل والرفض الشعبي بتطبيق تقنيات مكافحة العصيان وبمغازلة المجموعات الإسلامية، وألفت نظرك هنا إلى أن السودان تتحرك فيه قوى إسلامية إخوانية، وشيعية موالية لإيران، وسلفية وهابية، وقد نجح البشير في تحييد هذه القوى، وعزلها عن الحراك من خلال السماح لها بمشاركة رمزية في الحكم، على صعيد آخر، فإن العديد من الحكومات العربية شرعت الحركات الإسلامية بكونها معارضة غير رسمية لأنظمة السوق السلطوية. هذه الحركات، غالباً ما تحالفت مع رأس المال، روّجت لقيم مفيدة سياسياً للأنظمة تركّز على الصبر والطاعة وتفقد القدرة على انتقاد سلطوية السوق. في المقابل، استندت الطبعة السودانية من نظام السوق السلطوي إلى التحالف مع الإسلاميين



والرساميل المالية والتجارية، وقوات الأمن، وكل هؤلاء تمكّنوا من دمج أنفسهم في ما بدا أنه طبقة حاكمة، نجحت في مراكمة ثروات من الانتاج النفطى. ولذا، كان المتظاهرون يهتفون ضد الإسلاميين الذين كان يُطلق عليهم بالعامية السودانية نعت "الكيزان" و"الكوز"، أي المجارف، كإشارة إلى شهية لا تشبع.

طلبت منه التريث، ووضعت تطبيق التسجل على وضع انتظار لأطلب لنا مشاريب وأوصي على عشاء متأخر، حيث أن الأماكن من نوع هذا النادي تعرض كميات محدودة من العشاء، وجاء جواب النادل مؤكداً لظنوني، فقد اخبرني ان لديهم مقبلات باردة ولا عشاء للضيوف (وكأنه يقول لنا لا عزاء لكم)، لذا اقترحت على المجموعة ان ننجز حوارنا هنا، ثم نذهب للعشاء في مكان آخر.

وعدت أوكد لمحاورى أنى قد استقرأت مقاله فى شعارات الحراك، وفى اتصالات لى مع ناشطين على مواقع التواصل الاجتماعى، وطلبت منه أن يمضى قدماً فى قراءة المشهد فقال:

النقطة الملفتة للنظر والتي تدعو للتأمل هي أن الاحتجاجات لم تحظ بأي تغطية دولية تقريباً، وأيضاً بقليل من الدعم الدولي... يكاد لا يبين. فحركة حقوق الإنسان العالمية، التي تمكّنت من توجيه تهمة حرب الإبادة إلى البشير في المحكمة الجنائية الدولية، لم يكن في وسعها هذه المرة تعبئة مثل هذا الدعم.

أما الدول الأوروبية التي قادت حملة إدانة البشير، وجعلت منه مطارداً متهما بجرائم جينوسايد فى مناطق السودان، فلم تعد مهتمة كثيراً بحقوق الإنسان فى السودان، لأن قوات الأمن التابعة للبشير قطعت دابر الهجرة من السودان والدول المجاورة له إلى بلدان أوروبا الغربية، وهذا ما يهيم الاتحاد الأوروبي الذي تورط فى دعم الربيع العربى فتدفق عليه ملايين اللاجئين من سوريا والعراق ومصر وإيران وافغانستان وليبيا وتونس.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، التي طالما استفادت من قوات الأمن التي يملكها البشير لتنفيذ حربها ضد الإرهاب، فلم تجد حافزاً يدفعها لمساعدة المحتجين، فالبشير ومنظومته الأمنية ينفذون رغبات الحليف الأمريكى، وفيما يعلن البشير أن السودان جمهورية اسلامية، تسرب أجهزة أمن النظام معلومات حول

التنظيمات الإسلامية والناشطون والدعاة للجانب الأمريكي، بل تسهم مع الجانب الأمريكي في القضاء عليهم في أحيان كثيرة.

في الجانب الآخر، فإنّ مطالبة صندوق النقد الدولي للبشير برفع الدعم عن المواد الغذائية الأساسية قد ساعد، بطريقة ما وبشكل غير مباشر، المحتجين، وهذا لأنّ خفض الدعم كان يشعل دوماً احتجاجات وتظاهرات دامية في السودان. ونحن سمعنا أنه في عام 1985 كان تقليص الدعم للمواد الأساسية أحد أسباب انقلاب المشير عبد الرحمن سوار الذهب على حكومة جعفر نميري الفاسدة ما أدى إلى إسقاطها.

وعلينا أن لا ننسى أن ما جرى آنذاك كان انعطافاً من جعفر نميري نحو الإسلاميين، فقد أعلن نميري السودان دولة إسلامية تحكمها الشريعة الإسلامية، وشمل ذلك الجزء الجنوبي الذي تسكنه غالبية غير مسلمة، فألغيت فدرالية جنوب السودان المعتمدة على الحكم الذاتي في يونيو 1983.

سكت الشاب وليد عثمان عن الكلام، ورفع عن عينيه نظارته الطبية الغليظة، ماسحاً بيده برفق على جفونه المتعبّة، فيما اتجهت بهاتفني إلى الشاب الآخر، لأسأله عن مخاطر قيام حرب أهلية متعددة الأطراف في البلد في ظل الأوضاع المتفجرة الحالية فقال الشاب مأخوذاً قليلاً بالمفاجأة:

آى نعم فعلاً آآآ... الحروب الأهلية جزء متصل من تاريخ السودان منذ ثلاثة عقود، وانتشرت في الأطراف الواسعة والمتنوّعة والغنية بالموارد كجنوب السودان بحدوده الحالية ودارفور وجنوب كردفان والنيل الأزرق وشرق السودان، وهذه الحروب لم تنته بعد. لكن قادة الجماعات المسلحة في دارفور وأماكن أخرى أعلنوا دعمهم للمتظاهرين في الخرطوم، واعتقد أن الحكومة ستعلن قريباً وقف إطلاق النار من جانب واحد.

ومضى يقول وهو ينفث دخان سيجارته: عمر حسن البشير كان القائد الوحيد الباقي في منصبه بلا انتخابات منذ توليه الحكم عقب انقلاب عام 1989. وقد بدا أنه عثر على حجة ثابتة للقمع في السودان تتمثل في: زج البلد والشعب في ما اسماء "مكافحة التمرد في أطراف السودان"؛ ونشر قوات أمن واسعة الصلاحيات وقاسية في المدن؛ إضافةً إلى إلغاء كامل للحقوق والأنشطة والحركات المدنية،

والنقابات، ووسائل الإعلام، والأكاديميات. الكل يعلم أنّ هذه الأنشطة والتنظيمات كانت مرتبطة بشكل أو بآخر بالحزب الشيوعي القوي في السودان.

وفي المدن، اقنع البشير السكان الحضريين بأنه سيقتلهم إذا ما عارضوه، وأثبت مراراً أنه جاد في كلامه من خلال عمليات القتل الجماعي والاحتجاز التي نفذها.

قلت مقاطعاً كي لا نذهب بعيداً في الاستذكار: من الصعب أن أنفق معك بأن البشير كان الديكتاتور الوحيد الباقي في السلطة، فالقادة العرب كلهم تقريباً ينطبق عليهم هذا الوصف، وإذا كان البشير قد نجح سابقاً في تحييد كل الشعب بطرقه التي ذكرتها، فلماذا لم ينجح هذه المرة في تحييد الناس؟

قال وهو ينظر إلى ابني وكأنه يعاتبها: الحقيقة أن البشير نجح إلى حد كبير في تحييد ملايين السودانيين، وهذا ما يفسر مرور نحو عام على الحراك دون أن يسفر عن شيء. من يشعل الحراك اليوم هم أولئك الذين لم يتمكنوا من شراء خبزهم اليومي فهم من أطلقوا شرارة الاحتجاجات الأولى، وعندما اتسعت رقعتها ووصلت إلى العاصمة، استقطبت دعم منظمات المجتمع المدني والنقابات والجمعيات المهنية، التي لعبت دوراً بارزاً في انتفاستي عامي 1964 و1985، حين أُطيح بالديكتاتوريين الأخيرين في السودان. والآن، حين تصدّت قوات الأمن بوحشية للمتظاهرين، وهاجمت المستشفيات والأطباء الذين كانوا يعالجون المحتجين الجرحى، أسفر ذلك عن ازدياد المعارضة تلاحماً وعزيمة، ما ساعد على استحضر ذكريات المقاومة السلمية السابقة. اعتقد أنّها صولات، وستنتهي غالباً لصالحنا نحن الرافضين لألا يعيب عمر البشير وتقلباته التهريجية الراقصة بالعصا.

قلت مبدياً رغبتني في إنهاء اللقاء: كيف تقرأ مسيرة الحراك في الأيام المقبلة، ما هو المشهد في اليوم التالي لسقوط البشير، لو افترضنا أنه سوف يسقط؟

لو تمكّن المتظاهرون من إدامة زخمهم وحالفهم الحظ في إحباط انقلاب القصر المحتمل في كل لحظة، فسوف يبقون بحاجة إلى دعم أجنبي عسكري ومالي لتمويل واردات السودان الغذائية وإعانات الوقود والقمح.

إنهم بحاجة إلى إيجاد طريقة تتجاوز هذا النظام المنتج للأزمات، كما أن عليهم التخلص من الغول الذي يمتص أهم أموال السودان، وأعني بذلك رواتب قوات

الأمن والشرطة والأجهزة القمعية والذيل الاعلامي، وكلها تمتص نحو نصف ميزانية الدولة، هذا طبعاً في تقديري الشخصي، لأنه لا توجد ميزانيات معلنة حقيقية قط.

أعلنت للشابين ولمضيفتي الجميلة لبنى أن لقاءنا وصل نهايته، وشكرتهم، وطلبت من الجميع أن نذهب لنتعشى في مكان آخر، فأعلن الشبان أن لديهما التزاماً يوجب حضورهما، وغادرا المكان سراعاً، فبقيت مع لبنى لنقرر كيف نقضي الليلة.

غادرنا المكان بحثاً عن مكان أجمل نقضي فيه الليل، فاقترحتُ أن نذهب إلى نادي ريجينا في شارع شارل ديغول، وقد قيل لي أن فيه حفلاً في مكانٍ راق وأنا بسرورال الجينز وقميص المربعات والسترة الجلدية؟ لا يمكن، لن أذهب!

وهل أذهب وحدي إذا؟ أنا أريد الذهاب لأنك معي، إثنان يمكن أن يقضيا سهرة جميلة في مدينة غريبة، أما الشخص الواحد الوحيد فستكون سهرته مملّة.

اجابنتي ضاحكة: يا عزيزي أنا مقرّبة من الحراك الشعبي في السودان، ووجودي هنا بفضل تبرعات قليلة محدودة من بعض داعمي الحراك، وليس عندي بصراحة ما أرتيه لمناسبة من هذا النوع.

سارعت اقترح عليها الذهاب إلى مكان قريب تشتري منه فستان سهرة وسوف اتكفل بقيمته!

بعد رفض وتردد، وافقت على اقتراحي، وخرجنا من المكان نبحت عن بوتيكات ملابس مفتوحة، ولحسن الحظ وجدنا بعض محلات شارع الشواربي القريبة من ميدان طلعت حرب مازالت مفتوحة. واستغرقتنا رحلة البحث عن فستان مناسب نحو ساعة، انتهت بشراء الفستان وخرجنا من المحل.

مشكلة لبنى الثانية كانت: أين أستحم وأصفف شعري وأرتدي الفستان؟

حسمتها بلا تردد بأخذها إلى جناحي بفندق انتركونتننتال، وهناك استحمت بهدوء ووصفت شعرها وخرجت لي وهي ترتدي ثوب السهرة، فكانت قطعة حلوى سمراء ساحرة الجمال ترافقتي لسهرة ناعمة في ليلة شتاء قاهرة.

مضى الليل ونحن نرقص ونقرع الانخاب، وانتهت الليلة بأجمل نهاية.

في الأيام التالية نظمت لبنى لنا لقاءات مفيدة مع ناشطين آخرين، فاجتمعت في رحلة واحدة ساعات العمل وساعات الفرح.

\*بعد نحو 4 أشهر من لقاءاتي بالناشطين السودانيين في القاهرة، تطور المشهد في السودان بالشكل التالي:

في 6 نيسان/ أبريل، احتشدت مظاهرة كبرى خارج المقر العام للقوات المسلحة السودانية وقد هاجمت المتظاهرين عناصر من جهاز الأمن والمخابرات والأمن الوطني، ومعها ميليشيات غامضة مرتبطة بحزب المؤتمر الوطني الحاكم، لكن عناصر من الجيش- من ذوي الرتب الصغيرة حمت المحتجين.

و في 9 نيسان/ أبريل، أبلغ قائد قوات الدعم السريع، (وهي ميليشيا يحميها القانون وتعود بجذورها إلى الوحدات غير النظامية التي شكّلتها الحكومة خلال حرب دارفور)، قواته في الخرطوم أنه يتعيّن عليهم عدم التدخّل ضد التظاهرات السلمية، كما أشيع أن الشرطة أصدرت أوامر مماثلة في اليوم التالي. وبات معروفاً لدى الناس أن عناصر قوات الأمن لم تعد تحت سيطرة قيادته العليا.

في 11 نيسان/ أبريل، اعتُقل الرئيس عمر البشير وحل مكانه في السلطة مجلس عسكري انتقالي بقيادة وزير دفاعه عوض بن عوف.

وسرعان ما أعلنت القوات المسلحة السودانية أنها ستُصدر بياناً حول الأوضاع. كما أعلن جهاز الأمن والمخابرات الوطني إنه سيطلق سراح معتقلين سياسيين. وهذا أوحى بأن ثمة وفاقاً في صفوف قوات الأمن سمح بوقوع انقلاب عسكري، وبات يتعيّن على قادة هذا الانقلاب أن يبلوروا رداً على مطلب المتظاهرين الخاص بإنشاء حكومة مدنية انتقالية.

كان تحت تصرف قادة انقلاب القصر هؤلاء كل الموارد الهائلة للدولة، لكن المحتجين في المقابل حازوا على قوة الزخم.

في 12 نيسان/ أبريل استقال عوض بن عوف من منصبه كرئيس للحكومة الانتقالية وحلّ مكانه الفريق أول ركن عبد الفتاح البرهان

على المستوى الدولي، كانت جمهورية ألمانيا الاتحادية أول دولة أعلنت دعمها العملي للسودان الجديد، حيث تعهد الرئيس الألماني فرانك- فالتر شتاينماير بدعم بلاده لعملية الانتقال الديمقراطي في السودان. وقال شتاينماير بعد مباحثات مع الفريق عبد الفتاح عبد الرحمن برهان رئيس مجلس السيادة في العاصمة السودانية الخرطوم في شباط/فبراير 2020: "إننا ندعم عملية التغييرات السياسية، إننا على وعي بصعوباتها، وإننا نأمل في نجاح كبير لهذه التغييرات ."

وفي الوقت ذاته، ناشد الرئيس الألماني المجتمع الدولي مساعدة السودان، وقال: "يجب أن يعترف العالم بأنه يتعين عليه الوقوف إلى جانب السودان". ووصف برهان زيارة شتاينماير بأنها "إشارة قوية" وأكد قائلاً: "إننا نسعى أن نكون شركاء مع ألمانيا ومع الاتحاد الأوروبي"، وطلب الدعم كي يتم حذف بلاده من قائمة الولايات المتحدة للدول التي تدعم الإرهاب.

\*\*\*

كل ما في هيئة الجنرال يدلّ على أنه كان عسكرياً مترفاً، لم تتلف بشرة كفيه زيوت الأسلحة، ولم تخطُ ألام الحروب والجبهات خنادق في وجهه، ولم يحمل جسده أوسمة الحروب المشوهة البشعة، كان ببساطة جنراً أَمْضَى عمره في المكاتب المكيفة الأنيقة وفي سفارات دول بعيدة عن بلده الذي أكلت الحروب 4 عقود من تاريخه الحديث. ولم يخنني هذا الحدس، فسرعان ما أخرج من جيب سترة الغولف الزرقاء الأنيقة التي يرتديها سيجاراً كوبيباً فأخراً قدمه لي، فاعتذرت عن قبوله لأنني قد فارقت الدخان منذ 10 أعوام. يتنشق عطر السيكار بشوق ثم يقضم حافظه الغليظة ويوقده ليبدأ بالتدخين ونفث الدخان المعطر في هواء صالة استراحة كبار الضيوف في مطار دولة مجاورة لبلده، ويبدأ حديثه:

لم أكن قط جندياً في الميدان، شكراً لله ولمعارف أسرتي ولجهودي وكفاءتي الشخصية التي جنبتني خبرات الميدان الصعبة، تصوّر أنّ خدمتي الطويلة تزامنت مع أربعة حروب، ومع ذلك، لم أزر جبهات الحرب إلا سويغات لو جمعتها لما زادت عن بضعة أيام. سبب هذا بالطبع حاجة القيادة السياسية إلى خبرتي في مجالات الإدارة والاسناد وعقد صفقات شراء الأسلحة.

- سيادة الجنرال، هل لي أن أقاطعك لحظة، أذكر أن القائد الأعلى السياسي والعسكري في بلدك كان قد أصدر أمراً ينص على أن يتعايش كبار الضباط وصغارهم في مواقع القيادة مع أقرانهم في ميادين القتال، هل شملك هذا الأمر أم لا؟

شملني بالطبع، وزرت موقعين من جبهة الحرب، بقيت في كل منهما نحو أسبوعين، لكنّ رتبتي المتقدمة كانت لا تسمح بأرسالي إلى خطوط القتال المتقدمة، وهكذا كنت أبقى في قيادات الفيالق التي يمكن اعتبارها فنادق سياحية يقوم الجنرالات بوظائفهم فيها. فوق ذلك، ومن حسن المصادفة، أن قائدي الفيالق اللذين زرتهم كانا من أقارب أبي. على كل حال، كبار الجنرالات يحتاجون إلى بعضهم البعض، الجنرال الموجود في جبهة القتال لا يعرف شيئاً عما يجري في مقرات القيادة العليا وهو يحتاج إلى الكثير في هذه المقرات، ومن جانبي، كنت أساعد كبار الضباط في الميدان في أمور كثيرة جداً.

لا أريد أن أخوض في تفاصيل خدمتي الطويلة، بل أريد أن أحكي لك قصة ظريفة غريبة لا يعرفها كثير ممن لمسوا وعاشوا نتائجها التي يعيش حتى اليوم بعضها بيننا.

في مرحلة حاسمة من المعارك وفي بداية ثمانينات القرن الماضي، احتاجت القوات المسلحة إلى صفقة مدرعات وناقلات أشخاص مدرعة فورية كبيرة لتحويل ألوية المشاة الراجل إلى ألوية آلية، تسليحنا كان شرقياً، ولكن الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية أمتنعت عن تجهيزنا بما نطلب بسبب موقف حكومة بلادي من الحزب الشيوعي ومن أحزاب اليسار المحلية. طلبنا أسلحة من الغرب فعرضوا تزويدنا بخمسين مدرعة بمبلغ يكفي لشراء 100 طائرة مقاتلة شرقية متطورة، وبالتالي كان علينا أن نبحت عن مصدر جديد للأسلحة. أرسل القائد العام في طلبي، وطلب مني شخصياً أن أجد مصدراً يؤمن لنا 150 ناقلة أشخاص مدرعة خلال مدة لا تتجاوز 6 أشهر.

بعد يومين سافرت إلى لبنان لأتصل بأحد الوسطاء المعروفين بقدرتهم على تلبية طلبات تجهيز السلاح السريعة، وكما تعرف، تخضع صفقات السلاح دائماً إلى شروط سياسية، لكن الوسطاء في بعض الأحيان يجتنبون الطرف المعني هذه الشروط. الوسيط قادني إلى وسيط، ثم إلى وسيط آخر، وبعد شهر من دوامة الوساطات أدركت أنّ عليّ البحث عن سبيل آخر.

جاءني الجواب بالصدفة، فقد جمعتني حفل في سفارتنا في بيروت بسفيرنا في البرازيل، وحين لمّحت له عن حاجتنا إلى مصدر يجهزنا بـ "الحديد" وهي الكلمة السرية التي كنا نستخدمها لنرمز إلى المدرعات والدبابات، أبتسم وقال لي، في البرازيل هناك أمور غير القهوة، تعال لزيارتنا ويمكن أن نصل لشيء يرضيك.

بعد أسبوع كنت في برازيليا العاصمة. نزلت في فندق متجنباً بيت السفير والسفارة. اتصلت بالسفير والتقينا في صالة الفندق الذي أسكنه. حدثني عما فعله خلال هذا الأسبوع، وطلب مني التريث ريثما يجمعني بالطرف الذي يبيع السلاح.

بعد أيام اتفقنا على اللقاء في مقر وزارة الصناعات الثقيلة البرازيلية. في صباح خريفي غائم التقيت بالمسؤول عن المبيعات الخارجية في الوزارة المذكورة، وعرضت له رغبة حكومة بلادي في الحصول على 150 ناقلة أشخاص مدرعة



وبمدة لا تتجاوز 6 أشهر، هاله حجم الطلب، وأخبرني أنّ مثل هذه الصفقة لا تتم إلا بموافقة أعلى مستويات القرار السياسي، والطلب عليها يجب أن يأتي ضمن بروتوكول رئاسي يوقع بين رئيسي البلدين.

قلت له إن رئيس بلادي لا يمكن أن يغادر البلد بسبب الحرب، كما أن زيارته لبلدكم ونحن في حالة حرب ستسلط الأنظار على وجود صفقة سلاح بين بلدينا، وهذا ما لا يريده أي منا.

طلب مني التريث، لعرض الموضوع على الوزير.

بعد يومين عاود الاتصال بي، وطلب مني أن يقوم وزير الصناعة في بلدي بزيارتهم لعقد هذه الصفقة بين وزيرين. اتصلت برئيس بلادي بصعوبة، ونقلت له ما جرى. بعد أسبوعين وصل الوزير المختص والتقى بنظيره البرازيلي بحضوري. جرى الاتفاق على تجهيزنا بمدركات من هذا النوع في وجبات تستمر على مدى ستة أشهر، لكنها ستكون مدوّلة (بعجلات وإطارات) وليس مسرّفة (بسلاسل تشبه سلاسل الدبابات)، كما أنها ستكون مجهزة بمدفع من عيار 100 ملم، ويمكن لكل واحدة منها نقل ثمانية أشخاص مع أسلحتهم وعفشهم.

لكن البرازيل، اشترطت أن تبيعنا مع هذه الصفقة وعلى مدى 5 أعوام 100 ألف سيارة من انتاجها مع ضمان إقامة فريق الصيانة المعني بها وعمله لمدة عشرة أعوام. لم يستطع الوزير أن يحسم هذا الشرط، فطلب مهلة للتشاور، ثم اتصل بالرئيس وأخبره، فطلب الرئيس عرض مواصفات وأسعار السيارات على المختصين.

بعد أكثر من أسبوع وقّع وزيرنا اتفاقية التجهيز وعاد إلى الوطن، فيما بقيت في برازيليا أتابع الصفقة.

- سيادة الجنرال، لم أسمع قط أن بلدكم اشترى أسلحة برازيلية؟

ضحك وهو يكشف عن طقم أسنان لامع جميل وقال: القصة لم تنته بعد، إذ بعد أن وصلت المدرعات وجرى ترجمة الكراريس الخاصة باستخدامها وإدامتها، وبعد أن دخلت إلى الخدمة في بعض الوحدات وجرى تجربتها في ميادين الرماية والتدريب، تبين أنّ مدفعها يعاني من مشكلة فريدة من نوعها، فبعد أن يُطلق المدفع 20 قذيفة يصاب بما يعرف بالترشح الزيتي، وهذا يعني أنّ المدفع لا يعود صالحاً

للاستعمال القتالي. وتصبح المدرعة مجرد عربة لنقل الأشخاص، وهي بالطبع غير صالحة للاستعمال في الخطوط الأمامية في المعارك لأنها مدوّلة (تسير على عجلات وليس على سرفة مثل الدبابة) وستنفجر إطاراتها البلاستيكية عند تعرضها لأية شظايا أو إطلاقات.

- هل تقول إن البرازيل قد خدعتكم بهذه الصفقة؟

لا الأمر ليس كذلك، فنحن لم نمتحن المدرعات قبل شرائها، وهذا من شروط صفقات الأسلحة، لم يكن عندنا الوقت الكافي لذلك، علاوة على ذلك فقد اضطررنا لقبول عرضهم لحاجتنا للحصول على سيارات رخيصة الثمن وبأعداد كبيرة لتلبية طلب سوقنا المحلية آنذاك.

الرئيس اعتبرني مقصراً - وفي كل مشكلة لا بد من وجود كبش فداء يدفع الثمن - وهكذا طلبني للتحقيق، لكنني لم أشأ أن أواجه الإذلال والتعذيب خلال التحقيق فهربت من البرازيل إلى الأرجنتين وبقيت أعيش متخفياً لسنوات طويلة هناك. لكن المدرعات المائة والخمسين صارت سلاحاً ضارباً لفصائل المعارضة في البلد الذي كان يحارب بلدي هذه المعارضة المسلحة كانت تقيم في بلدنا، وقرب نهاية الحرب زُجت المعارضة مع هذه المدرعات في معركة مع العدو المنحدر آنذاك، لكن الفشل كان حليفها، واحترقت أغلب المدرعات ولم تستطع تنفيذ الهجوم حتى على القطعات المنسحبة للعدو. لا أحد يعرف أن سبب هزيمتها الحقيقي يعود بالدرجة الأولى إلى ضعف سلاحها الأساسي. كما لا يعرف أحد حتى اليوم أن السيارات البرازيلية التي تملأ الشوارع كانت شرط البرازيل لبيعنا المدرعات الفاسدة قبل 30 عاماً.

- خطر لي سؤال سيادة الجنرال، منذ نحو 30 عاماً أنت تعيش هارباً متخفياً، كيف تهيئاً لكم أن تحافظوا على مستوى معيشة راقٍ كل هذه المدة وأنتم دون مصدر للدخل؟ يمكنك أن ترفض الإجابة طبعاً.

من يأكل مع الذئب عليه أن يتقن فن الهروب بالفريسة، وهذا ما حصل لي فقد كنت أدرك أن العمل بطريقة بلدي لم يكن قط مضموناً، وهكذا صنعت لي شبكة معارف وأموال استفدت منها لتأسيس تجارة أغلبها من الممنوعات. ضمنت لي هذه التجارة أن أعيش هانئاً آمناً مع ابنائي وأسرتي حتى نهاية عمري، ومن

عجائب الزمان، أني لا أملك في بلدي حتى اللحظة راتباً تقاعدياً ولا بيتاً، لكني والله الحمد لا أحتاج لذلك.

نظر إليّ باسماء وقال وهو يعيد إيقاد سيكاره: أظن أنني قد قلت لك أكثر مما يجب، ولكني كنت أشعر دائماً بحاجتي لشخص من بلدي أقصُّ عليه جزءاً من أسرار هذا البلد التي كبرت أجيال وهي تجهل عنها كل شيء.

هذا الذي قلته لن يضر أحداً بعد أن سقط نظام الحكم وسيطر أعداؤه على دفة الأمور في بلدي، كما أنّ الشخص المسؤول عن كل هذه الأخطاء يرقد دون رقبة تحت التراب الآن، وليس بوسع أحد أن يعيد محاكمته وسؤاله. وأنت يا عزيزي جليس يحفظ كل الأسرار في صدره، أنت خزانة أسرار فريدة من نوعها، ولن يتسرب من هذه الخزانة شيء كما أوقن.

\*

كم كنت أحب سوريا والسوريين، ولكن هذا الحب تحول إلى شفقة على السوريين حين التقيت في مناسبة إعلامية عقدت بمدينة بون الألمانية عام 2006 ببثينة شعبان الشخصية الثقافية المقرّبة من الرئيس السوري بشار الأسد.

على هامش اللقاء العامر بالمآكل اللذيذة والمشروبات، تحلّق المدعوون حول طاولات عالية، وهم يتعرفون على بعضهم أو يحاورون معارفهم في كل شأن، وحتى الشؤون السياسية للعالم، ما دام الحديث يدور بعيداً عن المشهد السوري. سوريا وسياساتها خط أحمر يفرض الصمت على هذا التجمع.

في هذا اللقاء تعرفت على متخصص في الشؤون الثقافية السورية، يعيش منذ سنوات في باريس، وكنا قد سمعت عنه في مناسبات عديدة، وانفردت معه لنتجاذب الأحاديث عن كل شيء باستثناء الشأن السوري، ما يعني بالنسبة لي أنه لا يؤيد بشار الأسد ولا يدعمه، لكنه يخشى أن ينتقده، وخاصة في هذا المكان. وفي لحظة تجلّ جريئة، همس الرجل في أذني أنه يريد ان يلتقي بي خارج هذا المكان ليحكي لي همومه عن سوريا. فاتفقنا على لقاء مساء غد في كافيتيريا فندق ماريتم الذي أقيم فيه.

حين دخلت الكافيتيريا شاهدته جالساً في إحدى زواياها، فحييته وأخذته إلى مقهى "كافيه براسري" الأنيق الجميل الصغير في زاوية تطل على جنائن ومساح الفندق. جلسنا في المقاعد الجلدية البنية الغاطسة المريحة، وطلبت كأس مارتيني، فيما طلب محاورى كأس نبيذ بوردو فرنسي.

قال دون مقدمة: أريد أن أتحدث لأنني اشعر بوصولي إلى حافة الانهيار إن لم اتكلم.

قلت له باسمًا: لعلك لا تعرف أن الإنصات إلى الناس هو وظيفتي!

نظر إلي بحذر ودهشة وهو يسألني، ماذا يعني هذا؟

أوضحت له طبيعة عملي بعبارة تخفف من مخاوفه، كل السوريين مسكونين بهاجس الخوف حتى وهم بعيدون عن سلطة الأسد بآلاف الكيلومترات، وهكذا كان حال العراقيين حتى سقوط نظام صدام في ربيع عام 2003.

بدا متردداً، وندمت لأنني كشفت له عن وظيفتي، فقد كان الأجدر بي أن أقدر مخاوف السوريين بسبب قسوة نظام الأسد البعثي.

ثم انقلب الرجل يتحدث في شؤون عامة، وأعلن لي بوضوح تراجعته عن الهدف من هذا اللقاء، ورغبته في الانصراف. أدركت مستوى رعبه، وعذرتة، وأنهيت اللقاء بسرعة.

بعد سنوات من هذا اللقاء وفي عام 2015 وبعد أن انقسمت سوريا إلى أوكار معارضة متنوعة تهتف كلها بإسقاط نظام بشار الأسد، جمعني منبر الاعلام الدولي الذي تعقده مؤسسة DW الإعلامية الألمانية مرة بنفس المثقف السوري، هذه المرة بدا أقل حذراً، وأعلن بوجه باسم متفائل رغبته في الحوار. ذكرته بخوفه القديم وحاولت أن أستفزه بالقول إن كل السوريين يخافون بشار الأسد، مع أنهم يتمنون معجزة دولية من وزن "عمليات تحرير العراق" تقضي عليه وتريحهم، لكنهم ما برحوا يعلنون خلاف رغباتهم.

بدت المرارة والحزن على وجهه، فأعلن أنه لم يعد يخاف النظام وبطشه، فقد أخرج كل أهله وأحبته من البلد، لذا فإن بطش النظام لن ينال منه. فأعدت عليه حكاية طبيعة عملي، وقلت له أنني اتقاضى أجراً مقابل الانصات للناس، ولكي نكون في الجانب الأمين، كشفت له أن رجال سياسة واقتصاد وإعلاميين وصحفيين وبسطاء الناس يتحدثون لي من كل أنحاء العالم، فأنا الجليس الذي يسمع ولا يرشح شيء عنه.

تكلل كل ذلك بلقاء ليلي في مطعم ألماني صغير بطرف المدينة الشرقي حيث جلسنا إلى طاولة واطئة خشبية كلاسيكية، وبدأنا نتحاور ونحن نرشف الشاي بهدوء كصديقين لدودين.

شغلت تطبيق التسجيل على هاتفي المحمول وأبلغته أنني سوف أسجل الحوار بعد أذنه، فأنطلق يروي ما يشغله.

قال متدفقاً في الحوار: طالما كنت أدم المعارضة السورية، طبعاً هو دعم صامت سلبي، فأنا لست رجل سياسة ولا صلة لي بحزب البعث، ولا بأحزاب المعارضة المسلحة بكل ألوانها.

كما تعلم، فإن انهيار المعبر السوري الحدودي الهام إلى تركيا في تموز/ يوليو 2012 صار طريق تسلل المقاتلين لدعم القاعدة والتنظيمات الإسلامية مفتوحاً، وهكذا تدفق ألوف التونسيين والليبيين والسعوديين والشيشان وعشرات من الأوروبيين المتحولين إلى الإسلام على المنطقة ليؤسسوا قاعدة لنحو 15 ألف مقاتل يستقرون في المنطقة الشمالية الشرقية من سوريا والتي أضحت خارجة عن كل سلطة سوى سلطة الشريعة التي يتبناها مقاتلون يجهلون في الغالب ما ينصّ عليه القرآن، لكنهم يهتدون بفتاوى شيوخ محليين نجحوا في تعبئتهم "جهادياً" لإقامة خلافة إسلامية جديدة في منطقة لا تصلها وسائل الإعلام إلا من خلال كاميرات الهواة وتقاريرهم التي تفتقر في الغالب إلى الحياد والموضوعية.

سكت هنيهة، ونظر إلي وقد ارتسمت على وجهه ملامح الخيبة وتساءل: ألهذا صبرنا عقود طويلة على حكم البعث؟ هل يفطر السوريون بعد كل صيامهم المر على طبخات الجهاديين المشبوهة الرجعية؟ هل نبدل منظومة البعث بشرريعة القاعدة وداعش؟

أجبتته لأحثة على الحديث: هناك فصائل معارضة أخرى غير جهادية، وعلى حد علمي أنّ عديد الجيش السوري الحر المعارض يتجاوز اليوم حاجز 100 ألف مقاتل.

قال موضعاً: هذا صحيح نظرياً إلا أنّ الجماعات الإسلامية التي تتلقى دعماً مالياً ولوجستياً غير محدود من أوساط خليجية فاحشة الثراء، ورغم قلة عديدها، تسجل حضوراً ميدانياً أشد فاعلية من عشرات الآلاف من مقاتلي الجيش الحر الذين نفتقر بنذقياتهم الكلاشينكوف الوسخة إلى زيت الإدامة وإلى إطلاقات عيار 7.62 ملم الأكثر مبيعاً عبر العالم والمتوفرة في كل أسواق السلاح الرسمية والسوداء.

اقتربت نادلة رشيقة من طاولتنا، وسألت إن كنا نرغب في طلب طعام العشاء، فانشغلنا بانتخاب ما نريد من المنيو، وطلبت منها كأس مارتيني، فيما طلب الرجل كأس نبيذ أبيض، وأوصيتها أن تؤخر تقديم العشاء حتى نأذن لها.

عاد الرجل يوضح تفاصيله المريرة: اليوم تشمل المنطقة التي يسيطر عليها مقاتلو جبهة النصرة والتنظيمات المتشددة على محافظات الرقة، حلب، إدلب وهي قبضتهم القوية، حماة، الثورة، فيما يتنازع السيطرة على منطقة الحسكة

المتاخمة للحدود العراقية قوات حماية الشعب الكردي ومقاتلو داعش والتنظيمات الإسلامية القادمة من غرب العراق.

ولا يبدو الإعلام الغربي قلقاً لبروز "وزيرستان" أخرى على سواحل المتوسط الجنوبية، بل أنّ أدبياته تقلل الى حد كبير من أثر جبهة النصرة ناسبة الدور الأكبر الى فصائل أخرى بينها "الدولة الإسلامية في العراق والشام" والجيش السوري الحر. وهم يتحدثون بشكل غامض عن فصائل صغيرة من هؤلاء الجهاديين (النصرة) تشارك في القتال الفعلي، وهي فصائل تتمركز في الوقت الحاضر في مناطق حلب وحماة، (أما الجهد الأكبر فإنه) يسعى إلى بناء قواعد في المنطقتين اللتين خرجتا منذ زمن طويل عن سلطة الاسد."

ويبدو أنّ القاعدة قد غيرت اتجاه بوصلتها إلى الشرق الأوسط وهي قد بدأت تعيد رسم خارطتها في سوريا والمنطقة عموماً، وتمثل منطقة شمال شرق سوريا هدفاً هاماً للتنظيمات الجهادية لأنها غنية بالنفط، وتمثل إمتداداً جغرافياً لمناطق العراق وخاصة كركوك الغنية بالنفط .

قلت له: ولكن أي مهتم بشؤون الشرق الأوسط، لابد أن يخطر في باله أنّ وجوداً مستقراً لتنظيمات ترتبط بالقاعدة لابد أن يثير قلق إسرائيل، بل أنّ كثيراً من الساسة العرب يرون أنّ إسرائيل لن تسمح قط بظهور واستقواء تنظيمات من هذا النوع على حدودها مع سوريا.

أجاب الرجل بيقين شبه قطعي: لم يصدر عن الدولة العبرية ما يشف عن موقف رسمي بهذا الخصوص لكن (مركز مايير أميت للاستخبارات ومعلومات الإرهاب) نشر تقريراً لعدد من الباحثين أشار فيه بوضوح إلى سعي جبهة النصرة باعتبارها ذراع تنظيم القاعدة الرسمي في سوريا، إلى إقامة خلافة إسلامية في منطقة شرق سوريا. ويشير التقرير الى أنّ جبهة النصرة نجحت في أن تمسك بالأرض في سوريا لتستقر وتوطن نفسها في شمال شرق البلد وبسرعة هي أضعاف سرعة سيطرة تنظيم القاعدة على أفغانستان، وبهذا يمسي حضورها تهديداً إرهابياً عالمياً.

قلت له: من خبرتي يبدو لي أنّ نشاطات جبهة النصرة في سوريا اليوم تشبه فترة الحضانة التي يعيشها الفايروس قبل أن ينتشر ليصيب المنطقة المضيّفة برمتها،

وأعتقد أنّ طاعون الجهاد (القاعدي) سينتشر الى المنطقة بعد أن يغرق سوريا ليصبح فيما بعد تهديداً للأمن الدولي.

قال: في رأيي أنّ التنظيمات الإسلامية في سوريا لا تسعى إلى إسقاط نظام بشار الأسد، بل تسعى إلى إحياء مشروع سوريا الكبرى القديم، لتقيم من خلاله خلافة إسلامية تضم سوريا ولبنان والأراضي الفلسطينية وإسرائيل، وهو ما كشف عنه التقرير الذي بين أنّ إعلان محمد زهران في 29 سبتمبر/ ايلول 2013 تأسيس جبهة إسلامية تضم أكثر من 50 فصيلاً وكتيبة ما هو إلا خطوة استباقية لكي تتخذ هذه الفصائل أمام أي مواجهة مع الجيش الحر أو مشروع الجيش الجديد المدعوم من الكرد والأمريكيين.

قلت له: هناك عنصر هام غير فاعل حتى الآن في هذا الصراع، وهو إسرائيل، فإسرائيل لا ترى في الفصائل السنية السلفية الوهابية التي تقترب من حدودها عبر المساحة السورية تهديداً، إلا أنها ترى في حزب الله والفصائل الشيعية في العراق وسوريا تهديداً خطيراً لأمنها، والامر يتساءل ايهما اخطر فعلاً على الدولة العبرية؟

نظر إلي بعمق وقال: الفصائل السنية لا تهتف "الموت لإسرائيل، أما الفصائل الشيعية التي تقودها إيران فما برحت منذ أكثر من 3 عقود تهتف "الموت لإسرائيل"، وهذا يفسر لماذا تعتبر إسرائيل حزب الله والفصائل الشيعية المسلحة تهديداً لأمنها. ومع ذلك فإن التقييم الذي ظهر في تقرير (مركز ماير آميت) ذهب الى أنّ جبهة النصره تخطط لمهاجمة إسرائيل من مرتفعات الجولان، ويُتوقع أن تؤسس بنية تحتية عملياتية إرهابية في المرتفعات تمثل امتداداً للبنية التحتية العسكرية التي تؤسسها حالياً في منطقة درعا، المدينة التي شهدت بداية الانتفاضة ضد الأسد سنة 2011.

ويكشف التقرير أن حزب الله وبعض المنظمات الفلسطينية قد تندمج مع جبهة النصره في هجمات إرهابية مشتركة تنطلق من مرتفعات الجولان رغم الخلافات العقائدية العميقة بين هذه القوى.

من جهة أخرى وفي اتجاه معاكس، يرى عدد كبير من الخبراء السياسيين العرب، أنّ التنظيمات الإرهابية المتشددة في المنطقة والتي تكاثرت بعد ما سمي



بالربيع العربي إنما هي صناعة غربية بحتة، لاسيما أنّ من يدعم هذه التنظيمات أنظمة عربية وإقليمية تعد أكبر حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة، مذكّرين دائماً أن الجهاديين الذين ظهروا أول مرة في أفغانستان لمحاربة الوجود السوفيتي في سبعينات القرن الماضي (وبضمنهم بن لادن نفسه) كانوا صناعة أمريكية خالصة، والحقيقة إن هدف تلك الفصائل لم يكن إسقاط النظام السوري قط، بل إضعافه، أما إسرائيل فهذه التنظيمات غير معنية أصلاً بالتعرض لها.

ورغم أن موقفاً رسمياً من التنظيمات الجهادية القريبة من خط تنظيم القاعدة لم يصدر عن إسرائيل فإن عدداً من الخبراء الإسرائيليين وفي مناسبات عدة قد أعلنوا أن إسرائيل قادرة على التعايش مع هذه التنظيمات الجهادية أكثر مما هي قادرة على التعايش مع النظام السوري.

قلت وأنا أشير للنادلة أن تقدم العشاء: بدا لي في وقت ما أن ربيع العرب قد أነع في سوريا، فصار البعث وجبهة المقاومة والصمود والتصدي رموزاً للرجعية والتخلف، فيما أضحت السعودية وقطر وتركيا راعية للثورات وتصدر لأرض قاسيون الجهاديين السلفيين ليحرروا البلد من رجعية البعث، ألا يثير هذا الانقلاب أسئلة لدى السوريين؟

قال ساهماً: لدى السوريين ملايين الأسئلة التائهة تبحث عن اتجاه، وليس غريباً أن يطل المشهد بهذا الرداء السوريالي، فكل التفاصيل على مدى أعوام الألفية الثالثة اتسمت بسوريالية قلّ نظيرها. سفينة البعث الراسية في سوريا منذ نحو خمسين عاماً بدأت تغرق ، وبدأ كثيرون بمغادرتها قبل غرقها، أولهم نائب الرئيس عبد الحلیم خدام الذي غادر سوريا في نهاية سنة 2010 هارباً ومنقلباً على نظام كبر معه في نفس مدارس الايديولوجيا القومية البعثية (لصاحبها التركي ساطع الحصري ) مستشعراً قدوم الخطر.

أنظر إلى خالد مشعل الذي ظل يقود نضال حماس من مكتبه في دمشق ليحارب اسرائيل (بلا هوادة) مستفيداً من دعم إيراني غير خفي، لقد انقلب عدواً لسوريا وقلب ظهر المجن لراعيته الأكبر إيران بعد أن شعر أن التغيير قادمٌ وهرب إلى قطر، ملاذ من صاروا ثواراً وحالمين.

تأمل تنظيم الجهاد الإسلامي وهو يفكر في نقل مكاتبه من دمشق إلى القاهرة (بعد فوز الاخوان بالرياسة المصرية فيما عرف بعام مرسي)، أو إلى بيروت الممزقة بين موالاة الأسد الغارق وبين موالاة أعدائه الذين أعادوا اعمار لبنان بعد الحرب الاهلية والاحتلال الاسرائيلي.

تأمل مناف طلاس وهو يفلت لينقلب، نواف الفارس وهو يهرب من العراق لينقلب، والقائمة قد تطول، لكن قائمة التغييرات السورالية لا تكاد تنتهي، فالموقف من بشار الأسد صار يُحسب اليوم بمعايير الولاء الطائفي، وتحول زعيم البعث وربيب بيوته إلى رمز شيعي ينبغي القضاء عليه لوقف المد الشيعي الإيراني في المنطقة (من خلال كسر الهلال الشيعي الذي نبه إليه عاهل الاردن الراحل الملك حسين عام 1978). ولا أحد يفهم كيف صار الأسد البعثي رمزاً شيعياً وهو العلوي العلماني.

المختصون من علماء الشيعة يعدون العلوية فرقة شيعية لا تنتسب للشيعة الإثني عشرية، وهي في ذلك تشبه الزيدية والأدارسة و غيرهم من فرق الشيعة.

أغرب المواقف في العراق، فحتى نهاية عام 2010 كان العراق حكومة وشعباً يشكو من رعاية نظام الأسد لعناصر الإرهاب، وقيامه بإرسال الإنتحاريين والسيارات المفخخة لقتل العراقيين بلا تمييز، بل أن الاستهداف كان ومازال يقع على شيعة العراق الذين تصفهم أدبيات الجهاد الدمشقي والسلفي بالرافضة المجوس. وقد أعرب رئيس حكومة العراق نوري المالكي وعدد كبير من ساسة هذا البلد، في أكثر من مناسبة عن رغبتهم في التوجه إلى مجلس الأمن لشكاية نظام البعث في سوريا. السؤال اليوم، هل كانت كل تلك الوقائع تمثيلات يراد منها تظليل الرأي العام عن المشروع الإسلامي السني والشيعي على حد سواء، بايهام الرأي العام أن هناك صراعاً دموياً بين السنة وهم الأغلبية وبين الشيعة وهم الأقلية المتمردة؟

وليس سراً أن سوريا آوت كل قيادات البعث التي هربت من العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، ووفرت لهم ملاذاً آمناً أتاح لهم أن يشكلوا تنظيماً بعثياً جديداً تحت إسم حزب العودة يقوده يونس الأحمد.

وصلت النادلة بعربة الكيترنج، وبدأت تنزل الأطباق على مائدتنا وهي تعرفها مشفوعة بالابتسام، وختمت العملية بالتمنيات بشهية طيبة لكيينا.

تناولت شوكة وسكيناً، وقبل أن أشرع بالأكل قلت له:

ألا ترى أن الموقف العراقي قد تغير بشكل كامل منذ تفجرت الاحتجاجات في سوريا، وحال انتقالها إلى طابع المواجهة المسلحة مع النظام. الا ترى أن بشار الأسد بات قريباً لبغداد، في معادلة تقديرها: هو علوي على الأقل، وبالتالي فهو في كل حال خير من البديل السلفي الأصولي الناصبي القادم الى سوريا؟

تناول شوكتيه بيده وقال: لا ريب أن هذا يأتي بتأثير طهران على القرار العراقي، فيما نأى كرد العراق وتبعهم كرد سوريا في هذا الموقف عن موالاة الأسد وهو يغادر عرينه القومي الذي أذاقهم الامرين على مدى عقود من الزمن، على الأقل في هذه المرحلة، كما نأوا بنفس القدر عن موالاة القوى الدينية السلفية التي تسعى لإسقاطه، وفي تصوري أن محصلة الموقف الكردي في سوريا ستنتج نحو موالاة الاسد ضد التيارات السلفية التي تطلق عليه الرصاص.

العراقيون المقيمون في سوريا وعددهم قد يصل المليون يواجهون محنة سوريالية من نوع آخر، فكثير من المجاهدين يعدونهم من المنتفعين من وجود نظام البعث لاسيما أنه يحمي قيادات البعث العراقي المهاجرة الى سوريا، ويحمي قيادات القاعدة التي هربت من الرمادي لينتهي بها المطاف في ضيافة البعث السوري الكافر، وبذا صاروا يستهدفونهم بالقتل والتهجير.

قلت له ملوحاً بسكين الطعام: في المقابل، أنضم عدد غير معلوم من هؤلاء المهاجرين العراقيين إلى قوى التغيير، ورفعوا السلاح بوجه ولي نعمتهم لأسباب لا تغادر مشهد الاستقطاب الطائفي الذي يسود المنطقة.

سوريا التي انطلق منها الربيع القومي في النصف الأول من القرن العشرين، تواجه احتمالات سوريالية دموية، أقلها التقسيم بين الأسد وبين خصومه، حتى بعد أن كسرت شوكة التنظيمات الجهادية السلفية، ظلت قوة الأسد موضع سؤال، فهو سرعان ما سيتنكر لحلفائه الشيعية في العراق وإيران .

أسكت تطبيق التسجيل وانشغلنا بتناول الطعام، ونحن نتحاور في شؤون عامة تخص غالباً المسألة السورية.

حين رنّ هاتفي النقال كنت آخذ دوشاً في الحمام، رنّ بشكل متصل طويلاً، ثم انقطع الرنين، وعاد ليرن بعد دقائق وأنا ما زلت في الحمام. انقطع الرنين. بعد أن انتهيت من الاستحمام، خرجت لأنظر من المتصل، كان الرقم مجهولاً خفياً.

ما لبث أن رنّ الهاتف مرة أخرى، رفعته ليأتيني صوت أنثوي فيه غنج: مساء الخير، أسمى خلود وأريد التحدث إليك، أعطاني رقم هاتفك الجنرال... الجنرال سلاح!!

أهلاً وسهلاً بك، علينا أن نحدد موعداً ومكاناً.

- أما المكان، فعندي في البيت، وأما الزمان، فأفضل أن يكون في وقت متأخر من الليل، قل لي أي ليل يناسبك؟

أين البيت؟

- في منزلي الصيفي بشرم الشيخ.

يا سيدتي، أنا الآن في بيروت، وبينني وبينك ساعتان بالطائرة، علينا أن نعتني بترتيب هذا سلفاً.

- ما سأقوله لك يتصل بثورة يناير في مصر، نحن من ظلمتهم الثورة، ونريد أن ينصفنا أحد، لا أحد معنا، الكل مع التغيير ويبحثون عن موقع لهم في عالم اليوم، أما نحن، ففي عالم المجاهيل، نقضي ليلنا لوحدنا، أسرئنا خالية باردة، وبيوتنا لا يزورها الفرح، وحياتنا غادرها الزوج إلى غير رجعة، تعال يا سيدي، لأحكي لك كيف تعيش أرامل الضباط بلا أمل في مصر الجديدة، كان رجالنا يصنعون القرار المصري واليوم لم يبق لنا إلا التعلّق برحمة الغرباء لنجد من يحل مشكلاتنا. تعال عندي لأقص لك ما لن تجده في أي مكان، وما لن يقوله لك أي أحد.

في كلامها شيء يحرك في داخلي مواضع غامضة، مثل ارتجاف يهتز في منطقة مجهولة كنبض بركان يهدد أن ينفجر في أي لحظة، هل يهمني أن أرى تفجر البركان؟ لأذهب إليها إذا.

- نهاية هذا الأسبوع قد تكون مناسبة، لنقل مساء الخميس المقبل، إذا وجدت طائرة تقلني إليك في هذا التاريخ.

أرسل لي رقم الرحلة إذا حجزت في رسالة نصية على هذا الهاتف، سأرسل إلى المطار سيارة تأتي بك إلى البيت. أنظر إلى شخص سيحمل يافطة عليها اسمك وآخر 4 أرقام من رقم هاتفك الخليوي في صالة استقبال الوافدين. أنا بانتظارك الخميس وعندك لك أكثر مما تحلم به!

أغلقت الهاتف، ونظرتُ إلى حجز طائرة على الانترنت، الرحلة موجودة يومياً، وبمبلغ زهيد، حجزت الرحلة، وطبعت التذكرة، وأرسلت لها الرقم في رسالة نصية مع توقيت الوصول. أجابتنى بعبارة قصيرة "أنا في انتظارك... لن أمل".

ليلة الخميس في تمام الثامنة، حطت الطائرة بنا في مطار شرم الشيخ، في صالة الاستقبال وجدت شاباً يحمل يافطة مكتوب عليها اسمي مع أربعة أعداد، اتجهت نحوه، فأبتسم وسألني: هل أنت على موعد مع السيدة خلود يا أستاذ؟ أجبته بالإيجاب، فتناول حقيبة يدي الكبيرة وقال اتبعني رجاء.

خرجنا من المطار، إلى باحة وقوف السيارات، فاتجه إلى سيارة أنيقة، وفتح لي الباب، ثم وضع الحقيبة في السيارة، وانطلق بنا دون كلام. بعد نصف ساعة، دخلت السيارة إلى مرآب فيلا بانخة تطل على البحر الأحمر، وصلنا إلى بابها، فترجل السائق ليفتح لي الباب وينقل حقيبتى. فتحت لنا خادمة عربية باب البيت وقادتني إلى صالة الاستقبال، جلست بانتظار أن أرى خلود.

من قوس عريض يربط الصالة بصالة أخرى، دخلت سيدة في مطلع الثلاثين، يسيل شعرها الأسود الطويل على كتفين عاريين بلون الحنطة، ويكسو رقبة متطاولة تشي برشاقة قدها الجميل. كل شيء في وجهها يدل على الأنثى، كل ما في جسمها ينادي وهو يرتج في ثوب أبيض تزينه كسرات الكروشيه وهي تنتشر في كل المناطق التي تلزمها لمسة رشاقة، أو رغبة في اقتناص أنظار الرجال، و كل ما في عينيها أسرار تحكي قصة انتصار الجسد على العقل وزواج السلطة والجمال.

بابتسامة عريضة مدت يدها لي وقالت: إذا كان لا بد من أن أقول شيئاً، فهذا أنا اشكرك لكل اللطف والرعاية التي أبديتها حتى الآن، أرجوك، لا تتكلف أي شيء، كن على طبيعتك، أمامنا الكثير. هل نبدأ بالعشاء، أم ندعه لما بعد؟

أخذت يدها الناعمة الساخنة وقلت: تناولت عشاءي في الطائرة يا سيدتي، لنبدأ بالقهوة أو ما شابه.

جلسنا إلى بعضنا على أريكتين منفصلتين متقاربتين، أشارت بيدها إلى عربة تصطف عليها قناني وكؤوس كثيرة، وقالت: لك أن تشرب ما تشاء!

- شكراً يا سيدتي، لا أفضل الكحول في هذه الظروف، أريد أن أصغي لما تقولين بكل حواسي، الكحول يبعث فيّ الخدر، لكنني سأخذ كأس مياه معدنية، مع فنجان قهوة.

هل سمعت بقصة المدفع الكبير؟!

- بل أريد أن أسمعها منك؟

لنترك هذه القصة حتى النهاية ونبدأ من حيث توقفت حكايتي، كان زوجي ضابطاً في الجيش المصري برتبة مقدم، لم يكن يشتغل في الوحدات الحربية، بل كان يعمل في هيئة المخابرات العامة، ويتعلق عمله بمشاريع شركة نصر وما يتفرع عنها. ومنذ عام 2005 نشط في متابعة ملف تطوير صناعة رشاش مشترك بين مصر وإسرائيل أرادوا أن يسمونه (معادي 2000). المشروع بالغ السرية، وتولى التمويل رجل أعمال مصري كبير جداً، ورجل أعمال إسرائيلي معروف مقيم في لندن، على أن تتولى الدولتان المصرية والعبرية إنتاج السلاح وتسويقه بعد إتمام الأبحاث وخطط الإنتاج الأولية. قبل أن تسألني، أقول لك أنني اطلعت على هذه التفاصيل قبل اختفاء زوجي، الذي نقلها لبيتنا في زحمة أحداث يناير والفوضى التي رافقتها حين بدأت العصابات تجتاح المؤسسات الحكومية، وقد نقلها من خزانة خاصة تضم وثائق سرية بالغة السرية، محفوظة في مكان عام محمي، ولا يملك حق الدخول إليها إلا من كان يحمل هوية خاصة موقعة من رئيس الجمهورية.

- مهلاً سيدتي، هل تتحدثين عن إنتاج سلاح مشترك بين مصر وإسرائيل، منذ متى بدأ هذا التعاون؟

إنه قديم جداً، وكانت ثمرته الأولى إنتاج مسدس مصري أسمه حلوان 9، وقد تولى العراق شراء حق إنتاجه في عام 1985، باسم طارق، ويقال إنه قد دفع لمصر ما قيمته 500 مليون دولار ليشتري الخبرة والمواصفات وخط الإنتاج. على كل حال، هذه التفاصيل ليست مهمة، المهم بالنسبة لي أن أروي لك ما جرى لي ولزوجي بعد...

- أريد أن أعرف شيئاً سيدتي، هل يعمل زوجك في هذا المشروع بصفته ضابطاً، أم بصفته مقاولاً؟

لا، هو ليس مقاولاً، بل هو ضابط مهندس مختص بمشاريع تطوير إنتاج الأسلحة، ولكن بعض العاملين في فروع مؤسسة نصر العسكرية يتمتعون بامتيازات، وهذا البيت الذي نسكنه هو أحد هذه الامتيازات. دعني أكمل لك القصة وستصل إلى تفاصيل مهمة، ولكن علينا قبل ذلك أن نستريح... تعال معي لأريك شيئاً.

نهضت من جلوسها، فبان جزء من فخذاها القمحي اللفيف الجميل الصقيل، وتركتها تسير أمامي لأتأمل الجسد المكتنز بالعافية وهو يهتز على ايقاع حذاء بكعبين عاليين.

دخلنا فناء فسيحاً فيه سلم دائري، نزلت السلم وتبعته متأملاً لندخل قاعة بلا نوافذ تحتل مساحة كبيرة أسفل البيت. تتوسط القاعة طاولات عرض بواجهات زجاجية مغلقة، فيما تعج الجدران بصور وتذكارات معلقة.

أهلاً بك في دنيا الذكريات، هنا تجد كل ما حصل عليه زوجي نبيل خلال أعوام عمله، بعض الهدايا جاءت من أشخاص بمستوى قادة ورؤساء دول، أنظر إلى هذا السيف، إنه هدية من ملك إحدى الدول العربية لزوجي بمناسبة افتتاح مصنع سيارات مكافحة الشغب. إنتاج هذه السيارات يتوقف على طلبات المشترين.

هذا الخنجر المعقوف المرصع بالجواهر، هدية من أمير عربي أنجز له زوجي لوحده مشروع تطوير بندقية صيد. تكلف المشروع 10 مليون دولار، وأنتج بندقية واحدة محفور عليها اسم الأمير، ثم توقف الإنتاج بانتظار طلبات بمستوى يليق بالمنتج.

هذه الحقيبة اليدوية النسائية المصنوعة من جلد التمساح المرصع باللؤلؤ وصلنتني من ابنة رئيس عربي قتل مؤخراً أبشع قتلة.

أثناء جولتنا العجيبة في عالم القوة، سألتها: كم يبلغ نبيل من العمر؟

- إنه في الخامسة والثلاثين، يا لهفتي على الحبيب الغالي الذي خلفني وحيدة في هذا العام الصعب.

ومتى تزوجتما؟

- هذا هو الثامن لزواجنا، قصة حب كالحلم مرت سريعاً لتخلف ذكريات محنطة في بيوت زجاجية.

واصلنا جولة العجائب وقد بلغ مني الإرهاق مبلغه، فصرت أئنأب رغباً عني، فانتبهت لحالي وقالت: لنعد إلى أعلى فالوقت متأخر الليلة، عندي المزيد لأقوله لك يوم غد. سيأخذك السائق إلى جناح حجزناه لك في فندق غراند روتانا.

عدنا إلى صالة الضيوف، فطلبت السائق ليأخذني إلى الفندق وقالت: نلتقي غداً في الرابعة بعد الظهر هنا في بيتي لنواصل الحديث، يمكنك أن تقضي يومك على ساحل بحر المرجان، لكن أحذر سمك القرش (مبتسمة) والسباحات الفاتنات... أغلبهن يبحثن عن صيد...

(قاطعتها مبتسماً)، القرش أخطر من السباحات في كل حال، لاسيما إذا لم يكن عربيات... العربيات هنّ الأخطر في رأيي.

ضحكت بدلال وقالت: نعم فالسمر اوات يحسنّ الصيد حتى دون شباك.

- لا بل إن الحنطيات منهنّ يقتلن بطرف العين، ويلاه منهنّ! نلتقي غداً سيدتي في الرابعة. ضحكت بصوت عالٍ وقد التقطت فحوى تحرشي المقصود وقالت: قبل الرابعة ستنتظرك سيارة في مرأب الانتظار أمام بوابة الفندق، ليلة سعيدة وألف ألف شكر لكل شيء.

استمر هذا البرنامج مع خلود ثلاثة أيام، عرفت خلالها تفاصيل علاقتها بزوجها وجزئيات علاقة زوجها بعالم السياسة والسلاح. قصة سحرية أضعت في ثناياها حدود عملي كجليس، وبدأت أقترب كثيراً من وظيفة الأنيس، وهي بلا شك أكثر حميمية وأكثر انفتاحاً.



اليوم الرابع في شرم الشيخ، موعدني مع خلود في التاسعة ليلاً على شاطئ البحر في حفل بشاليه يعود لمطربة لبنانية معروفة، لتعرفني على بعض أصدقائها، ولنبتعد قليلاً عن أجواء العمل التي سادت الأيام الثلاثة الماضية كما طلبت.

في الثامنة والنصف صباحاً غادرت الفندق إلى ميناء شرم الشيخ لأنطلق في رحلة بحرية بيخت أنيق اسمه فينيق إلى خليج القرش لمشاهدة الشعب المرجانية، بعدها قصدنا منطقة رأس نصراني حيث المزيد من الشعب المرجانية، ثم محطة استراحة في مطعم عائم على لسان بحري شمال رأس نصراني لتتناول وجبة غداء دسمة من سمك السلمون المشوي والرز وأنواع السلطة، تلتها استراحة لمدة ساعتين على خليج نعمة، وهو امتداد ساحلي كأنه رتقٌ نتأ عن الجنة وسقط في مياه البحر الأحمر شفيفة الزرقة، من هنا مر موسى النبي وتبعه العبرانيون إلى التيه.

لكل شيء هنا طعم آخر لا سيما ونحن الآن في الخريف، الماء أكثر زرقة وشفاء، والسماء أيضاً أكثر زرقة، أيهما يسرق لون الآخر؟ الشمس أقرب للأرض هنا، لكن رطوبة مياه البحر تلطف حرارتها، وحين ينظر المرء من زورق يمخر المياه، يمكنه بسهولة أن يرى قطعان الأسماك وهي تسبح مطمئنة قريباً جداً من سطح الماء، شهية الإنسان للطعام ومزيد من الشرب والضحك بلا حدود، ورغبته في الجنس تفوق الخيال، والسؤال الكبير هو، كيف يتاح لسكان هذا الفردوس الأرضي أن يعملوا، أي كيف لهم أن ينسوا هذه المتع وينشغلوا بالعمل؟

لا عجب أن يختصم العرب واليهود قروناً على هذه الأرض وبحرها.

في الخامسة عصراً عاد اليخت الصغير إلى شاطئ فندق غراند روتانا، كل المباني هنا على الشاطئ، البيوت والشاليهات والفيلات والمطاعم ومخافر الشرطة ومحطات إنقاذ السياح في الطوارئ وبيوت الصيادين ومراسي الزوارق واليخوت، ساحل لا ينتهي والكل يتنافسون على مساحة فيه.

جفّ جلدي لملوحة البحر، و تقشّرت أطراف قدمي، أسير بصعوبة إلى صالة الفندق، لأشتري مرهماً مرطباً وأذهب ألى غرفتي التي يسودها اللون الأزرق، عشقي هو الأزرق، كيف عرفت خلود ذوقي؟ أخذ دوشاً بارداً، أتبعه بمشروب

مثلج، وأرتمي على سرير مريح أغوص في ثناياه لدرجة يمتنع فيها النوم عني، محاولاً أن أغفو في انتظار مواعي المسائي.

في الثامنة مساء أيقظني هاتف الغرفة، السائق ينتظرنني في صالة الفندق. على عجل أخذت دوشاً وارتديت بذلة سوداء وربطة عنق وغادرت غرفتي لاستقل السيارة التي أقلتني في طريق أخذ منا ساعة كاملة لنصل إلى شاليه يشبه قبة مقامة على أعمدة تواجه البحر، وتحتها صالة مفتوحة يزدحم فيها الناس. مجاميع من الحضور يتوزعون على طاولات منتشرة في كل مكان من الصالة الفسيحة، فيما تتحلق مجاميع أخرى على مناقل شي السمك واللحوم المنتشرة في أطراف الصالة المقبية.

خلود تجلس إلى امرأتين في طاولة معزولة، اتجهت نحوهن حديثاً، حين وصلت قدمتي خلود لهما باعتباري من معارف الأسرة، وقدمتهما لي، إحداهما الفنانة صاحبة الشاليه، وهالني لون بشرتها الشاحب وقد تعودت أن أراها في التلفزيون نظرة مشرقة، صافحتها بهدوء وابتسامة محبة وقلت: لعلك الليلة ستخاصمينا وآه على الوحدة ونص؟

ضحكت للمجاملة ومدت ليدها لتصافحني مرحبة. ثم مددت يدي للسيدة الثانية، فقدمتها خلود بالقول، السيدة راحيل وصّاف زوجة رجل الأعمال خليل وصّاف. بابتسامة مجاملة مدت يداً باردة لتصافحني. ثم جلست إليهن ودار الحديث في عموميات. قامت الفنانة وراحيل لتتركاني وخلود وحيدتين يصافح وجهينا بحر تتراقص فوق سطحه انعكاسات الأنوار ونيران الباركيو المنتشرة على امتداد الساحل الهلالي الشكل.

قالت ونغمة شوقٍ تلون نبرتها: أعشق هذا المكان، اعتدت أن أزوره مع نبيل حين يكون في البيت، تجري هنا حفلة كل أسبوع تقريباً، المدعوون إليها أهم الناس من كل أنحاء العالم. في كل زيارة لي لهذا المكان أخرج بصداقة مثمرة.

- وهل تثمر صداقتنا الليلة أيضاً؟ قلت بخبث مقصود مغادراً نهائياً دور الجليس إلى مساحة الأُنس الحميم التي تتيحها الوظيفة الأخرى.

قالت وهي تنظر في عيني بلا خجل: هذا يعتمد عليك إلى حد كبير، النتائج في النهايات كما يقولون.

تلك الليلة رقصنا وشربنا حتى الرابعة صباحاً، وأنتهى بنا الرقص إلى مسطح  
رملي تظله نخلتان من بدر تمام يسافر بنا الى ليالٍ عربية. ربما سهر بعض الخلفاء  
قبل قرون من التهتك اللذيذ وقرون من التعصب البغيض صحبة خلياتهم  
الراقصات وقيانهم المغنيات وجواريمهم العاريات وهم يسامرون هذا القمر بانتظار  
شهر عربي آخر يؤذن بطقوس يحافظ عليها المسلمون، ويتنكر لها الخلفاء علناً.

ألقى بنا الإعياء والسكر في حزن الرمال الناعمة الباردة، فتمددت خلود على  
ظهرها وهي ترفع حنكها إلى السماء وتضحك مع نفسها كأنها تستذكر وقائع شبيهة  
بما جرى الليلة أسلمتها لمثل هذا الخدر الجميل. نظرتُ إلى فستانها وقد انكشف  
عن ركبتيها وجزء من فخذها الناعمين. تمددت بطولي إلى جانبها، وانحنيت  
بأنفاسي على أذنها، أزحت الشعر بأنفي قليلاً ودستت فمي قريباً جداً من نقطة  
التقاء أذنها بالعنق ونفخت قليلاً، ارتجفت راعشة وأغمضت عينيها تنظر الخطوة  
التالية، نزلت بشفتي على عنقها أقبله وعلى شحمة أذنها أمصتها برفق فتأوّتت  
تهمس: ماذا تفعل أيها الشقي؟ ثم لفت يدها خلف رأسي وجذبتني إليها لتعرس  
شفتي في عنقها وشفتيها في أذني وشعري، رائحة جسدها وعرقها وعطرها تختلط  
بمثلها من جسدي، عناقها عذب ساخن، وساعدها الذي يطوق رأسي حنون يكاد  
يقول خذني.

بعد الحريق، نفضنا عن اناقتنا رمال الصحراء وتمددنا على رمل ساحل البحر  
الأحمر الذي شهد منذ آلاف السنين لحظة لذة مثل هذه بين ملايين الناس.

\*

فجأة وجدت نفسي وخلود التي تصغرني بأربعة عشر عاماً في سفينة علاقة تخوض كل يوم مياه البحر الأحمر. فاجأتني بعد ليلتنا على رمال سيناء الرطبة الباردة بالبحر بأن واحداً من أسباب اختيارها لي هو مشاهدتها صورتني على فيسبوك، وقد وجدت فيّ شيئاً كبيراً بحبيبتها المتواري نبيل. ثم اكتشفت بعد قربي منها أن الشبه لا يقتصر على الشكل بل يصل إلى العقل والسلوك. هكذا قالت خلود، ولي أن أصدقها فيما قالت حتى إذا كان موقعي في هذه العلاقة هو موقع البديل التعويضي، أنا داخل معها بجهد البديل وفي هذا عزاء حتى لو بدا الأمر معيباً للبعض. في النهاية أنا الموجود في بيتها وعندها، وهذا يكفيني.

هكذا صرت نزيلاً دائماً في أرض التيه، هنا في شرم الشيخ تختلط قصص السياسة بقصص العشق، وتتكشف بين حين وآخر تفاصيل سرية لا يلتفت إليها أحد عن أخطر التحولات في العالم.

ذات ليلة، رنّ هاتفي الجول، ليأتيني صوت رجل يسألني بالإنجليزية إن كان عندي الوقت للقائه والاستماع إلى بعض ما عنده مؤكداً أنه موجود في شرم الشيخ وقد شاهدني في أحد الكازينوهات قبل أيام. سررت بالعودة إلى عملي بعد انقطاع ثلاثة أسابيع وسارعت احدد له موعداً بنفس الليلة.

في الصالة الشرقية لفندق رتز بلازا إلتقيته، أشيب الشعر متوسط القامة وقد جاوز الخمسين من عمره، عرّف نفسه: "روبرت بير" مدير عمليات إقليم سابق في المخابرات المركزية الأمريكية سي أي أي .

جلسنا إلى طاولة نائية يعلوها نور يساقط عليها من ثريا في عنقود محار تدلى فوقها من سقف يتجاوز ارتفاعه 10 أمتار، جلسنا والبحر يواجها، وخلفنا تاريخ من التحولات يفككها الحوار فتصير قصصاً نتداولها على سواحل البحر الأحمر في ليلة خريفية بدأ البرد يتسرب إليها. بيننا صحن مقبلات كبير، وصحن كالبوريا مقالية، وكأسان من نبيذ أسباني عمره خمسة أعوام. دون مقدمات قال محدثي:

أعرف عنك من خلال وظيفتي أكثر مما تظن، بل أعرف من يدفع لك أجرك، لكن هذا ما عاد يهمني، لقد اعتزلت العمل، وما أعدت أطيق احتواء الأسرار في جوفي، لا بد لي أن أشرح ببعضها إلى من أثق فيه. أنت بالطبع أهل الثقة، لأنك

تتقاضى أجراً لاقتسام الأسرار، وهذه وظيفة قلّ نظيرها في هذا العصر، هذه وظيفة تتولاها اليوم العقول الإلكترونية التي أضحت مخازن أسرار عملاقة لا تمل من السكوت، لكنّ وظيفتك مثل وظائف ساعي البريد وطبّاع الآلة الكاتبة وناشر الكتب - معرّضة اليوم للانقراض، في مستقبل قريب سيكتفي من هم مثلي بأن يودعوا أسرارهم على هارد دسك في كومبيوتر ما لتبقى الأسرار هناك محفوظة الى أزل.

- حتى يحين ذلك الوقت، أكون قد أحلت نفسي الى التقاعد، وسأبدأ بدوري أفتح صندوق الباندورا لأحد الكومبيوترات فأموت بعدها مرتاحاً! قل لي يا سيدي ما عندك، أنا في شوق لسماع قصصك المثيرة.

أوقد لفافة معطرة، وأحتسى جرعة من كأس نبيذه وقال: كالصحفيين، سأبدأ معك من آخر تحديث للأخبار، ما يجري في سوريا منذ بداية عام 2011 حتى اليوم بات قصة خراب متصل، ثورة، انتفاضة، ردة سلفية، مشروع تقسيم، سمه ما شئت، لكنه بالتأكيد خطوة في طريق التغيير، والمشكلة التي تواجهه أنّ كثيرين من جيران سوريا لا يريدون هذا التغيير في الوقت الراهن، لذا دخل البلد في مأزق قد يقوده إلى حرب أهلية، يليها التقسيم. لا أنوي الخوض في السياسة، لكن هذه مقدمة لأسألك: ما رأيك في التغيير الذي صنعه بلادي في العراق عام 2003؟

- من جانبي أرى أنّ الزلزال الذي أصاب العراق في عام 2003، لم يكن مجرد تغيير لحاكم العراق، بل كان الخطوة الأولى في مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي لم تخفه الإدارة الأمريكية وحلفاؤها المعلنون، وغير المعلنين في الإتحاد الأوروبي، فالرئيس الأسبق جورج دبليو بوش الأبّن ما برح يقول إنّ العراق سيكون لبنة التغيير في المنطقة، وعند إتمام انسحاب القوات الأمريكية من العراق تفجّر الوضع في المنطقة العربية، ولا يغفل المراقب أنّ التغيير كله سار على خطى التغيير في العراق، فراغ سياسي دام عقوداً بسبب موروث القمع الذي مارسه جمهوريات الانقلابات العسكرية القومية، ملأت الأحزاب الدينية الفراغ فلجأ الشعب الذي لا يعرف غيرها إلى انتخابها، فاكتسبت شرعية الوجود بمقياس الديمقراطية الغربية، ونسي العرب نظرية المؤامرة بعد أن وجدوا أنفسهم محتشدين في الميادين يسقطون جمهوريات العسكر القومية ليقيموا محلها إمارات الأحزاب الاسلامية. الكل راضٍ عن التغيير، والعراق الذي يشار إليه باعتباره

رمزاً لفوضى صنعها الغرب، صار بالمقارنة، الأكثر ديمقراطية والأكثر استقراراً. ولكن ما لم أفهمه حتى الآن - وأنا من أعداء نظرية المؤامرة- ، كيف ولماذا تزامنت ثورات الربيع السلفي مع انسحاب القوات الأمريكية من العراق؟

ضحك روبرت وقال: دعني أرجع بك الى البداية، قمت أنا وثلاثة متعاقدين أميين بتأسيس مكتب إقليمي للوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية في صلاح الدين في كردستان العراق في يناير/ كانون ثاني سنة 1995 ، الإدارة الأمريكية آنذاك لم تكن تريد تغيير صدام حسين، بل كانت تمارس سياسة الاحتواء مع نظامه ومع خصمه اللدود نظام ولاية الفقيه في إيران بالمحافظة على نفس الفاصلة من كل منهما مع مراعاة الفوارق الخاصة. وحين اتفقت المعارضة العراقية في مارس/ آذار من ذلك العام على تنفيذ خطة هجوم على مقرات البعث في كركوك لطرد الحكومة والحزب الديكتاتوري منها، تدخلت الإدارة الأمريكية على الضد من الخطة قبل أسبوع من تنفيذها برسالة وقعها مستشار الأمن القومي الأمريكي توم ليك. كان يتولى مساعدتنا آنذاك لواء ركن عراقي أفضل أن لا أكشف عن اسمه، وقد فرّ إلى شمال العراق عام 1994.

هذا الجنرال عرض عليّ مشروع انقلاب عسكري يقوم به مع مجموعة من الضباط لإسقاط صدام حسين وقتله، وطلب مني أن أعرض رؤية بلادي عن هذا المشروع، هل تقبل الولايات المتحدة بتغيير نظام صدام؟ وهي التي رفضت ذلك عشية طرده من الكويت وانتفاضة العراقيين سنة 1991. بعد هذا العرض شاهدت الجنرال الذي يبحث عن مظلة دولية يعبر من زاخو الى تركيا لتقله طائرة عمودية الى أنقرة ليعرض عليهم نفس الموضوع.

لا بد من القول هنا أن الجنرال المنشق كان سنياً، وسنة العراق الذين يشكلون 20% من سكانه يتحركون تحت مظلة تركيا، فيما يتحرك الشيعة وهم نحو 60% من سكان العراق تحت مظلة إيران، لكن هذا لا يعني أنّ العراقيين سنة وشيعة يمكن أن يغيروا النظام السياسي في بلدهم دون موافقة الولايات المتحدة ودون مساعدتها.

المشكلة أنّ الإدارة الأمريكية آنذاك لم تكن تريد التدخل، بل كانت تعمل بتحفظ وفق شعار "لا عين ترى ولا قلب يتوجع" ، ومن هنا اختارت دائماً أن تتأى بنفسها عن التدخل في شؤون العراق بشكل مباشر، وهكذا رفضت هذه الإدارة خطة

الانقلاب التي أرسلتها لهم وجاء الجواب في كلمات قليلة " أين هي خطة الانقلاب؟".

بقيت في زاخو بعد أن سافر الجنرال . أتصل بي أحمد الجلبي هاتفياً وطلب مني العودة إلى صلاح الدين للقاء مدير عمليات شمال الخليج في وزارة الخارجية والقائم بأعمال السفارة الأمريكية في العراق ديفيد لت، ثم طمأنني الجلبي إلى أن المعارك بين الحزبين الكرديين التي كانت في أوجها آنذاك، ستتوقف خلال الزيارة.

جرت الزيارة، ولم ألتق بالمسؤول الأمريكي سوى دقائق قصيرة، نظر إليّ فيها بذهول، أظنه لا يدري أنني ممثل المخابرات المركزية في كردستان، ثم غادر المكان بطائرته ليتركنا والعراقيين نسبح في مياه الخيبة والفشل، الإدارة الأمريكية تريد أن تتأى بنفسها عن كل شيء، لكنها تريد جنى كل شيء.

قاطعت روبرت مرة أخرى بالقول: أنت لم تجب سؤالي، وأخذتني في زحمة التفاصيل، دعني أسألك بشكل قاطع: كيف ولماذا تزامنت ثورات الربيع السلفي مع انسحاب القوات الأمريكية من العراق؟

- سأختصر التفاصيل، كثير من العراقيين، حتى من كانوا في أعلى مستويات القيادة في نظام صدام، وفي أعلى مستويات القيادة في معارضته وهم حكام البلد اليوم، كانوا يرون أنّ الغرب يريد صداماً قوياً بعض الشيء في السلطة، ليردع به إيران، وليفزع به دول الخليج، التي ما أن تسمع أنه قد تحرك في موكب باتجاه جنوب العراق، حتى تهرع لتتحلق حول أمريكا مثل جراء تحتمي بأمرها! وإذا تسألني شخصياً، فأنا أعتقد أنّ العراقيين هم الذين أبقوا صداماً في السلطة كل هذه السنين، لأنهم وجدوا فيه قائداً يمكن أن يحكم بلدهم الصعب الذي وصفه تشرشل بأنه "بركان جاحد!".

ما جرى بعد عام 2003 في العراق أثبت بشكل كلي هذا التصور، فبدلاً من أن يستقبلنا العراقيون بالورد لأننا خلصناهم من ديكتاتور دموي مرعب، صاروا يستهدفوننا بالعبوات الناسفة والسيارات المفخخة، وهذا قد عجلّ بخروج قواتنا المحررة من هذا البلد، وربما كان بمثابة إعلان من السياسة الأمريكية، أنّ مبدأ الفوضى الخلاقة الذي أطلقه كوندي (كونداليسا رايس) ودونالد، هو الذي سيضع الأمور في نصابها في العراق وفي المنطقة، وهكذا تدفقت ثورات العرب على

حكاهم بعد أن أدركت القوى السلفية وأحزاب الإسلام السياسي أن الولايات المتحدة لن تحمي أحداً وستدع الأمور تسير إلى نهاياتها، لتجني بهدوء ثمار ما يحصل. ولكن دعني أذكرك أن بلادي منذ سبعة عقود تحتفظ بخمسين ألف جندي مستقرين في خمس قواعد في ألمانيا التي قضينا على حكومتها النازية، مع ذلك لا يتحدث أحد عن احتلال أمريكي لأرض الراين والجرمان.

ونحن نحتفظ ب100 ألف جندي في نحو 18 قاعدة موزعة على الجزر اليابانية منذ أن كسرنا هبة جيش الميكادو الامبراطوري عام 1945 بعد أن جربنا القنابل النووية فوق هيروشيما وناغازاكي، مع ذلك لا أحد يقول إن الولايات المتحدة تحتل اليابان. هذا يحدث في العالم العربي حصراً، والربيع السلفي يليق بهذا العالم حقاً.

غلبني الانفعال فقلت محتداً بعض الشيء: أترأك تقول إن الولايات المتحدة لا تسعى لحماية مصالحها في الشرق الأوسط، وقد تركت الحبال على غارب الخيول الجامحة؟

- المصالح تحمي نفسها، إن لم يشتر الغرب نطف العرب، فمن يشتره والعرب إن لم يبيعه هلكوا جوعاً؟

العرب يعادون جيرانهم في جميع الاتجاهات، إسرائيل في وسطهم، إيران في المشرق، وتركيا في الشمال الشرقي، وأوروبا في الشمال حيث يتدفق مهاجرو الشمال الأفريقي على دول أوروبا الغربية الغنية، وأفريقيا في الجنوب حيث يتدفق السلفيون العرب على تشاد ومالي وأثيوبيا والنيجر ونيجريا، وبوكو حرام وحركة الشباب وما إلى ذلك. وإذا لم يشتر العرب من الغرب أسلحتهم لخوض غمار حروب محتملة ضد أعدائهم المحتملين، فمن يبيعهم الأسلحة المتطورة إذا؟

إن لم يدرس الطلبة العرب في الغرب، فإين سيتعلمون إذا؟

إن لم يدرّب الغرب الجيوش وأجهزة الأمن العربية، فمن سيفعل ذلك إذا؟

هذه بعض مصالحننا ولا أريد أن استفيض أكثر.

مع هذه الكلمات، رنّ هاتفى النقال، خلود على الخط: أين أنت؟

- في صالة رتز بلازا.



تعال إلى البيت، عندي لك مفاجأة !

ودعت روبرت بير وشكرته على صراحته، وافترقنا على غير ميعاد.

\*

دخل التاكسي إلى مرأب فيلا خلود، قرب مدخل البيت وقفت سيارتها والى جانبها سيارة جيب شيروكي بيضاء فخمة. خمنت أنّ في البيت ضيوفاً، تريدني ربه أن ألتقيهم، لكن، حين دخولي بدا البيت خالياً، في صالة المعيشة جلست خلود وهي ترتدي شورتاً أبيض اللون، وفوقه تي شيرت قصير من نسيج مشبكّ أسود يكشف من الجسد القمحي العاري أكثر مما يخفي. من أذنيها تتدلى حلقتان ذهبيتان عملاقتان، وبين نهديها المشرعين مثل قبتي معبد هندي، تسيل سلسلة من البلاطين في نهايتها فانار بحري صغير تعلوه فيروزة مشرقة. على طاولة أمامها وضعت كوكتيلاً عملاقاً من عصائر الفواكه والمثلجات، حين دخلت، أشرق وجهها بابتسامة شوق وقالت: حدود الحب عند النساء أبعد منها عند الرجال.

- النساء يبرهنّ على هذا بالشوق، لكن الاشتياق وحده لا يقدم دليلاً!

ليس الاشتياق، بل ما يليه، لكن، دعني أريك المفاجأة أولاً، ولنتحدث بعدها. تعال معي، ونهضت تتهادى في سيرها أمامي مثل مصير غامض يقودني الى أجمل النهايات، خرجت من الفيلا وتبعتها، سارت قليلاً وأخرجت من جيبها مشغلّ سيارة، ضغطت زرّه فانفتحت أبواب سيارة الجيب، سلمتني المشغل وهي تقول: أصعد خلف المقود!

اعتليت السيارة جالساً خلف مقودها، فيما جلست إلى جانبي وهي تضحك وتقول: سر بنا الى أي مكان لنرى ما صارت إليه قصة المدفع الكبير!!

نظرت إليها وقد عادت بي الذاكرة إلى يوم لقائنا الأول حين وعدتني أن تقصّ عليّ قصة المدفع الكبير، ثم كرت الأيام ونسيت هذا الموضوع، قلت لها: متى تحكي لي هذا السر؟

يلزمنا مكان هادئ نأى نحكي فيه القصة، هل تعرف الطريق إلى طابا؟

- لا ، كم المسافة الى هناك؟

240 كيلومترا، هل نذهب الآن؟

- يا حبيبتى، الساعة الآن الثانية ليلا، ولن نصل هناك إلا عند الفجر، تعالي نقضي الليلة هنا، ونخرج صباح الغد.

في العاشرة صباحاً، تحركت بسيارة الجيب الجديدة إلى طابا. قلت لها: أبارك لك هذه السيارة الجميلة يا خوخة!

ضحكت وهي تريح كفها على قبضة يدي التي تمسك ببدال السرعة وقالت: بل هي هدية خوخة لحبيبها الغالي، عسى أن لا ينسى قصة المدفع الكبير!! ثم فتحت حقيبة النظارات في سقف السيارة وقالت: وهذه أوراقها الرسمية، وهذا عقد ينص على بيعي السيارة لك، كل ما عليك أن تذهب الى إدارة المرور وتسجلها باسمك، ولتكن بداية طريق فرحنا وحبنا الذي لن يبرد... يمكننا أن نذهب بها إلى آخر العالم، إنها مضمونة لمدة خمسة أعوام بضمانة استبدالها بأخرى في حال حصول عطل فيها. أوقفت السيارة، ونظرت إليها متسائلاً: لمّ كل هذا يا حبيبتى؟ هذا يجرني جداً، لا أعرف كيف أرد مثل هذه الهدية، كنت على الأقل سألتني قبل أن تفعل ذلك!

اقتربت مني وهي تدفع بفمها نحوي وتقول: إياك أن تفكر في ردها، مقابل هذه السيارة أريد منك ان تسافر بي إلى آخر العالم، أريد أن أنسى كل شيء إلا أنت حين تكون معي، هذا يكفيني حتى آخر العمر.

أخذت فمها بين شفتي فإذا رضابها العسلي يقطر محبة في فمي تشرقني شهوة وشوقاً، قبلتها طويلاً، بحب وشوق وامتنان، ثم فارقت فمها لأشعر في رحلة الحب، شهر عسل دون تفاصيل ودون قيود ودون توقعات.

أمسكت خلود بدليل سيناء السياحي وقرأت: تقع طابا شمال شرم الشيخ مرورا بسانت كاترين، وتواجه ميناء العقبة الأردني، هي منتجع رائع يضم شعابا مرجانية واسماكاً نادرة ضمن محمية طبيعية مساحتها 3590 كم مربع تتوزع في كهوف وممرات جبلية وتكوينات جيولوجية ومجموعة من الوديان مثل وادي وتير والزجة والصوانة نخيل... قاطعتها قائلاً: هل ستكونين دليلي السياحي إلى طابا؟ أفضل أن أكتشف تفاصيل هذه الأرض بنفسي كما اكتشفت جغرافية جسدك بنفسي. وتلمّست بظهر يدي برفق ذكري حذر زندها الأيسر.

واصلت دون أن تلتفت لقولي لكنها تبتم للمستي: ليس هذا فقط، فالمحمية تضم ثروة حيوانية ونباتية لا تضاهاى، فهي تجمع بين النباتات النادرة والحيوانات المهددة بالانقراض، حيث يوجد بها حوالي 25 نوعاً من الثدييات وحوالي 50 نوعاً من الطيور النادرة المقيمة إضافة إلي 24 نوعاً من الزواحف، أما بالنسبة للنباتات فيوجد بالمحمية حوالي 480 نوعاً من الأنواع الفريدة النوع. قاطعتها مرة

أخرى: إذا بقيت تقرأين أخشى أن يتعرض حبنا أيضا إلى الانقراض، كما كان حال الثدييات القديمة!!

نظرت الي ضاحكة: أنا اتفّفك أيها المتخلف، أنت لا تعرف غير حانات وفنادق بيروت، ولست سوى غريب في هذه الأنحاء، أنا دليلك شئت هذا أم أبيت!!  
أنت دليلي الى عالمك الساحر الخارق...يا لعنتي الحلوة! وأوسدت فخذها تحت يدي ملتصبا دفناً لا يخاف من حر الصيف ولا يخشى رقيب في برد السيارة الجميل.

بعد الظهر وصلنا طابا واتجهنا إلى فندق وسط المدينة، أخذنا فيه جناحا على البحر، ونزلنا مباشرة الى صالة الطعام. بعد الغذاء اقترحت خلود أن نبحر في زورق، ذهبت معها إلى مرسى الزوارق وأخذنا زورقاً سريعاً مع سائقه. وضعت في يد السائق عند صعودنا ورقة نقدية كبيرة مكافأة تفتح شهيته، فانشغل عن النظر إلينا حتى نهاية الرحلة. خلود ارتدت بكيني أصفر ساحر وجلست لصقي على سطح الزورق تتأمل البحر الأحمر متكئة على صدري.

كأننا نعيش لحظات سينمائية فوق هذا الزورق، كلانا بلباس السباحة، تحت شمس سيناء، فوق قارب سريع، ولا ينتظرنا شيء سوى سرير متلفه لعناقنا في ثنايا فراشه المترف المعطر. علينا أن نودع هذا العالم الجميل وهذه الشمس الحارقة لنذوب ببعضنا في مشهد كان أقدم ابطاله أول الانبياء وأنثاه التي خرجت به من جنة الفردوس الى جحيم الأرض، هناك من يقول إنّ آدم وحواء نزلا بدءا على جبل ألوهيم في طرف سيناء، علينا أن نبحث عن هذا الجبل، لربما أخرجني جسديك الجهنمي من هذا الفردوس ليجعل مني نبياً تتبعه أجمل امرأة على وجه الأرض، خلود الدافئة الحبيبة! وتوغلتُ متسائلاً لماذا يعيش الحب في المنحنيات؟

بعد أن مرت عاصفتنا في جوف الزورق، تحسست أذنها، فاقتقدت قرطاً نجماً ذهبياً صغيراً سقط في حمى العناق. وانحنينا على الأرض نبحث عن قرطٍ ذهبي...كانت منزعة وهي تقول "هذا هدية نبيل، لا أريد أن أفقده"! يذهلني إخلاصها العاطفي لمن أحببت وقد كانت قبل ثلاث دقائق تذوب في رجل آخر، خلود لا تشبه غيرها.

اسمع لغطاً لا أكاد أميزه، ثم تتضح الأصوات، رجلاً يتحدثان وفي خلفيتهما أنين وتنهدات امرأة، الرجلان يتكلمان بالمصرية الدارجة.

همه دول اللي جابوا علينا كل البلاوي، المصراوية ديت، ومعها العرباوي اللي ما يختشيش على دمو، صحيح اللي آل، اللي اختشوا ماتوا..

أيهي، لهو الست اللي معاه ديت مش مراتو؟

مراتو منين، دا الواد وليد سواق اللنش، حكالي عجائب وفضايح، يا فرحتي بينات بلدنا...

الفلوس يا خويا، الفلوس أصل كل البلاوي اللي تتحدف علينا؟

لا فلوس ولا حاجة، دول عالم يملكوا مال الدنيا، بس همه ما يخافوش ربنا، مش بيحسبوا حساب الشهور الحرام، نحن في شعبان، الناس هنا تصوم وتعبد وتستغفر، وشوف أولاد الحرام بيعملوا أيه... ربنا كريم، يمهل ولا يهمل، شوف اللي حصل للراجل، ممدود على السرير لا حس ولا نفس، زي الميت، لو مات حيقول لربنا أيه؟

ثم تنهدت المرأة وهي تئن وتقول بلهفة: هل هي ضربة شمس يا دكتور؟

قد تكون كذلك، ولكن لازم نشوف نتايج التحاليل، ومنتظر نتيجة العلاج الاولي.

يعني في خطر من شي أكبر يا دكتور؟

ضربة الشمس بحد ذاتها خطر كبير، لكن في احتمال أن تكون ضربة تايفوئيد، ودي في العمر ده صعبة شوية.

ثم غابت الأصوات، وحل محلها صوت الموج وتسللت لأنفي رائحة أعشاب البحر حين يلفظها الموج على رمال الشيطان. لا أدري في أي زمن أعيش وكل الصور تتداخل في ذاكرتي، أحدهم صعد إلى سريري وقدم لي نفسه باسم:

العقيد حواس درويش، من الفوج الأول قوات انضباط العاصمة.

ربما كنت آنذاك جائعاً ومحتاجاً الى لفافة تبغ لا أملك ثمنها في معتقل يضج بتفاصيل الخوف والموت والحروب، هكذا قال لي ماهر وهو يختم القرآن بطريقته العجيبة للمرة السابعة. صوت إطلاق نار وأوامر تصدر بلغة غريبة قريبة للعربية. قد أكون في سجن في إسرائيل أو في رام الله أو في الضفة أو في تركيا أو إيران، لا هذا لا يمكن، قد يكون الجنود حولي إسرائيليين أو تركا أو إيرانيين...

نعم أنا العقيد حواس حنفيش، أريد أن أسجل في أذنك اعترافاً يشدك الى حقيقة تتغافلها، أنت في قبضتهم، نحن هنا في قبضتهم، وهناك من يسعى لتحريرنا بنقل أخبارنا للرئيس القائد، لقد نجح أحد رجال الحماية الأبطال في تخطي السور وقد وصل إلى عناصر قيادية مهمة سوف تتولى ملفنا، عليك أن لا تتسرع في قراراتك، فالرئيس معنا في كل مكان وظله يحمينا، وسوف ينقذنا من هذا المأزق، نحن رجال المهمات الصعبة، وأنت ابن هذه المهمات.

رن جرس هاتفي الجوال: على الطرف الآخر جاء صوت يتلکم العربية بلكنة شخص أجنبي عنها، سألني: عندي لك أخبار حديثة، هل تحب أن تسمع قصة مقتل المبحوح؟

المبحوح؟ قبل عام؟ ما هذه السرعة في كشف الأسرار؟

لم تعد تهم الأسرار، وأنت شخص يمكن الاعتماد عليك، انتظر لأجيب على الهاتف الثاني!

قلت لك إن اسمي حواس الحنفيش، ألم تسمع بهذا الاسم؟ لقد كانت الجدران تهتز حين يتردد، لكن الزمان كبي بنا، ولكل فارس كبوة، اسمع:

بُلنشو!! صوت أمر بلغة ليست عربية قلع حواس من سريري وذهب به إلى السجن الانفرادي. حين رأيته مرة أخرى كان ناحفاً وقد فقد أكثر من 20 كيلوغراما من وزنه وقال لي: ألم تعرفني، أنا حواس حنفيش مقيم في سوريا منذ أعوام وقد طردني أولادي من بيتي ولكن الأحداث الأخيرة...

هل أنت شبيح أم مجاهد؟ وهل سمعت ما قاله الرجل عن المبحوح، هل تعرف المبحوح؟ بما كان قد تدرب معك في نفس دورة المهمات الخاصة بالقيادة... لقد تحدثت سهى عرفات عن ذلك إلى جريدة الشرق الأوسط، هي لم تذكرك بالاسم، لكنها تبحث عن رجل مثلك لتلقي عليه تهمة قتل زوجها...

مش ممكن يخرج من المستشفى في الظروف ديت ياهانم..

يعني ما أقدرش آخذو عل البيت يرتاح؟

الحقيقة هو يحتاج إلى عناية مركزة، وما حدش يعرف إمتى تنتكس حالتو..الأفضل يبقى هنا...

ممكن أكلم الاستاذ؟ أنا منتظرة أعمل معاه حوار من الصبح؟

آسف يا ست، وضعو الصحي ما بيسمحش.

إنهم يلقون بعناصر فتح من سقوف المباني لينفذوا بهم حكم الشرع الخاص بقصاص المثليين، وقد رأيت ذلك في فلم على النت، والآن حدثني عن تاريخ الحرب... من أين نبدأ؟

قلت لك يجب ألا تشتهيبي، هذا يتعارض مع حدود وظيفتك، أنت جليس ولست عشيقاً.

حاولت أن أقنع أحمد الجلي بمغادرة صلاح الدين قبل هجوم قوات صدام حسين على المصيف، لكنه قال إنه لا يخاف صداماً، وحين بدأ الهجوم مرّ عليّ بسيارته وعرض ايصالي إلى خارج العراق..

كانت الستارة مفتوحة، ولحظت أن الشمس تميل إلى الغروب، نظرت إلى ساعة فوق الباب أمام فراشي وعرفت أنّ الوقت هو التاسعة مساء... في التلفزيون كانت تلاوة قرآن، وتساءلت أين أنا، ولماذا يقرأون القرآن في التلفزيون في هذا الوقت؟

نظرت حولي فوجدت جرساً يتدلى إلى جانب سريري، قرعت الجرس وبقيت أهدق في شاشة التلفزيون، هذه أول مرة أرى الغرفة بوضوح، أنا حتماً في مستشفى، لكني لا أتذكر أكثر من ذلك.

دخل ممرض يافع العمر بلباس أخضر أنيق وقال وهو يبتسم: أنا اسمي سعيد، أهلاً وسهلاً بك في مستشفى شرم الشيخ الدولي.

منذ متى أنا هنا ولماذا؟

أنت هنا منذ 3 أسابيع، والسبب إصابتك بضربة شمس حادة أفقدتك الوعي كل هذا المدة، نحن نأمل الآن أن تعود إليك ذاكرتك تدريجياً، فأرجو أن لا تقلق من غيابها المؤقت.

من يزرنني هنا؟

تزورك كل يوم تقريباً سيدة أعتقد أن أسمها خلود وقد كانت عندك اليوم حتى الساعة السابعة مساءً. هل تريد أن تكلمها بالهاتف؟

غرقت في أفكاري محاولاً أن أتذكر من هي خلود، ولماذا وكيف تزورني في هذا المكان، بل ماذا أفعل هنا أصلاً؟ سأكلمها لاحقاً.

ضحك سعيد وهو يقول: لا تقلق لأنك لا تتذكرها، سأعد لك فنجان قهوة يعيد إليك جزءاً حلواً من الذاكرة.

خرج فبقيت أتأمل في مصيبة لا أعرف كيف بدأت وكيف ستنتهي. ونسيت أسأله عن القرآن في التلفزيون، القرآن عادة مع وقت صلاة المغرب ولمدة قصيرة، ماذا يعني هذا؟

عاد بعد قليل وفي يده فنجان قهوة كبير وكأس ماء بارد، فبادرته بالسؤال، لماذا القرآن في التلفزيون؟

ابتسم وقال : لأننا في منتصف رمضان ونحن قرييون من وقت الإفطار، لقد دخلت عندنا في نهاية شهر شعبان، وتذكرت فجأة ما قاله أحد المصريين "لا فلوس ولا حاجة، دول عالم يملكوا مال الدنيا، بس هم مش بيخافوا ربنا، مش بيحسبوا حساب الشهور الحرام، نحن في شعبان، الناس هنا تصوم وتعبد وتستغفر، وشوف أولاد الحرام بيعملوا أيه... ربنا كريم، يمهل ولا يهمل، شوف اللي حصل للراجل، ممدود على سريره لا حس ولا نفس، زي الميت، لو مات حيقول لربنا أيه؟"

إذا كان الرجل يصفني، وتذكرت فجأة ما قاله الرجل الآخر، ثم تذكرت الصوت النسائي، انها خلود إذا، و ما قاله أحد المصريين حين وصف وضعنا في تيراس اللنش عاد بجزء من ذكريات ساخنة مع جسد حنطي اللون بيكيني أصفر في ممر الزورق يمنحني نفسه بسخاء، إنها خلود الرائعة وقد بدأت رحلتي معها من بيتها في شرم الشيخ...



ابتسم سعيد وقال: اشرب القهوة وستعود لك أشياء جميلة كثيرة، في حياتك أشياء جميلة كثيرة كنت تهذي بها، ليتني عشت وأعيش ربع ما عشته، كنز من ذكريات لا تفنى، عليك أن تتذكر كل شيء، ففي هذا وحده فوز كبير.

انحيت أرشف القهوة المرة، فالتقطني مذاقها العميق وسافر بي إلى دفء حبيبٍ يعبق برائحة جميلة تسيح في عقل الإنسان، ثم تحيله إلى عوالم طلعت منها حبوب فستق القهوة لتُطحن وتُقلَى وتُعد لتصلني في هذا الفنجان بهذه الأرض العتيقة، أرض الفراعنة.

\*

أصرخ بكل قوتي فلا يسمع صوتي أحد، أطل برأسي من نافذة السيارة وأنادي طالباً النجدة فلا يطلع صوتي من حنجرتي، ينتابني إحباط يجبرني على البكاء والصريخ، فأبكي حزناً لأصحو بغم جفّ عطشاً وشوقاً إلى الماء. أتجرع بضع شربات لأعود الى نوم تحفّه الكوابيس.

حين أفيق أحاول أن أرتب أحلامي، أيها كان حقيقة، وأيها خيال ووهم، أحاول أن أستعيد أجزاء الذاكرة الهرمة التي ذهبت بها شمس سيناء.

لم تكن العودة إلى عالم أحياء اليوم سهلة، بقيت لمدة طويلة أخلق بين الحلم وبين اليقظة، بين اليوم وبين الأمس. تأخذني تفاصيل يومية لوقائع قريبة لتختلط بكوابيس وذكريات مرة، وظل التمييز بين الحقائق وبين أشباهها يربكني وينبئني بعجزني عن العودة إلى عالم العقلاء، فبقي هذا الهاجس عائناً أمام عودتي الى عملي، إذا كيف سأصغي الى أسرار يبوح بها لي أناس وثقوا في قدرتي؟ سأفشل لا شك في حفظها بل سوف تلتفت على هذه الأسرار أو هام من سحب ذاكرتي وتمطرها شكوكاً وهواجس فيختلط كل شيء.

بعد شهرين من مغادرتي المشفى، قررت زيارة بيتي في بيروت. وأخذت طائرة إلى عروس مدائن العالم بيروت.

ليلتي الثانية في مدينة الحب والحروب، أجلس في مقهى جرجيس على البحر في جونييه، مكان حائر بين صفة مقهى وبين صفة حانة، وهو في النتيجة خلاصة لكليهما، لكن بعض بائعات الهوى المقيمات فيه بشكل شبه دائم زدن عليه صفة علبة ليل، فتناثرن على الموائد وعلى البار بانتظار زبائن نصفهم سيأتي من الخليج لينفق عليهنّ ما يكفيهن لبضع ليال. في بيروت كل شيء غالٍ إلا الإنسان.

انتبذت طاولة تعانق رصيف المقهى العائم كما اعتدت أن أجلس وبقيت أتلذذ بمشاريبهم الحارة والباردة متأملاً في مسيرة ذكرياتي التي بدأت تقلقني. بعد نحو ساعتين، لفتت نظري سيدة تجلس الى البار وتدخن كأسها وهي تحاور النادل. هي الوحيدة تحتضنها بقوة لا فكاك فيها، فتبحث عن أي شخص يمكن أن تثبت إليه ما عندها. هي تريد جليساً، فلاأكن جليستها، أليست هذه وظيفتي؟ أريد أن اختبر نفسي، هل عدتُ صالحاً للعمل؟

نهضت عن طاولتي، واتخذت مقعداً قريباً عندها، وطلبت كأساً من نبيذ أسباني، انتبه النادل إلى غايتي، فانصرف إلى عمله مبتعداً عن مواجهة السيدة. تأملتُها وهي تدخن كؤوسها بشراهة، تبدو متأققة وهي فوق الخمسين، بالغة الأناقة ودقيقة في متابعة خطوط الموضة، قصيرة القامة وفي وجهها آثار ملامح من آسيا، ربما سَرَبت إليها من كازاخستان أو تركمانستان أو قرغيزستان.

انتبهت السيدة المتوحدة إلى أنّ النادل قد غادرها لعمله، فلم يبق بالقرب منها إلاي، نظرت الي هنيهة، فبقيت أهدق في وجهها مبتسما ثم بادرتها القول: يمكن للمرء أحيانا أن يجد من يصغي له، فإذا رغبتِ، يسعدني أن أصغي اليك، أنا الليلة وحدي.

بين صحو لا تريده ونشوة تخاف منها قالت: أيها السيد المحترم، أنا بصراحة لست مومسا، ولا أريد رجلا يشاركني الفراش في ليلتي هذه، فإن اتفقت معي على ذلك يمكن أن نبدأ كصديقين، والا فوداعا منذ هذه اللحظة.

صدمتني صراحتها المشوبة بعفوية طفولة مهذبة كبرت عليها في كنف أسرة من الطبقة الوسطى، فقلت : أتفق معك يا سيدتي، وأنا بدوري لست طالب لذة، بل أن عندي نوع من وظيفة تتلخص في الإصغاء للناس، يسميها البعض جليسا، فهلا حاورت هذا الجليس؟

همست من بين الدخان: أنت تتحدث مثله، هو الذي بنى وخرّب كل عالمي، وكل ما عندي. لنبدأ من أبي ، كان قاضياً أنفق عمره في المحاكم، أما أمي فكانت معلمة ، كلاهما رحل عن عالمنا إلى عالم قد يكون أكثر وفاء ، إذ لا نعلم في الموتى غدراً يحاكي غدر الأحياء، ولي من الأخوة واحد ومن الأخوات واحدة، هما كل ما بقي لي في هذا العالم الجاحد. وتوقفت عن الكلام هنيهة لترى مدى استجابتي لما قالته، ثم جرعت كاسها حتى الثمالة وطلبت من النادل أن يملأه من جديد. قلت مستطرداً لأجدد رغبتها في الحديث:

بوسعي أن أرى أثر ما قلته في حسن تربيتك، وفي تهذيب ما كان لك أن تنالیه لولا جهد أسرة كريمة أهدت العالم خير ذرية. وسكتُ عن الكلام لأفسح لها أن تمضي في قصتها.

أنا لست لبنانية كما تلاحظ حتما من لهجتي، وقد جنّت الى هنا في دورة تدريب مدتها شهرين ترتبط بعلمي، مضى شهر فهاج بي الشوق إلى أخي وأختي وإلى من أحبهم، فجنّت إلى حافة البحر أشكو وحدثي. الأمر في قصتي يا سيدي أن بلدي العراق هو بلد الحزن، هو مصنع الحزن، ومعدن إقامته الدائم، وفي حياتي مذ وعيت كيف هو شكل العالم لم أعرف سوى حزن العراق، ولعل هذا هو سبب فشلنا. تنهدت وهي توقد لفافة تبغ أخرى، تأخذ منها نفساً عنيماً وتنفث الدخان مشوباً ببعض سعال خفيف، تقول بعده: في بلدي تعلمت النسوة أن يرحل عنهنّ رجالهنّ لأسباب خارجة عن إرادة الجميع، فالحروب تقوم وتنطفي دون أسباب، ودون نهاية، وقصة السلام إنما هي حلم من نسيج التمني لا يقوى أيُّ أحد على إهدائه.. هل يهدي أحدٌ لنا السلام؟

سكنت تنتظر جوابي.

قلت بهدوء أردت به أن أخفف حزنها: السلام كالحرية، لا يُهدى، بل يُؤخذ بالقوة، وهو النتيجة المنطقية المقبولة الوحيدة للحرب، ولن يأتي إلا بعد حرب، وفي العراق لم تنته الحرب بعد، ويبدو أنها لا تريد أن تنتهي، فالقصة صار عمرها قرون.

أنت، من أنت؟ انت تتحدث مثل من أخذ عني كل سلام هذا الكون، انتظرتة ثلاثة عشر عاماً، حتى عاد، ولكنه عاد وليته لم يعد، لكنك بقيت أحلم بعودته على الأقل وأقول إنّ ظروفاً قاهرة خارجة عن إرادته منعه أن يعود، أو لقلت إنه مات ولم يعثر عليه أحد لسبب تلاحق الحروب.

هو عاد وأصابني بجرح لن يندمل حتى أموت. كنت في أعوام الحصار الصعبة أنتصور جوعاً وأنا أنظف رز البطاقة التموينية، وأنظر في نهاية العام إلى كوم الحجارة الذي استخرجته من رز الحصة التموينية والذي تراكم خلف منزلي الصغير الغافي قرب غابة خريف أهملها المطر فأصحرت لتصبح حزاماً من خشب يابس تكسّره عواصف الرمال اليومية. ولكني كنت فرحة لأنني اعتدت القول إنه سيعود، وسيعود لي وحدي، ليعيد إلى حياتي الفرح، عاد واسمه، حتى اسمه قد تغير، صار ممنوعاً عليّ أن أناديه باسمه.

شهقت بقوة ونظرت الى نفسها وحركت يديها حول خصرها ونزلت بهما حول ساقيها وقالت: الجميع يقولون أنت جميلة، حتى اليوم أسمع غزلاً من كثير من

الرجال، لكن غزله معي كان شيئاً آخر، شيء تعلم منه الشعراء أن يكتبوا قصائد الحب.. قصائد الحب التي يكتبونها أبرد من قصيدة حبنا الكبرى. لكن هذا بقي ناقصاً، بقي يعوزه دليل، كل رجل يبحث عن امتداد تخلقه له المرأة التي يحب، وأنا، أنا، أنا عجزت عن ذلك، عجزتُ أن أصنع له امتداداً طبيعياً. المؤلم أنّ هذا يسري في عائلتي بشكل موروث، فقد عاشت أختي الحبيبة نفس المأزق مع زوجها الذي غادر بيتها خلصة ليتزوج سراً بأخرى طامعاً بامتداد طبيعي. وتحقق له الامتداد لكنه لم يستطع صبراً مع أم أولاده، فطلقها وعاد الى أختي بطفلين ليعيشا معهما ويتعلما أن يناديا أختي بأحلى كلمة حُرمت منها: أمي.

أما أنا، فحتى اليوم لم يقل لي أحد يا أمي! وبقيتُ مبعدة عن عالم تتكامل فيه الأنثى، وبقيتُ أشواق لهذا الحلم الذي تبدد في غبار الحروب. ماذا تقول في كل ذلك يا سيدي؟ هل أخطأت بحق من أحب لأنني عجزت عن أن أصنع له أسرة تلمّه، أم أنه غادر خائن، وقد واثته فرصة الخيانة بفراق إجباري نأى فيه عني ثلاثة عشر عاماً، فصرنا نعيش في حدين متضادين وما عاد يجمعنا وطن بددته الطائفية والتمزق العنصري؟

أينما سيقف في قفص الاتهام كما كان يقول أبي الحبيب؟ وأعرضت عني تكفكف فيض دمع تراحم ببعضه فغادر العينين الجميلتين الصغيرتين ليضفي على الوجه المستدير حمرة قد تدعى شفق الأحزان.

\*

في رحلتي بين الحلم وبين اليقظة طالما حدثني سعيد عن منازل جديدة للأيمان في شمال سيناء، حيث لا تصل عيون الحكومة ولا فضول ورغبة السائحين. الفقر هناك سيد الموقف والبدو سكان المنطقة يتقاسمون هموم هذا الفقر مع البدو في الجانب الآخر من الحدود - في غزة.

أمس ظهراً اتصل بي سعيد وسألني إن كنت أملك وقتاً لمقابلة الشيخ الهرتاوي، احد دعاة السلفية الناشطين في محافظة شمال سيناء المقابلة لقطاع غزة، وهو يريد مقابلي لأمر شخصي هام. ترددت أولاً، وسألته أي نوع من الرجال هو. فأكد لي أنه شيخ كبير يجله الجميع وقيمون له شأنًا بينهم. قبلت الدعوة بعد تردد، طمعا في أن اسمع قصة لا تشبه أي قصة أخرى، وحددت لها موعداً عصر الخميس المقبل لأتمكن من الوصول إلى مدينة العريش عاصمة المحافظة.

طرت الإثنين من بيروت إلى شرم الشيخ، قضيت عند خلود ليلتين، وصبيحة الأربعاء توجهت بسيارتي إلى مدينة العريش عاصمة شمال سيناء. المسافة تزيد عن 500 كيلومتر. وصلت المدينة في الواحدة ظهراً، نزلت في فندق سما العريش الحديث. الفندق تأثر هو الآخر بفورة الربيع السلفي، فمنعت الكحوليات فيه، وصار يدقق في جوازات سفر الوافدين.

موظف الاستقبال الذي حلق شاربه مكتفياً بلحية كثة على طريقة السلفيين، ظل يحدق في جواز سفري ثم سألني: هل أنت في زيارة عمل يا أستاذ؟

هل أنت شرطي؟

لا، عفواً، الشرطة لا وجود لها هنا، نحن نحمي أنفسنا بأنفسنا، بنادق البدو وتقاليد الإسلام هي التي تحافظ على إرث العريش وغزة، نحن شعب واحد قسمه الصهاينة. مرة أخرى أسألك: هل أنت في رحلة عمل؟

أنا هنا لمقابلة الشيخ الهرتاوي بناء على طلبه.

مقابلة صحفية؟

نعم!

ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة شك، وقال لي: هذا مفتاح الجناح السادس أرضي في مجمع نفرتيتي، سيحمل الإخوان متاعك إلى الجناح، دع مفتاح السيارة عندنا لنضعها في المرأب.

قضيت فترة الظهيرة في قيلولة، أعقبها بحمام بارد، ثم نزلت إلى الصالة فشربت قهوة عربية مرّة، وعدت في تمام الخامسة حسب اتفاقنا لأسأل موظف الاستقبال عن الشيخ الهرتاوي . طلب بهاتفه رقماً وقال لي بعد لحظة، سيأتي بعد دقائق دليل ليصحبك إلى من تبغي، هل لك في فنجان شاي حتى ذلك الحين؟

بعد 10 دقائق اقترب مني موظف الاستقبال وقال: تفضل يا أستاذ، هو في انتظارك.

انطلقت والشباب الاسمر في رحلة البحث عن الشيخ الهرتاوي. بعد نصف ساعة من التجوال في طرق صحراوية تمر بواحات وقرى بائسة، وصلنا مسجداً انتبذ تلة صغيرة قرب قرية مهملة. أوقفت السيارة أسفل التلة، وصعدنا معاً طريقاً متعرجاً قصيراً إلى المسجد. دلفنا إلى المكان فالتقنا برد فناء المسجد لنغادر لفحة الصحراء. المسجد لا كهرباء فيه ولا مياه صالحة للشرب، بل تصله المياه بالصهاريج، وفيه بئر مياه عسرة يستخدمه المصلون للوضوء، ويجري تنظيف المسجد به.

في باحة مكشوفة صغيرة خلف المسجد، التقيت الشيخ الهرتاوي. كان يرتدي جلباباً قصيراً بلون أقرب للصفرة، ويرتدي تحته سروالاً أفغانياً، ويضع على رأسه كوفية بيضاء تدلت حافاتها حول وجهه الممتلئ لتضع إطاراً للحية سوداء كثة خطها بعض الشيب تدلت فوصلت الى مقابل حنجرته.

نهض إليّ بوجه غادرته الابتسامة منذ زمن، كما هو حال كل السلفيين، وقال: كنت أخشى أن لا تأتي، لأنّ من يملكون مثل وظيفتك يأفنون عن الحديث إلى من هم على شاكلتي، والله أعلم!

أدركت لعبته الاستفزازية، فرددت بهدوء: بل أن وظيفتي يا سماحة الشيخ تجبرني على الاستماع لكل من يجد عنده شيئاً يقوله.

شدّ على يدي بقوة وهو يصافحني ليعرف أيّ نوع من الرجال أنا، كما هي عادة البدو والفلاحين. ثم قادني إلى فرش صغير مُدّ على الأرض وعليه متكأن. جلسنا على الفرش، فقال: قبل عام، ما كان أحد في هذه الأنحاء يتوقع أن يلتقي بمن هو مثلك، وها أنت اليوم تجلس معي في باحة مسجد الزبير بن العوام لأحدثك بأشياء لو قلتها قبل بضعة أشهر لقادنتني إلى السجن أو ربما إلى حبل المشنقة! سبحان مغير الأحوال من حال إلى حال.

نبدأ باسم الله الرحمن الرحيم ونسلم على نبيه الأمين وعلى المجاهدين من أصحابه الميامين. إسمي الشيخ عبد الاعلى عبد السميع الهرتاوي ، أصلي من السويس، وقد تربيت على يد الشيخ مؤنس العريشي، والشيخ يزيد الزرقاوي، الذي بقي معي من سن الثالثة عشرة حتى بلغت العشرين، وحفظني أجزاء من القرآن، ثم أكرمه الله بالشهادة في أحد ميادين الجهاد، فبقيت أتابع طريق ذات الشوكة وحدي، يعينني بعض الشيوخ الأفاضل هنا وهناك بين فينة وأخرى.

بعد هنية صمت ظل يتأملني فيها قال الشيخ الهرتاوي: في تشريعات الإسلام حلول لكل مشكلات الانسان، وأهمها مشكلات الجنس والإنجاب، وإذا كان الباري تعالى قد ابتلى البعض بالعقم والعقر، فإنه قد ترك الباب مشرعاً لحلول يضعها أهل الرأي لهذه المشكلات.

ومن الطبيعي أن يمر حل مشكلة الانجاب من خلال الجنس، الذي يمثل جسر عبور متنقلاً ودائماً لتحقيق الهدف المنشود، وهذا ما يميز الإسلام عن غيره كالعلمانية التي تجعل الجنس هدفاً منشوداً على حساب أمور أشرف يعطي الإسلام من قدرها وهي التكوين الأسري، وبناء صلات القربى، وتكثير سواد المسلمين والأصل في الزواج أن يكون طريقه واضحة سهلة المنال، لكن التعقيدات الاجتماعية أكثرت فيه من الحفر والمطبات، وجعلته كالمطلب العسير. وقد اتخذ الزواج الشرعي عدة أشكال تمثلت في الارتباط الأحادي، والتعددي الظاهر والمستور، وزواج المتعة ، ثم المسيار. وزواج المسيار مشتق من السير أي المرور في أوقات معينة، كأن الزوج يسافر ويمر ليتفقد أهله ويذهب. وبحسب فتاوى الفقهاء والمفتين فإنه زواج شرعي مكتمل الشروط، تتخلى فيه الزوجة المسيارية عن بعض حقوقها كالنفقة والإقامة الدائمة للزوج، وهذا حق لها تفعله بإرادتها.



والمسيار بهذه الصفة يختلف عن زواج المتعة، فهو ليس زواجاً لأجل محدود، وليس بقصد التمتع الجنسي وحسب.. بل هو زواج ثقل فيه فاعلية الزوج، مع توزع الإيجابيات والسلبيات على الطرفين. ثم أمسك الشيخ عن الكلام بضع لحظات وقال بعدها: أريد أن تذهب معي الى بيتي لنتم حديثنا، هل تمانع أن تكون في ضيافتي هذه الليلة؟

ترددت لحظة، ثم دفعني هاجس داخلي غريب لقبول طلبه مستقراً أن تسفر الزيارة والحوار عن أكثر من لقاء عابر، فقلت: كما تريد يا سماحة الشيخ، لنكمل لقاءنا في بيتك الكريم.

سافرنا بسيارتي إلى بيته، المسافة من المسجد إلى البيت نحو 10 دقائق. دخلنا بعدها إلى باحة بيت كبيرة لا زرع فيها، لنصل إلى بوابة عالية مغلقة. ترحلنا، ثم قرع الشيخ الباب وقال: يا أهل الدار، معنا ضيف، افسحوا لنا في غرفة الضيوف. جلسنا في غرفة فسيحة غطى السجاد أرضيتها، فيما أحاطت بكل جدرانها مفارش سميكة، وغطيت حافات الجدران بوسائد طويلة غليظة. تربعنا على الأرض، فقرع الباب، وجيء بخوان كبير فيه رطب، وقارورة لبن كبيرة، وأنواع من الفاكهة، وخبز قد خرج توا من التنور. قال الشيخ وقد علت وجهه شبه ابتسامة: يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل، وستكون اليوم فعلاً رب المنزل، مد يدك يا رجل!

بعد لقيمات كثيرة ومزيد من اللبن، اتكأ الشيخ ببطن منتفخة وحمد الله على نعمه، وعاد للحديث.

هل تعلم أن الشيخ عبد الحق الزمكاني قد أباح واقعة الرجال لبعضهم البعض، الدين يا صديقي كما يفهمه الناس. الزمكاني حلل ذلك مستنداً على آية من الذكر المبين في سورة الطور:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ" و بما أننا نؤمن بظاهر النص وتأويله، فإنّ هذا الظاهر يقول إنّ غلماناً بمعنى فتیان لم يبلغوا شدة الرجال يطوفون عليهم - والحظ كلمة "يطوف" بدلالاتها الحسية في هذا السياق - وهم كما تعلم أمنية من يبحثون عن الجماع الذكري، فهم ناعمون كالصبايا ولكنهم ذكور تنتأ قضبانهم عند اللقاء بهم وعلى المضاجع أن يداعب

الغلمان كما يشتهون ليصلوا به الى النشوة. وقال إن الغلمان "لهم" بمعنى أنهم يملكون بحق اليمين هؤلاء الغلمان كما يملكون نساءهم، فماذا يفعلون بهم إن لم يضاجعونهم؟! ووصفهم باللؤلؤ المكنون هو من قبيل التذليل على جمال خلقهم وبياض بشرتهم ورقة اخلاقهم، فهم أشبه بالنساء وليسوا بنساء، وهنا على المرء أن يسأل، اذا كان العلي القدير قد وعد أهل الجنة بحور عين يمتعونهم مدى الحياة الابدية، فلماذا الولدان المخلدون إذا؟

مع نفسي راودني خاطر أن الشيخ يقدم الكلام ليبرر الواقعة المثلية، هل نصل الى مرحلة سيطلب فيها مني مواقعه؟ كلامه المسترسل بوصف الغلمان المخلدين يوحي بذلك، ولا أدري إن كان شعوري صائباً.

عاد ينظر إلي بعمق وهو يقول " أنا أقرأ البرهانين كما يلي، هناك الحوريات اللاتي سيواقعن الرجال من أهل الجنة، وهناك الولدان الذين عليهم إكمال الدور، فليس كل الرجال يحبون النساء، بل إن هناك ملايين منهم يفضلون الرجال على النساء، كما أن ليس كل النساء ترضى بكل الرجال، بعض النساء يحبين الرجال الذين يشبهون النساء، من هنا فإن الولدان المخلدين سيُشبعون حاجات نساء أهل الجنة ايضاً. إنهم الحل الوسط الذي يرضي الجميع وهم في الحقيقة مفتاح مهم من مفاتيح السعادة الأبدية.

قاطعته معلقاً: في لغة اليوم يسمونهم الجنس الثالث، بين الرجال والنساء.

اتفق مع هذا التوصيف، وقد أباح أمراء المؤمنين سابقاً للغلمان الحضور في بيوت حريمهم لأنهم أشبه بالنساء، بل أنهم قد أخصوهم ليحولوهم إلى جنس ثالث بين النساء وبين الرجال. وفي تقديري أن الإنسان يجب أن يروم الجنة على الأرض، فرب العالمين خلق الأرض على صورة الفردوس، وفيها يجد الإنسان كل لذة إذا توفر على الفطنة والذكاء الكافيين. وفيما بعد ، في حياته الأخرى، سيجد لذة الآخرة.

لكل هذا وأكثر منه ، جنّت بك الى هنا يا صديقي، فأنت كما عرفت من مصادر ثقة، معدن أسرار لا مثيل له، وفي صدرك ترقد أسرار العرب والمسلمين وربما غيرهم، ولا ضير أن يضاف إليها سرّ لا أجرؤ أن أشارك به غيرك. سر يتطلب مشاركتك الفعالة المؤثرة، ولا أريد أن أسألك إخفاء السر، فكلي ثقة أنك فاعل ذلك الى أبد الأبد، لكن لنبدأ حيث نحن، هل تدري أن خلف هذه الستارة الضخمة

يجتمعن ثلاث من حريمي يصغين الى حوارنا، فهل تمنع في ذلك؟ قال ذلك ويده تشير الى ستارة سميكة قرمزية اللون تتدلى على جدار جانبي كبير.

عجبت لكلامه وقلت: ألن يثير كلامنا حرجهن؟ هل لي أن أقول ما أشاء؟ ضحك الشيخ ثانية وقال: قل كل ما عندك كأن لا أحد معنا، وستفهم كل شيء نهاية حوارنا الليلة.

وسار الحديث بيننا الى تفاصيل مختلفة كثيرة جدا ومتشعبة كلها في الجنس والجماع والمواقعة والإنجاب، واحترت مع نفسي الى أين سيأخذنا الحديث بهذه الطريقة. وأقترب الليل من منتصفه ونحن لا نحس بنعاس بسبب دلال القهوة وأباريق الشاي واللحوم المشوية والمقلية وأطباق الفاكهة التي تنهال علينا.

ثم قال الشيخ وعلى محيّا لأول مرة ابتسامة عريضة صادقة: اقتربنا من النقطة المهمة جداً، عليّ أن التقى بحريمي لربع ساعة وأعود لك بحديث شيق جديد أريد رأيك فيه.

بقيت أنتظر وأنا أقلب الكتب المصفوفة على جدران الغرفة بهدوء وأتصفح بعض مكنوناتها. عاد الشيخ باسماء وهو يقول: تفضل بالجلوس يا صديقي فعندي لك شيء مهم. جلست أنصت له فقال:

في غزوة الموصل، غنمنا نحن المسلمون 4 آلاف امرأة من الأيزيديات الكافرات عابدات الشيطان، وقد نالني من تلك الغنيمة 10 جوارٍ واقعتهن بما شرّع الله، النقطة الجوهرية هنا أنّ اثنتان منهن، حملتا وخلفت إحداهن صبيبتً فيما خلفت الأخرى أمة. سكت وأخذ يتطلع إليّ، ثم عاد ليقول، المشكلة الآن، انه بعد أن تغيرت الأحوال وعاد الأيزيدية إلى ديارهم، عادت الجاريتان إلى جبل سنجار، ومعهما أبنائي، وأريد منك ان تساعدني في استعادة أبنائي.

سرت في بدني رعدة غريبة، فهذا الذباح القاتل، يريدني وسيطاً لأجلب له ابناه من سفاح قسري مع السبايا الأيزيدات، وهذا آخر ما توقعته من وظيفتي كجليس، وفي لحظة ترقب، فهمت أنّ راضي لطلب هذا القاتل الوسخ سيكون سبباً لقتلي، وسارعت اتبني لغته القبيحة مبدأ تفهمي لقضيته، واستعدادي لمساعدته، ولكن كيف؟

ردّ على سؤالي مبتسماً كاشفاً عن أسنان وسخة ترسبت بقايا الطعام فيما بينها فأحالتها إلى حدود سوداء تحيط بجذور الأسنان، كأنه ساحل متفحم بقذارات مجاري المياه الآسنة، ثم اجابني بأن المساعدة تكمن في أن أشتري له ابنه وابنته من امهاتهن، لاسيما أن القبائل الأيزيدية ترفض قبول أبناء المجاهدين خاصة ان قرار المجلس الروحاني الإيزيدي الأعلى في العراق قد بيّن علناً وبوضوح أن قبول انضمام أطفال الناجين للطائفة الإيزيدية يعني حصر الأطفال المولودين من أم وأب إيزيديين، وغالبيتهم من منطقة سنجار، بينما استثنى قرار المجلس وقرارات حكماء الأيزيدية الذين يسمونهم "بير" الأطفال الذين يعود نسبهم الأبوي إلى المجاهدين، وهذه فرصتي.

ونظر إلي بعين يقطر منها دم القتلى وقال: كما ترى تواجه الأمهات الإيزيديات خيارين صعبين: الأول التخلّي عن أطفالهن الذين يعتبرون مسلمين إذا رغبين بالعودة إلى المجتمع الإيزيدي، أو الإصرار على الاحتفاظ بهم وبالتالي غالباً ما سيتم رفض عودة الأمهات إلى مناطق سكن الإيزيديين في العراق، من هنا اريد منك الوصول إلى مناطقهم ومفاوضتهم على العودة لي، أو على الأقل ارسال أبنائي لي مقابل مبلغ كبير اضعه في خدمتكم لتوصلوه لهم!؟

أسقط في يدي، فالدور المطلوب مني هو دور نخاس برتبة رفيعة! وكي أنجو بجلدي من بؤرة الأفاعي الوسخة، أبديت استعدادي لمساعدته، عليّ أن افهم آليات التعاون بيننا.

تبسم منشرحاً لتجاوبي معه، ومضى يقول إنه قد هياً 50 ألف دولار سوف يوصلها لي في شمال العراق في حال نجحت في لقاء المرأتان. ثم أعطاني رقم هاتف عراقي، ورقم هاتف سوري، ورقم هاتف بريطاني، وأبلغني أن بوسعي الاتصال عليها جميعاً على تطبيق واتساب الجديد لنؤسس لفعل الخير الذي اسعه له.

غادرتهم عائداً إلى شرم الشيخ، التي وصلته قرب الساعة الواحدة صباحاً مسلحاً بمعلومات عن الشيخ الهرتاوي قد تفيدني في قضية أخرى.

\*

في بيت خلود ضيف مهم، أمام الباب رأيت سيارته الجديدة وفيها سائق ومرافق ينتظرانه. حين دلفت صالة الضيوف، رأيت خلود جالسة إلى رجل وسيم في منتصف الثلاثينات، يرتدي بدلة زرقاء دون ربطة عنق. ولفت نظري أنه يضع على عينيه نظارة طبية دون إطار.

بادرتني بتقديمه: الأستاذ النائب عن القاهرة منير عبد المعطي، من شباب ثورة يناير.

مددت يدي وصافحته وهو ينظر إليّ وفي عينيه أكثر من سؤال عن سبب وجودي في بيت السيدة في هذا الوقت. قلت له: أهلاً وسهلاً بجيل الساسة الجديد في مصر ما بعد الثورة.

بل قل، جيل ساسة الثورة، لأن لا أحد يعرف إلى أين سيأخذ الاخوان المسلمون مصر.

جلسنا، فانطلق يحادث خلود عن زوجها باذلاً وعودا باذخة بمواصلة البحث عنه، وإن لم يكن فبتعويضها.

قالت ملتاعة هاتفية: التعويض مسألة لا تهمني، أنا أريد زوجي، أريد نبيل!!

وكانت صادقة في لوعتها! كيف للمرأة أن تحمل هذا الوفاء لزوجها الغائب، وتستطيع أن تخونه كل ليلة وتلتذ مع الرجل الذي يواقعها كأنها لا تملك زوجاً؟ مشاعر المرأة غريبة.

يا سيدتي، إن عوائل شهداء الثورة تستحق أكبر عناية من لدن الدولة، وقد قدمنا مسودة إلى مجلس الشعب لتعويض ضحايا الثورة لكن حل المجلس حال دون النظر في القضية ومتابعتها.

لكنهم يقولون في الحكومة إن المقدم نبيل فقد أثناء أدائه الواجب، وهذا يجرمه من عنوان شهيد!

إنهم يقولون كل شيء، الأمور بخواتيمها، وسنرى كيف يستقر الوضع لننظر في ملفات كل العسكريين المفقودين.

شعرتُ أنّ الرجل يحاول أن يتقرّب الى خلود، مستغلاً قضية زوجها. فالمسألة من الناحية القانونية تواجه حقيقة ما قالته خلود، المقدم نبيل قد فقد أثناء خدمته في جيش مبارك، وهذا يعني أنّه من فلول النظام السابق في نظر الثوريين الجدد في مصر، وهذا بحد ذاته يلغي كل حقوقه، فماذا يستطيع أن يفعل النائب الموقوف عن العمل ليحيي قضيته؟ لكن، في النهاية، هذه مصر، والأمور لن يغيرها خاتم سحري سيظهر بعد الثورة، نفس الوجوه ونفس الناس ونفس الروتين الإداري سييسّر البلد ليصل بقضاياها الى حيث لا يرغب الشرفاء. وبهذا يمكن أن يُعتبر نبيل من المفقودين في سبيل الثورة ويمكن أن يُمنح حقوقاً مضاعفة إسهاماً بشهداء الثورة، لا سيما وأنّ نواباً في مجلس الشعب يتابعون قضيته لأجل عيون أرملة الرشيقة الجميلة الشهيبة.

تتحدث خلود اليه برقة وميوعة مبدية من طرف خفي استعدادها لعقد صفقة غير معلنة معه. لم تمتلكني مشاعر غيرة من موقفها، فهي في النهاية عشيقته، يمكن أن تبدلني بسهولة بأي عشيق آخر- وهذا يعتمد الى حد كبير على الظروف، ألم نبدأ معا بقصة المدفع الكبير التي انتهت بمشاهد الإباحية المفرطة على سواحل طابا؟ قد تصل مع النائب الشاب الى نتيجة مشابهة، وقد يختاران سواحل لبنان ليعيدا قصة المدفع الكبير وما يمكن أن يفعله.

أنا يا أستاذ في النهاية حريصة على عودة زوجي، ويمكن بعدها التحدث في قضايا الحقوق.

ولكن، يا سيدتي، لا خبر عن المفقود حتى اليوم، وقد حاولت الوصول الى أخبار عنه عن طريق ضباط أعرافهم في مباحث أمن الدولة لكن دون جدوى، الرجل قد اختفى دون أن يترك أثراً، قد يكون مسافراً ولا يريد أن يكشف عن وجهته!

لو كان مسافراً لكان أوصل لي خبراً على الأقل عن مكانه، لكان اتصل بي بعد هذه المدة، يراودني شعور دائم إنه سجين لدى جهة ما، ربما تكون جهة غير رسمية، حزب مثلاً؟

ضحك النائب الشاب وقال: ليس لدى الأحزاب سجون، نحن لسنا في لبنان أو في ليبيا، هنا مصر، والأحزاب لا تجرؤ أن تتماذى الى هذا الحد.

ألا يمكن أن يكون سجيناً لدى حزب غير مصري، أو قد يكون سجيناً في إسرائيل؟

وما مصلحة هؤلاء في اعتقال ضابط مصري؟

لا أعرف، إنَّها مجرد هواجس، يمكن للحكومة أن تتابع الموضوع خيرا مني.

نعم، ولكن حين تقوم الحكومة! ما يجري اليوم في مصر هو محاولة إعادة سلطة الدولة، وبعد أن يتم ذلك ستقوم الحكومة الجديدة لتقود مصر الجديدة، وهذا يحتاج الى بعض الزمن. على العموم، أنا أبع موضوعه شخصيا، وعندني موعد هذا الإِسبوع مع مدير في مؤسسة نصر، أمل من خلال اللقاء به أن أصل إلى رأس خيط قد يقودنا الى مكانه.

نهض الضيف مادا يديه لمضيفته التي نهضت متباطئة وهي ترسم على وجهها ابتسامة يشوبها بعض الحزن وتمد يدها اليه مصافحة مودعة. والتفت النائب الجديد يودعني مصافحا وهو يلبس على وجهه ابتسامة تليق بنواب البرلمان في كل مكان، وعيناه تفضحان سؤالا مفاده: هل تنافسني عليها؟

شايحته خلود الى باب الفيلا، وبقيت أتلهى بقنوات التلفزة الفضائية بانتظار عودتها التي استغرقت بضع دقائق.

حين عادت كسرت حاجز الصمت بزفرة حري أطلقتها بلوعة وهي تقول:

أين أنت أيها الغالي الآن؟ هل عندك ما تأكله، أو ما تشربه؟ قلبي يقول لي أنك حي ترزق، ولكنك قد لا تكون في وضع مريح، متى ترجع الى حبيبتك أيها الغائب الغالي؟

وتلت ذلك بزفرة وهي تضرب بيدها على ساقها ولا تنظر صوبي. كأنها مقدمة لتقول لي شيئا. وبالفعل التفتت إليّ متسائلة: وأنت (كأنها تتحدث الى بديل زوجها) ماذا فعلت الليلة الماضية؟ قلبي يحدثني أنّ سفرتك لم تكن كلها سفرة عمل.

يا عزيزتي، العمل عندي أولا وقبل كل شيء، ثم ماذا تنتظرين أن أجد في العريش؟ معممون وسلفيون ومواعظ أصولية وخطب جهادية مملة تذهب بعقول الشباب، إنهم يلعبون بكم، يريدون أن يعودوا بمصر المتحضرة جوهرة الشرق الأوسط إلى العصور المظلمة.

هم هكذا منذ الأزل، ليس عندهم غير المرأة ونقابها، لكن مجالسهم وبيوتهم تفوح بالخيانة والدعارة والشذوذ، أنا أعتقد أن أغلب المنقبات سحاقيات، هل لاحظت كيف يسرن مع بعضهن؟ وماذا كنت تفعل عند السلفيين (في إشارة إلى زيارتي لرفح)؟

اتفقنا يا عزيزتي أن لا تسأليني عن عملي ولا أسألك عن أي شيء، هل نغير اتفاقنا؟

ليتك تفعل وتسألني ماذا يفعل النائب هنا؟

هذا ليس من شأني، نحن في النهاية أصدقاء بالغين ولكل منا حياته الخاصة، ومن جانبي لا أود أن أتدخل في حياتك، وعليك أن تتعاملي معي بالمثل. اقتربت منها وأخذتها من خصرها وقلت:

أليس هكذا أجمل وأريح لكينا يا خوخة الحبيبة؟

أعطتني فمها الجميل منشراحاً عن مشروع قبلة تدعوني للسريير الناعم. أخذتُ فمها بين شفتي في قبلة ندية طويلة، فارقت فمي بعدها وهي تسأل: هل تريدني الآن؟

الآن؟ لم لا، ولكني أكاد أموت جوعاً، أليس عندكم ثمة طعام هنا؟

بالطبع يا عمري، لنذهب الى المطبخ ونرى ماذا نأكل.

وبعد الأكل بدأت قصة هل تريدني؟ حيث تحركت بنصف جسدها الأعلى من تحتي وهي تنظر إلى عيني بامعان: هل تتوقع أن أخونك في يوم ما؟

وهل تحبيني إلى درجة لا تفكرين فيها بخيانتني؟ هل تسمين ما بيننا حباً مطلقاً؟

ماذا نسميه إذا يا استاذ؟ دعارة؟ خيانة؟ أنا أحب نبيل، ولو كان موجوداً لما خنته، لكنه غائب ولا أدري متى سيعود، فهل يجب علي أن افني أحلى سنوات الرغبة في انتظار غائب قد لا يعود؟ هل في هذا ذرة عقل؟ لهذا أنا أحبك، وإن كنت تشك في ذلك فإنك ظالم جحود.

لا أنا أريد أن أعرف، فالغيرة تنتابني من هذا النائب الشاب، يبدو لي أنه مهتم بك كثيراً.

ولكن حين طلبت منك أن نتحدث عنه، قلت لي أن أمره لا يهكم، وأنك لا تسأل عن خصوصياتي ولا تريدني أن أسأل عن خصوصياتك، هل تغيرت مشاعرك؟



لم أعرف مشاعري حتى دخلنا السرير معاً، فكانت صورة الرجل لا تفارقني  
وكأنني أراه ينام معك عارياً في نفس هذا السرير... لا أدري هذا الهاجس يسيطر  
عليّ ولا أدري سره.

\*

عرفتها على فيسبوك منذ سنوات، وظننتها متزوجة، حتى فاجأني قبل أشهر بقدمها من أرض روسيا الباردة إلى بروكسل عند أختها الموظفة في مفوضية الاتحاد الأوروبي. واتصلت بي على مسنجر فيسبوك حيث طالما تحدثنا، وعرضت أن نلتقي في بروكسل لنتعرف على بعضنا أكثر. وكان العرض غريباً بالنسبة لي، فأنا غارق في العمل، ومن الصعب أن أفرغ نفسي لصادقات يومية عابرة، حدث ولا حرج صداقات تقليدية تدور في إطار جلسات عائلية، فاعتذرت بانشغالي المزمّن، وهو لم يكن تذرّاً بأعذار واهية قط، ثم عرضتُ عليها من باب المجاملة فقط، أن تزورنا هي وزوجها هنا في ألمانيا.

كتبت لي سميّة العبارة الخالدة على فيسبوك "هههههههه" والتي تعني في الحقيقة ضحكة طويلة والتعبير الصحيح عنها "هاهاهاهاهاه"، ثم قالت "كيف؟ أنا لستُ متزوجة" وأردفت بكل شجاعة "أنا عانسة!"

وتوقفتُ هنيهة عن الاسترسال معها، هي أولاً كتبت عانسة ولم تكتب الوصف العربي الصحيح "عانس"، وثانياً هي اعترفت بكل شجاعة بأنّها عانس، وهذا نادر جداً بين الشرقيات، ولكنّ الذي لفت نظري أكثر جهلي بهذه الحقيقة وجرأتها في طلب اللقاء بي رغم أنها ليست متزوجة.

بعد أسبوع كنتُ في بروكسل، والتقينا على الغداء في فندقٍ أنيقٍ بالحي الدبلوماسي في عاصمة الاتحاد الأوروبي. وقوف السيارة لمدة يوم كامل يكلف هنا 50 يورو، والليلة في الفندق باهظة حقاً، لكنّ فضولي لمعرفة ما تريد أو ما تخفي أنساني كل التكاليف. وهكذا التقينا في صالة فندق ماريوت برسل، وانتبذنا منه زاوية لن نضطر فيها إلى الهمس ولا إلى الصريخ، بل نتحدث بهدوء عراقي طبيعي!

المفاجأة الأولى أنّ عمرها قارب الستين، لكن نضارتها في الحقيقة تعطيها أقل من خمسين عاماً من العمر، لاسيما أنّ ثوبها الأحمر الأنيق القصير كان يشف عن خصر ضامر، وساقين رشيقتين بضنتين بيضاوين بلا تجاعيد.

دون مقدمات قلتُ لها: أنت، وبهذا الجمال والمرتبة العلمية والذكاء والقدرة المالية والاستقلال كيف بقيت بلا زواج؟

فاجأتها صراحتي، فتراجعت في كرسيها تتطلع في وجهي من خلف عويناتها الأنيفة، وقالت: بقيتُ دون زواج لأنني كنت أخاف الرجال، الرجال يريدون من النساء شيئاً واحداً واضحاً، أما النساء فيردن من الرجل حياة مضمونة، وربما كنتُ لحوحة مدققة في مطلبي فلم أتفق مع رجل. تقدّم لي كثيرون ومررتُ بقصصٍ تشبه قصص الحب، لكنني كنتُ دائماً أنأى بنفسني عن الخوض في تجربةٍ معهم."

قلت بلا تروٍ وبنوعٍ من الغيظ "بل كنتِ متعجرفة متكبرة، فأنتِ سليلة آل فلان من جهة الأب، وآل إعلان من جهة الأم، وكلتاهما سلالتان عراقيتان معروفتان متنفذتان متعجرفتان، وأرجح أن أمك قد زرعت فيكِ روح التعفف المختلطة بالعجرفة البيوريتانية فهي طالما اعتبرت "الجنس نجس."

توقفت عن شرب العصير مبهوتةً بوقاحتي غير المعهودة، ثم ابتلعت ما في فيها، وقالت بهدوء ملحوظ "أمي لم تحدثني عن الجنس قط، ولكننا طالما اعتبرناه تابو محرم في الأسرة!"

وتنبهتُ الى أنني محتدٌ معها بلا سبب، وسارعتُ معتذراً بلطف مشفوع بابتسامة معلناً رغبتني في أن تأخذ هي زمام الحديث، لاسيما أنّها هي من طلبت اللقاء.

استرخت وهي تراني أراجع عن الهجوم، وبدأت تحدثني بالضبط عن وحدتها في روسيا الباردة، وانشغالها الممل بعمل روتيني يومي ولساعات طويلة يقتل فيها الرغبة في الحياة، ثم وصلنا الى النقطة الحرجة، وقالت "قرأتُ كتابك، وعرفتُ أنك كنت جليسا تستمع الى الناس وخاصة من أسميتهم "أهل القمة" وتسجّل قصصهم، وهكذا تراءى لي أن نجلس معاً وأروي لك قصتي."

وانتظرتُ أن تنتقل في حوارها إلى منعطفٍ خطير، لكنها مضت قُدماً في شرح تفاصيل حياتها اليومية، راجعةً الى ذكرياتها في جامعة بغداد، وفي لندن حيث نالت الماجستير قبل سنوات طويلة، وصارت تسرد وقائع تخلو من أيّ إثارة بالنسبة لي، وبدأ الممل يدب الى نفسي. أنا لم اقطع 250 كيلومتراً، دافعاً كل هذه التكاليف لأسمع سرداً عادياً لوقائع يومية في حياة امرأة.

بعد نحو نصف ساعة من السرد الرتيب، ومن سكوتي المفروض بقوة الأدب والفضول الصحفي، لم تقل سميّة شيئاً ذا شأن، القصة القديمة المعهودة نفسها، عانس جميلة ما زالت فيها لمسة أنوثة، تقضم أيامها بحسرة وهي ترى الحياة

تمضي بسرعة، ولا أمل لها سوى انتظار نهاية سعيدة في دار المسنين! وهكذا كان عليّ أن أستعيد وقاحتي المعهودة لأقول لها : ولكن كل ما تذكرين سببه رفضك للرجال، أنت بدأت متكبرة عليهم، ثم في منتصف المسافة شعرت بالخوف، فحاولت التراجع لكن نجاحك المهني وضعك فوق كل من كانوا حولك، ثم وصلت الى مرحلة الكهولة فبات الرجل حليماً. لا يرضى أي رجل شرقي بامرأة في الستين، الشرقي الذي يبلغ الستين من العمر يبحث عن امرأة في الأربعين، وهكذا فقد ضاعت الفرصة، لكني لم أفهم حتى الآن كيف لم تستمر علاقاتك بالرجال خلال هذه العقود من العمر؟

ابتسمت بحياء، ونظرت إلى حذائها المشبك الأنيق وعدلت طرف فستانها الأحمر ثم قالت: علاقاتي كلها لم تكن جادة، أنا ما زلت عذراء، عذراء في الستين، فكيف تريد علاقاتي أن تستمر، من ينظر الى عجوز في الستين ويغادر الجميلات الحسنات في محيطه؟.

قلتُ بهدوءٍ حامٍ: ولكن كان عليك أن تدركي القطار يا عزيزتي، لا أعرف تفاصيل رفضك ولماذا ترفعت عن الرجال، أو لماذا تباعدت عنهم، لكن المشكلة تكمن فيك حتماً وليس فيهم."

قالت بلغة مستسلمة: لا أريد علاقةً خارج الزواج، حرام، أنا أخشى الله وأرفض الزنى!

وقع جوابها مثل صاعقة على وعيي، فمن ظننتها خارج مظلة الأعراف تُسمي علاقتها الطبيعية بالمذكر زنى، بلغة الكاهن، وتطلب وهي في الستين علاقة مؤطرة بوثيقة الكاهن، وقلت لها كل ذلك لها بنفس واحد وكأني أهاجم عليها بلا هوادة، فردت بهدوء:

يا صديقي العزيز، الرجل يريد من المرأة الجنس أولاً ثم الحب، والمرأة تريد الحب أولاً، ثم تمنح نفسها للجنس، والفرق كبير بين الحالتين، إذا مارست المرأة الجنس دون حب وزواج، فهي دعارة، والمرأة تكون ببساطة "عاهرة"، وأنا أرفض ورفضت طول عمري أن أكون عاهرة.

وبهدوء مصطنع قلت لها: وهكذا قضيت عمرك بانتظار بركة الكاهن ووثيقته، أنت بهذا قد عطلت أهم أعضائك، وهي أعضاء الحياة والإرضاع...كل ما عدا ذلك

هو سفسطة، الكاهن قد انتصر عليكِ وسلبكِ حقكِ في الحياة، أليس ظلاماً أنكِ لم تجربي طعم العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة، فقط لأنكِ تبحثين عن ذلك في أطار وثيقة الكاهن؟

لماذا تسميها وثيقة الكاهن، هي عقد زواج؟

هذا العقد هو امتداد لسلطة الكاهن قبل عصور ديانات التوحيد، وبعد ظهور الديانات تحولت السلطة من الكاهن الى القس والشيخ والسيد والراي وما الى ذلك، وهم يصدرون الوثيقة التي تقرر أنّ الرابطة بين المرأة والرجل هي زنى، أم زواج... هذا منتهى التسطيح. إذا كان الله خلق الرجل والمرأة ليتكاملا ويتزاوجا، فما دخل الكاهن وسلطته بينهما؟ كيف قبلتِ أن تسلمي مصير جسدكِ وكنوزه الى كاهنٍ محتال جاهلٍ يتلاعب بمصائر الناس إرضاء لمصالحه.

كنتُ أرى ما لا تراه، فبات حوارنا مثل حوار العميان، هي في وادٍ، وأنا في وادٍ، وقررتُ أن أضع حداً للقاء، فقلتُ لها أني قد جعت، ولا بد أن نتناول الغداء، فكان هذا، وبانتهاء الوجبة التي لم يتخللها سوى جمل قصيرة مثل برقيات منقطة عن المتن، وضعتُ نهاية مبتسرة للقاءٍ كان يمكن أن يقود الى نتائج باهرة، لكنّ سلطة الكاهن غير المرئية اسقطت كل شيء، وباتت سميّة في نظري، إحدى أصدقائي الألف على فيسبوك، يمكن في أيّ لحظة أن اتخلى عنها، وتصير جزءاً من ماضٍ سأنساه سريعاً في عصر العولمة.

\*\*\*

على حساب فيسبوك جاءني طلب تعارف من شخص يكتني نفسه " سالب الأرواح"! ترددت في قبول الطلب، ثم تطلعت الى صفحته على فيسبوك فرأيتها مليئة بقصص الثورة المصرية وثورة تونس وصور ما جرى للقذافي حين دخل القذافي المعدني في مؤخرته، وصور لمبارك وهو يعرض للمحاكمة وأخرى لصدام حسين اثناء محاكمته وإعدامه، وتعليقات من الصحف عن التغييرات في المنطقة. قبلت طلبه وبي لهفة أن أعرف من هو ولماذا طلبني.

بعد أيام أرسل لي موعداً نتحاور خلاله على فيسبوك، والتقينا على دردشة فيسبوك فصار يعرّفني بنفسه ثم قال لي، إنه يريد أن يتحدث إلي شخصياً في أمر هام، دعوته للحديث فأخبرني أنه يود أن يحادثني وجها لوجه بعيداً عن وسائل الاتصال الحديثة غير المأمونة.

استجبت له، وسألته أن نلتقي في شرم الشيخ، فأجابني أنه يفضل مكاناً خارج مصر، وتحديدًا في بيروت، وسوف يبعث لي تذكرة الطائرة وحجز الفندق لليلة واحدة. وعدته بالرد، ثم قبلت العرض بعد يومين بعد أن جرت الموافقة على طلبه.

نهاية الأسبوع في الساعة الثانية عشرة ظهراً كنت في صالة فندق الحياة ريجنسي في بيروت، أجلس الى طاولة تمسح وجه البحر من جهة الروشة، وأحتسي قهوة ثقيلة. في الثانية عشرة والربع نهض رجل مربع القامة ذو ملامح شرق أوسطية عن البار وبيده كاس مشروب طويل الأجل، واتجه نحوي مبتسماً وهو يقول ماذا ذراعه: أهلاً وسهلاً بك في بيروت، هل اعجبتك غرفتك؟

اخذت كفه الباردة القوية في كفي، وهزتها برفق مجيباً: نعم، إنها مريحة ورائحة البحر لا تفارق جوانبها.

وهل كان طيرانك مريحاً؟

نعم، وصلت طائرة الشرق الأوسط في مواعدها، وفي المطار مررت بجواز سفر الأمم المتحدة من بوابة المسافرين الوافدين دون تعقيدات يواجهها مواطنو الدول العربية في المطارات العربية عامة وفي بيروت خاصة.

جلس الى مائتي مقترحا: لنبدأ بتناول طعام الغداء، ونتحدث بعدها، هل نأكل هنا، أم عندك مكان خاص تفضله؟

هنا مناسب، وأعتقد أن الطعام في بيروت متشابه في أغلب الأماكن، باستثناء السمك وليس بودي اليوم أن أكل سمكا.

اثناء تناولنا الطعام، كان دائم النظر الى هاتفه اللوحي وهو يستلم عليه رسائل وملاحظات ، وترك الطعام مرتين ليكتب رسائل نصية جوابية.

بعد الطعام اللبناني الدسم المتبل اللذيذ، غادرنا المكان الى أتليه ( الأرصفة) في آخر الأشرفية، انتبذنا ركنا فيه يطل على البحر(في بيروت أنت دائما على البحر ، والمتوسط لا يفارق نبض قلبك حيثما وليت وجهك)، ثم اخذنا من البوفيه شايا وقهوة - فميزة المكان أن لا خدمة فيه- وبهذا لن يقاطع أحد حديثنا الذي سيطول.

جلسنا فقال: لنبدأ بوضوح، أعرف من يدفع لك لكي تصغي لأحاديث الناس، وأعرف من يأتيك ليحكي لك الحكايا، وأعرف أنك أمين على الأسرار، لذا سأبوح لك سرا في أسئلة و عليك أن تصل الى إجاباتها بنفسك.

قل ما عندك يا سيدي، ويسرني أن أجد محادثي مطلعاً، يعرف حقائق لا يرقى لها الشك!

محمود المبحوح، عمره 50 عاماً، ويصفه رفاقه في حماس بأنه "كان كالضوء يتسلل، وكالهواء ينفذ، وكالظل بصمت يتحرك، فلا يعرف بتحركه أحد، ولا يطلع أحدا على برامجه، مثال لا يبارى للرجل المسلم في مظهره وقوته وحسن تدبيره". يقول الحمساويون إنه دوّخ إسرائيل 20 عاماً، ويقول آخرون إن الموساد وظفته 20 عاماً، ويقول غيرهم إنه كان مخلباً للسافاما الإيرانية في المنطقة، وهي التي أو عزت له أن يذهب الى دبي حيث قتل: هل كانت مأمورية المبحوح في دبي لصالح المخابرات الإيرانية(سافاما)؟

دخل دبي متخفياً بجوار سفر لم يعلن عنه، لكنه لبناني، وأقام في فندق لم يعلن اسمه، ولا يهم ذكر اسمه هنا، لكن السؤال هو لماذا سافر المبحوح متخفياً الى دبي؟

دبي وضعت الرواية بشكل درامي: " فريق كامل يتشكل من 11 فردا، يأتون من 4 دول أوروبية إلى دبي ليغتالوا شخصا واحدا، هو الفلسطيني محمود المبحوح، ويستخدمون في سبيل ذلك وسائل اتصال متقدمة، وتقنيات متطورة" لكن الرواية الإماراتية لم تقل، كيف اجتمع الفريق، وكم كلفت العملية، ومن وراءها، وكيف اشتركت مخابرات 4 بلدان في تمريرها، وما دور محمد دحلان في كل ذلك؟

اهمية المبحوح بالنسبة للإسرائيليين اشترাকে في خطف الجندي جلعاد شاليط وتخطيطه لعملية اختطاف مشابهيته، هذا ما يقوله الإعلام، ولكن ما لا يقوله أحد ، أن للمبحوح علاقة مباشرة بالموساد لا أحد يعرف تفاصيلها، فلماذا تريد الموساد تصفيته؟

وأهميته بالنسبة لفتح، انشقاؤه عن مكتب دحلان واحتفاظه بأسرار لا يجب ان يحتفظ بها، وأهميته لجهاز مخابرات الجمهورية الإسلامية في إيران أنها أرادت أن تحقق من خلاله اختراقا داخل قنوات قوات درع الجزيرة خاصة أن علاقته بالفريق ع. الفا... كانت استثنائية.

هل تعلم أن إيران رصدت للقائه بالفريق ع، ومساعدية 200 ألف دولار؟ السؤال الأكبر هو: ماذا أرادت إيران من هذا اللقاء وكيف لم يتحقق؟

ولعل ما قاله قائد شرطة دبي الفريق ضاحي خلفان حول تفاصيل الاغتيال يكشف خفايا لم يتسن لأحد كشفها بعد: " هذا الفريق الذي تشكل من 11 مجرما ما كان له أن يستبق قدوم المبحوح إلى دبي لولا خيانة بعض بني جلدته، فمن زود القتل بموعد قدوم المبحوح إلى دبي ليكونوا في انتظاره منذ لحظة الوصول؟ "

وأنا أوجه هذا السؤال الى أعضاء مكتب المبحوح، والى المرأة الغامضة التي زارت غرفته في الفندق قبل اغتياله. من هي ، وما جنسيتها، وماذا فعلت في غرفته، وما علاقتها بسفره الى دبي وكيف علمت به؟

ومن غير المستبعد أن المبحوح كان يتوخي خلال رحلته الأخيرة أن يلتقي بالشيخ علي الم... من قيادات حزب الله اللبناني، والذي كان موجودا في فندق يبعد 100 متر عن الفندق الذي قتل فيه المبحوح، لكن هذا هو مجرد حدس، فقد يكون وجودهما في مكان متقارب مجرد مصادفة، والعالم مليء بالمصادفات التي لا تصدق.



ادبيات حماس وإعلامها يلقي التهم سريعا على الموساد الإسرائيلي، الا أن وجود كل هذه الملبسات مترامنة مع القتل تضع في الاعتبار أكثر من علامة تعجب، وتدعو للتساؤل : لماذا ينفق الموساد كل هذه الأموال ويجلب كل هؤلاء القتلة المحترفين (حسب زعم مدير شرطة دبي اللواء ضاحي خلفان ) لكي يقتل المبحوح؟ وفي إمكان إسرائيل ببساطة أن تقتله من خلال آلاف العملاء الذين يعملون لصالحها في غزة، وبمبلغ زهيد مقارنة بما جرى في دبي؟

أهم من هذا وذاك، أنّ المبحوح ، وهو رجل مخبرات وأمن وممنوعات محترف كان يؤمن نفسه بأن لا يستخدم هاتفه النقال إلا نادرا، كما كان يشتري تذكرة سفره بنفسه في يوم سفره، ويحرص على عدم الحجز المسبق، وغالبا ما كان يمويه في سفره، ليبدأ سفره بوجهة غير الوجهة التي يقصدها، ومن هناك يغير خط سير رحلته، ويختار الفندق الذي سيقم فيه بنفسه ولا يكرر الإقامة فيه، ولا يأكل شيئا من الفندق، ويشتري طعامه من مطاعم بشكل عشوائي متجنباً مطاعم الدرجة الأولى، ولا يتحرك بسيارته إلا بعد التأكد من أن علامات الأمان التي وضعها فيها كما هي لم يمسه أحد، ويقودها وعينه على السيارات من حوله.

كل هذه التفاصيل وردت في تقرير نشره جهاز أمن حماس في خبر سرب الى الصحافة السعودية... عود على بدء إذا، بوجود كل هذه الاحتياطات، كيف عرفت الجهة التي اغتالت المبحوح أنّه مسافر الى دبي في هذا الوقت وأنّه ينزل في الفندق المعني؟

لنعد الى ما كتبه الكاتب الفلسطيني مصطفى يوسف اللداوي في وصف شخصية المبحوح : "زار كل البلاد، ونسج من أجل هدفه علاقات كثيرة، وصنع تحالفات عديدة ساعدته في تحقيق نجاحات للمقاومة داخل غزة دفعت إسرائيل إلى ملاحقته في كل مكان، تتابع أسفاره وتحركاته، وتجمع المعلومات عن منطقة سكنه والمناطق التي يرتادها والأشخاص القريبين منه، حتى أنها كانت تتبع أين يبيت سيارته، ورصد بنفسه عشرات الأشخاص الذين كانوا يلاحقونه". اذا كان الوصف صحيحا ، فلماذا تركته اسرائيل كل هذه المدة؟ وما علاقة اغتياله بأطلاق سراح الجندي الاسرائيلي المختطف جلعاد شاليط؟ هل كان المبحوح أحد الاشخاص الخمسة الذين يعرفون حصريا مكان اعتقال شاليط؟

وهل باعته حماس لإسرائيل مقابل أن تطلق اسراييل سراح 447 معتقلا فلسطينيا كصفقة لأطلاق سراح شاليط؟ الا يحتمل أن إطلاق سراح هؤلاء كانوا مجرد غطاء لمقتل المبوح؟

الاسئلة الكبيرة لا يغطيها البحر الأبيض المتوسط، وهو أزرق دائما، وطالما راودتني أسئلة غامضة، لماذا المتوسط أكثر زرقة من غيره؟

هل تسألني، أم أنت ماضٍ في رواية المبوح؟

أسأل نفسي وادردش معك، أعتقد أن المبوح ومثله مغنية عميلان لأكثر من جهة، في نشاط المخابرات الدولية اليوم الجميع تقريبا يعملون لجهات متعددة، وبالمناسبة فإن مغنية سبق أن التقى بالمبوح، ونفذا عملية مشتركة على الأغلب لحساب مكتب فلسطين في المخابرات السورية.

مغنية، هل تقصد عماد مغنية الذي اغتيل في شباط 2008 في هجوم بسيارة مفخخة في حي كفر سوسة دمشق؟

ومن غيره؟ أرى علاقة وثيقة بين الاغتيالين...وأرى أن سوريا وراءهما، وليس الموساد كما تذرع نصر الله. بشار الأسد لا يطبق شخصية لبنانية قوية تتجول بحرية بين لبنان وايران وسوريا والعراق...لذا عين سطيف ف. المقدم في الإدارة العامة بمكتب فلسطين لينسف مغنية ويمحو معه كل آثار ما جرى. البعثيون يقتلون دائما الأقوياء، هل تذكر ما أصاب أبو نضال وهو رجل صدام حسين؟

مصادر الموساد نفسها سربت أن عملاء للموساد نفذوا عملية الاغتيال بتفخيخ سيارة مغنية عن طريق استبدال مسند رأس مقعد السائق في سيارة عماد مغنية بمسند يحتوي على شحنة متفجرات قليلة لكنها شديدة الانفجار بالتعاون مع أجهزة استخبارات عربية قد تكون جمعت معلومات عن تحركات مغنية وقدمتها للموساد، والمقصود هنا تحديدا المقدم سطيف وفريقه الرباعي. العداء السياسي قد يكون قائما بين سوريا واسرائيل، لكن تعاونهما المخابراتي يبقى قائما وخاصة حين يكون العدو مشتركا.

هل تقول لي إن سوريا شاركت في اغتيال المبوح؟

أكيد يا عزيزي، فالأسد مثله مثل أبيه لا يحب الأقوياء، والمبحوح يتحرك دون مظلة الأسد وبترتيبات مشتركة مع غيره، وهذا ما اثار قلق بشار الأسد ودفعه الى إنهاء قصته بطريقة دراماتيكية تُعلق دائما على شماعة إسرائيل.

\*

تحلق الطائرة فوق جبال الألب، فأرى منتصف الصيف بقايا ثلوج ما زالت تكلل القمم الغامضة. يا ترى كيف يحب السويسريون العيش في هذه القمم، وهم الذين رفضوا عرض حكومتهم بمنح كل فرد 3 آلاف دولار شهريا مدى الحياة دون عمل، فوضعوا العرض قيد الاستفتاء ثم صوتوا عليه بالرفض؟

هل هو شعب يحب العمل، أم أن كرامته لا تبيح له أن يحصل على مال دون عمل؟ أم هو في نظرهم شكل من الاستجداء لا يليق بشعب معدل دخله الفردي 50 ألف دولار في السنة؟

غرقت في تأملاتي وأنا أتجرع كأس المارتيني بشريحة برتقال مرة المذاق، وأنظر خلال سحب تموز الى قمم الألب في سفوحها السويسرية، الطائرة تشرع في الهبوط، والميكروفون يدعو الى شد الأحزمة وتعديل المقاعد، اتجرع بسرعة ما تبقى، فتقرب المضيفة وترفع الكأس عن طاولتي في الدرجة الأولى وهي تبتسم، واحمد حظي ان اطقم الخدمة في الطائرات لا تتقاضى بقشيش والاذبحوا المسافرين على قدم وساق، خاصة في الخطوط العربية والهندية والتركية والإيرانية.

تخطيت صالة الوصول في مطار جنيف الصغير المزدحم- أحب المطارات الصغيرة فهي أكثر ألفة وأقرب للنفس، ثم تلقفني شخص يحمل يافطة عليها اسمي باللغة الإنكليزية. اقتربت منه فحياني بأدب جم، وأخذ حقيبتني يسحبها بنفسه ويقول بإنكليزية سليمة اتبعني لطفا. وصلنا الى حيث تقف سيارة مرسيدس بيضاء سوف رباعية الدفع مظلة الزجاج، وضع الحقيبة في صندوقها، ودعاني للجلوس في المقعد الخلفي بعد أن فتح لي الباب .

الشوارع مساحات من نظافة تحيط بها الأعشاب والأشجار والسفوح الخضراء، فالشوارع الغارقة في العشب، فأودية تغمرها البحيرات ، فشوارع في بطون الجبال، فشوارع في أنفاق تصل أطوالها الى 50 كيلومترا تحت الأرض، لتفاجئك بعدها حافة بحيرة تسير فيها السيارة بهدوء وبسرعة لا تتجاوز 90 كيلومترا. سرنا نحو ساعة، ثم وصلنا الى فيلا في ضواحي مدينة "شتيل سانت ديني" الصغيرة في القسم الفرنسي من الاتحاد السويسري الكونفدرالي. الفيلا بنيت في خاصرة طريق يتسلق جبلا ويطل سفحه المفتوح من بعيد على بحيرة "لاك

ليمان". الفيلا الأنيقة المبنية من صخور وألواح خشب عتيق غليظ لا مكانها إلا من يقصده عمداً، والا فهي خارج الطريق وأعتقد أن موقعها لا تُظهره أجهزة جي بي اس للملاحة والقيادة. دخلت السيارة في فناء وحديقة الفيلا، ثم انتهت الى المدخل، فترجل السائق يفتح لي الباب، ثم ينزل لي حقيبتى. وما إن تحرك بسيارته حتى تقدمت لي سيدة أنيقة دعنتني الى الدخول بلغة انكليزية سليمة تشوبها لكنة شرقية لم أعرف الى أين أنسبها.

في الداخل ، تلقاني ن. ش. آجي، الذي تلقيت منه اتصالاً هاتفياً ودعوة لزيارته "لقضاء يومين على سفوح جبال الألب السويسرية وللردشة وتبادل المعلومات" كما قال لي شخصياً على الهاتف، وأرسل لي بالميل بطاقة الطائرة من شرم الشيخ الى جنيف ذهاباً وإياباً. عمره يتجاوز سبعين عاماً كما تكشف عنه صفحته في ويكيبيديا، ويملك 130 شركة وثروة تتجاوز 2 مليار دولار ! وبذا فهو أحد العمالقة العرب، لكن شكله وقوته وهو يصافحني أوحى لي أنه في منتصف خمسيناته.

أخذني من كف يدي، وسار بي الى شرفة مفتوحة على منظر خرافي، دوحة استوائية مغلقة بالزجاج، كلُّ ما فيها يتنفس حياة من أمريكية اللاتينية، وتحتها حوض أسماك يمثل أرضيتها التي نسير عليها.. ولكن الأرضية السمكية الزجاجية تسلمك فجأة الى حافة صخرية مسننة، تطل على سفح بحيرة صغيرة لا يتجاوز طولها بضعة مئات من الأمتار محاطة بسور صخري. جنينة فيلا آجي فيها بحيرة طبيعية، في جبال الألب بسويسرا !

في عريشة على مذبح قوطي غارق بالمتسلقات والرياحين والزهور، نصبت مائدة مربعة فسيحة أحيطت بأربعة مقاعد، جلسنا متجاورين، وقال لي، قد ينضم إلينا آخرون، ولكن لا بأس فوجودهم سيكون مسلياً ومفيداً.

ما إن جلسنا حتى اقتربت منا خادمة هندية تدفع عربة مشروبات، يتبعها نادلان أفريقيان يدفعان عربتي مقبلات متنوعة حارة وباردة وفواكه وخضر لم أميز كثيراً منها.

لم يرو لي آجي أي شيء حين وصولي، وبقينا نشرب وناكل ونروي مزحا كأننا صديقان حميمان، وخبّنت أنه يريد أن يرطب الجو، لكنني اكتشفت صبيحة الغداة انه وحيد يبحث عن صديق!؟

وانتابني شعور أني إزاء شيخ منعزل في جبال الألب يبحث عن جليس، وهذا عين وظيفتي.

نهض عن الأريكة متثاقلا يسحب ساقا خدرة، الى زاوية تكدست فيها البومات صور، وعاد ويده البوم متوسط الحجم، بدأ يقلبه بين يدي كأنه يروي لي قصصا عن أهل بيته.

هذه صورتي مع سعد الحريري، لا يتقن الرجل سياسة لبنان لكنه حسن النوايا وارث ملايين أبيه، هل يكفي هذا؟ لو انتخبوا ميشال عون رئيسا فقد يعود سعد الحريري لقوته. وهذه صورتي مع صدام حسين ونجله قصي، في بحيرة الحبانية عام 1999، طلب مساعدتي في ان أوّمن له مختبرات كيميائية محمولة في شاحنات من جنوب افريقيا.

وهذه صورتي مع نجل المستشار الألماني هلموت كول، والى يمينه حفيذة شارل ديغول وزوجها.

هذه الجميلة هي فرح ديبا زوجة شاه إيران الأخير، والصورة هنا في فيلتي عام 2002.

هذه كاترين دونوف ومعها صديقها سائق سيارات السباق الذي مات..نسيت اسمه..التقينا مرة في فينا، واوصلاني بسيارتهما الى هنا وأوشكت أن أموت رعبا من سياقة صديقها المجنون. هذا جورج كلوني معي على سفوح الألب، أنظر الى كثافة الثلج عام 2005..لم نعد نر ثلوجا كهذه هنا. واستمر يعرض علي صوراً لمشاهير وساسة من كل أنحاء العالم. ثم انتهى ، فنهض من مكانه متثاقلا وذهب بالبوم الصور، وعاد بالبوم صور صغير بغلاف من جلد ثمين تفوح رائحته وحافاته مذهبة. جلس الى جانبي وهو يقول، هذا ما أردت أن أعرضه عليك.

يردد كثيرون عبر وسائل الأعلام أني تاجر سلاح دولي، ولم يستطع أي أحد حتى الآن أن يثبت كلمة من ذلك. قوانين الضرائب والمعلومات والشفافية في أوروبا تمنع إخفاء أي شيء، وأنا ساكن في سويسرا كما ترى، وإحدى جنسياتي هي

السويسرية. لذا لا تصدق كل ما تسمع عني، فقط تأمل ما سأعرضه لك، وستعرف من هم تجار السلاح ومع من يتعاملون، وعليّ أن أذكرك أنّ تجارة السلاح يصل حجم الأموال المتداولة فيها سنويا الى 60 مليار دولار .

وهي بالمناسبة ليست تجارة غير مشروعة، بل أنّ شركات دولية معروفة تعمل فيها بشكل شبه علني ومعروف لدى الحكومات والأجهزة المختصة في العالم. ولكن هناك جانبا غير رسمي لتجارة السلاح في الظل ويرتبط بحركات مسلحة غير رسمية وعصابات ومبيعات سلاح الى انظمة ممنوع أن يصدر إليها السلاح، كما يتضمن بيع أسلحة محرمة دوليا أو أسلحة خارج الخدمة، بعنوان خردة ومواد احتياطية لأسلحة قديمة، وتلجأ إليها دول ليس بإمكانها تطوير ترساناتها، وأهم دول في هذا الوصف إيران وكوريا الشمالية واليمن وكولومبيا.

انظر الى هذه الصورة، من يجلس معي مبتسما هو عدنان خاشقجي رجل الأعمال السعودي الشهير وهو أيضا واحد من أهم الأسماء في عالم تجارة الأسلحة.

بدأ خاشقجي في عالم تجارة الأسلحة في ستينيات القرن الماضي حيث عمل وسيطا بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الحكومة السعودية.. أخفى رجل الأعمال السعودي تعاملاته المالية من خلال تأسيس مجموعة من الشركات في الدول التي لا تفرض ضرائب كبيرة مثل سويسرا سابقا، اذا لم تعد اليوم تستطيع اخفاء الأرصدة بسبب قوانين مكافحة الإرهاب التي تروم منع تنقل الأموال ووصولها الى أيدي العصابات الارهابية.

هل تذكر أين ورد اسم خاشقجي بكثرة؟

ابتسمت وشغلت شريط صوري القديم في ذاكرتي وقلت: ضمن المتورطين في فضيحة إيران- كونترا، كان وسيطاً بين الحكومة الأمريكية والإيرانية المتحاربتين المتعاديتين وإيران تهتف مرك بر امريكا، وبعد ذلك ابرمت صفقة استبدال رهائن أمريكيين مقابل منح أمريكا أسلحة لإيران.

نعم، هو بعينه، لكنه الآن شيخ كبير يعيش في موناكو و يعمل في أغلب الأحيان كوسيط لتسهيل اتمام الصفقات، واغلبها صفقات سلاح.

هل ترى هذا الذي يمتطي حصانه الى جانبي في ضواحي صنعاء؟ إنه فارس منّاع، أشهر تاجر سلاح في اليمن، وقد شغل منذ عام 2011 منصب عمدة صعدة،

وقد أدرج مجلس الأمن اسمه في قائمة مهربي الأسلحة الذين يتعاملون مع الحركات الإرهابية وخاصة (حركة الشباب) في الصومال. ثروته بسيطة، لا تتجاوز 20 مليون دولار، لكنها تمثل مبلغاً هائلاً في بلاده التي يبلغ متوسط دخل الفرد فيها 200 دولار شهرياً.

هذا السوري الأنيق الواقف معي على شواطئ الكاريبي هو منذر القصار.  
قاطعته ملهوفاً بسؤال: ومن هما السمران واللتان معكما، هذه أجساد ليست عارية بالكيني على شواطئ الكاريبي؟

ضحك وهو يرد بصوت عالٍ: أنت تلتقط الشارات القرمزية دون وجل، إنها ملكة جمال البحر الكاريبي وصديقتها أو عشيقته لا أدري بالضبط، فهما نامتا في فراشنا متلاصقتين، واجبرتانا أن نضاجعهما على سرير واحد، وكانت تجربة مضحكة ومحرجة في حياتي. كنت انظر الى مؤخرة منذر القصار الملقب "أمير ماريلا" هو أحد أهم تجار الأسلحة في العالم، وهي تصعد وتنزل فوق جسد ماريكا الأسمر الرشيق والقهقهة تمنعني من التركيز على وظائفه.

هو قد بدأ مشواره في تجارة الأسلحة في سبعينيات القرن الماضي كوسيط لشراء الأسلحة من بولندا لصالح الحكومة اليمنية. وكانت لندن هي مركز عملياته حتى طردته الحكومة البريطانية في عام 1982 بعد اتهامه بالتجارة في المخدرات والسلاح و انتقل بعدها إلى ماريلا في إسبانيا حيث اكتسب لقب أمير ماريلا.

عقد القصار عشرات من الصفقات لبيع الأسلحة في كرواتيا، البوسنة، والصومال في الفترة التي فرض فيها مجلس الأمن حظراً على بيع الأسلحة لهذه الدول وتترد أخبار كثيرة عن علاقة منذر القصار بجماعة الإخوان المسلمين، وهي علاقة أسس لها رفعت الأسد في سوريا قبل سنوات لتحريك الإخوان في مصر والعراق ضد حكومات البلدين.

ويقال إنه في عام 1991 عندما أسس حسن الترابي في السودان مؤسسته الإسلامية الدولية لكي تكون بديلة لبنك التجارة والاعتماد الدولي أصبح منذر القصار وقيادات إخوانية عناصر رئاسية في هذا الكيان الإقتصادي الجديد، ويضيف التقرير أنّ الهدف الرئيسي من تأسيس مؤسسته الإسلامية الدولية هو



القيام بدور بنك التجارة والاعتماد في عمليات غسل الأموال الناتجة عن الأعمال غير المشروعة التي يقوم بها منذر القصار.

تنفس بهدوء وهو يقلب صفحة الالبوم قائلاً : هذا الجالس معي الى طاولة الحسنات الايطاليات على سواحل بحر الادرياتيك في ريميني يعرف نفسه بانه الدكتور موسى بن شمشير وهو أشهر رجل أعمال بنغالي وأحد أهم الوسطاء في عالم تجارة الأسلحة الثقيلة التي تضم الدبابات والمركبات العسكرية والصواريخ. في آسيا يلقب بالأمير موسى، ويعتقد أن له ثلاث أصدّة هنا في سويسرا تتجاوز بمجملها 15 مليار دولار، وقد جُمّد أحد تلك الأرصدة بقيمة 7 مليارات دولار لوجود شكوك بشأن تحويلات غير نظامية وغير قانونية. له علاقات واسعة مع أهم الشخصيات في الشرق الأوسط، حتى أنه ضيف دائم على موائد أعراس الرؤساء والأمراء والزعماء والملوك والشيوخ وأبنائهم وبناتهم في الشرق الأوسط وبلدان أوروبا الشرقية وبلدان وسط اسيا . تتولى شركته داتكو تصدير نحو 10 مليون من مجمل العملة الآسيوية في مختلف أنحاء العالم. لعبت هذه الشركة دوراً رئيسياً في أغلب صفقات الأسلحة بالشرق الأوسط، كما كان وسيطاً مهماً في بيع الأسلحة القادمة من دول الاتحاد السوفيتي السابق.

أما هذا الجالس في طائرة هليكوبتر وفي كتفه غدارة فهو ديل ستوفيل هو مغامر ويسترن لا يفارق فمه السيجار ولا يتحرك إلا وبصحبته بندقية آلية معلقة على كتفه حيث يتنقل في مناطق الحروب عبر العالم بطائرته المروحية، كما يملك طائرة نفائة صغيرة فقدت بعد مقتله، ويرجح أن مقتدى الصدر العراقي قد استولى عليها.

ارتبط اسم ديل ستوفيل بعمليات العراق في عام 2003، التي فتحت سوقاً لتجارة السلاح الدولية بشكل لا سابق له حيث حصلت شركته (واي أوك تكنولوجيا) على أول عقود مع وزارة الدفاع العراقية الجديدة، وقد وصلت قيمة هذه العقود إلى 40 مليون دولار، بعد ذلك تولت الصفقات شركات يديرها امرأه قطريون وسعوديون وكويتيون وسياسيون إيرانيون وأتراك وتراوحت قيمة مجمل الصفقات بين 30 الى 40 مليار دولار.

لقي ستوفيل مصرعه في العراق عام 2004 بعد خلافات مع عملاء البنتاغون والجانب العراقي بسبب عدم الانتظام في دفع مستحقاته المالية، و اتهم ستوفيل

عدداً من ضباط الجيش الأمريكي بالفساد وكانت اعترافاته أساساً للتحقيق مع عدد من عناصر الجيش الأمريكي، ويبدو أنّ هذه الخلافات هي التي أدت لاغتياله.

ابتسم ثم وضع اصبعه العتيق على صورة تتوسط صفحة الالبوم الصغير وقال وهو يبتسم: هذا صديقي العتيد الروسي فيكتور بو ويعد أهم تاجر سلاح على الساحة العالمية ويعرف ايضا باسم فيكتور أناتولفيس وقد ألقى القبض عليه في 2010 بعد خلاف مع الرئيس الروسي بوتين. واعتقل بتهمة تمويل ميليشيات في كولومبيا شاركت في عمليات عسكرية ضد القوات الأمريكية، إلى جانب تمويله للكثير من الحروب الأهلية في إفريقيا في فترة التسعينيات، كما ارتبط اسمه بعمليات تهريب الأسلحة في الشرق الأوسط.

هناك تقارير تشير الى أن فيكتور بو هو الممول الرئيسي لأسلحة حزب الله في لبنان أثناء حرب 2006. كما عثر على وثائق في جهاز المخابرات الليبية بعد سقوط القذافي في 2011، تتضمن تحذيرات من المخابرات البريطانية للاستخبارات الليبية بشأن اتساع نطاق عمليات فيكتور بو في ليبيا.

كما ترى يا صديقي، أنا صديق لاهم تاجر السلاح في العالم، ولذا يتهموني بأني تاجر سلاح، والحقيقة أنني لست كذلك.

أنظر الى هذا الجميل الغريب! هو صديقي الراحل سر كيس سوجهانليان المولود في عام 1929 في ارمينيا والذي هاجر أهله الى الولايات المتحدة الأمريكية وبات أشهر تاجر سلاح في العالم ولقب "تاجر الموت" بعد أن ارتبط اسمه بكل أماكن الصراعات والحروب على مدار التاريخ، وهو تاجر السلاح الرئيسي الذي اعتمد عليه صدام حسين في الثمانينيات. ولن تصدق اذا قلت لك إنه كان يخاف من السحالي، واذا صادف وجود سحلية في مكان جلوسه أو نومه، فيرفض الدخول ما لم تطرد أو تقتل السحلية !

حظي سوجهانليان بدعم المخابرات المركزية الأمريكية التي نسقت عمليات بيعه للأسلحة أثناء الحرب العراقية الإيرانية، كما اشتهر ببيع الأسلحة للميليشيات في الشرق الأوسط وتحديد الفصائل الفلسطينية المختلفة، علاوة على حزب الله في لبنان وفصائل مسلحة في أمريكا اللاتينية و إفريقيا. المضحك أنه أعتقل أثناء حرب الخليج الأولي ( 1980 الى 1988) ثم حكم عليه بالسجن لمدة ستة اعوام بتهمة امتلاك أسلحة بنية بيعها إلى العراق، ولكن عقوبته خفضت إلى عامين بعد

صفقة مع السلطات الأمريكية قدم فيها معلومات استخباراتية في مقابل خفض مدة عقوبته.

موضوع آخر دبره سوجهانليان بعد سقوط الكتلة الشرقية. ففي عام 1987 تعاهد العراق مع ألمانيا الشرقية لإعادة تأهيل مجموعة من طائراته ومنها طائرات ميغ 21. هذا العقد وقعه وزير خارجية العراق آنذاك سعدون حمادي عند زيارته الى ألمانيا الشرقية .

كان العقد يتضمن اكمال عشر طائرات في عام 1990 لكن جره تمديد الفترة الى عام 1992. وسبق السيف العذل، ففي 1989 سقطت ألمانيا الديمقراطية الشرقية الشيوعية، وانفرد بقيمة العقد ممثل وزارة الصناعات الحربية في الحزب الشيوعي الألماني العقيد فرانك فوتسهايم بيرغر الضابط الاقدم في وزارة الصناعات الحربية الألمانية، الذي فر الى أرمينيا والتقى سوجهانليان ولا يعرف أحد كيف تسربت تلك الاموال وكيف وظفت.

لم يتسلم العراق تلك الطائرات من مصانع الطائرات في دريسدن قط، بل انتقلت الى دولة تالفة قبل ان تباع في سوق الطائرات المستعملة الدولية، ويقال إنها بيعت لدولة افريقية، وضاعت المبالغ الى أبد .

أغلق الألبوم الأنيق، ونظر الي بعينين غزاهما دخان المدافع والصواريخ التي تداولها أصدقاؤه تجار السلاح، وابتسم بيأس وهو يقول: مع كل هذا ، أنا لست تاجر سلاح، ولست مضطرا أن أكذب عليك، فأنت الجليس الذي لا يكذب عنده أحد، وشكرا للأميرة مادلين التي ارشدتني اليك. يا صديقي، أن تكون صديقا لشخص لا يعني بالضرورة أنك شريكه. دعني أسألك، هل تعرف أبي عثمان الايوبي الحلبي؟

من هو، اسمه يوحي بأنه من قادة داعش؟

وهو كذلك، هو قائد فصائل خلدون الحلبي في سوريا، وقد نحر بسكينه الشخصية 50 انسانا. لنفرض أنك تعرفت عليه، وتكلمت اليه وجالسته، هل تعتبر صديقه؟ هل تعده أنت صديقا لك؟ أنت تؤدي وظيفتك في الانصات اليه، وهو أحد معارفك، ولكن هذا لا يعني قط أنك قاتل ارهابي مثله، أليس كذلك؟

بالتأكيد لن أكون مثله، في مسيرتي المهنية التقيت أهم وأغرب الناس في العالم، ولكن هذا لن يعني قط أنني واحد منهم.

اتسعت ابتسامته وقال: وبهذا وضعتني أمام الجزء الثاني من هذا اللقاء على سفوح  
جبال الHلب، هل تقبل لقاء أبي عثمان الأيوبي الحلبي؟ لن تصدق اذا قلت لك إنه  
يريد لقاء جليس، واعتقد أنك الوحيد المعروف في الشرق الأوسط بهذا التخصص  
النادر ! ما رأيك؟

تجمد الدم في عروقي لحظة، ثم سارعت الى الرد وأنا انظر بعينه : بالتأكيد لا، لن  
اذهب الى مناطق الصراع، ولن ألتقي بأي شخص قد يعرض لقائي به حياتي  
للخطر!

ضحك بصوت متعثر بسبعين عاما من المال والعجائب وقال، لا يا صديقي، الأمر  
ليس كذلك، ستلتقي به في قبرص، في الجزء التركي من قبرص، وسأخذك  
بطائرتي الشخصية اليه، وملتقي به معاً، لن أدعك وحدك معه ثم أطيّر بك الى شرم  
الشيخ فلا يضيع وقتك في الحجوز والمطارات وتغيير الطائرات.

تأملته برهة ثم قلت : عليّ أن أسأل، لست وحدي من يقرر هذا، اعطني فرصة  
لأجيبك الليلة.

ضحك بشدة حتى اهتز كتفاه وقال وهو يضع يده على ذراعي: لك ما تريد، وهذه  
سيارة وسائقها تحت تصرفك، اذهب حيثما شئت لتتصل بمن شئت ورد لي الخبر  
ليلاً.

تلك الليلة اتصلت به، واعتذرت عن قبول اقتراحه بلقاء أبي عثمان الأيوبي  
الحلبي، ولكن تركت الاحتمال مفتوحاً لتطورات لاحقة قد تبرر هذا اللقاء الغريب  
المفعم بالخطورة.

\*

فاجأني هاتف برقم فرنسي من أسعد البصري الذي لم أراه أو أسمع عنه أي خبر منذ عام 1977، في أوج الهجمة البعثية على الجبهة الوطنية، حيث خطفته أجهزة الأمن وصديقتة الطالبة في أكاديمية الفنون من داخل مقهى اللقاء على أبي نؤاس. فصار عليّ أن أخفّ للقاءه في شرق فرنسا بعطلة نهاية الأسبوع.

الطريق من الفندق الذي أقيم فيه إلى ستراسبورغ، المدينة خرافية الجمال، طويته في 3 ساعات بسيارة مرسيدس سوداء عزلتني عن العالم كأني أحلق في طائرة، مع استراحة قصيرة، تناولت فيه وجبة خفيفة مع قح قهوة ثم كبست للسيارة البنزين كي تطير إلى شرق فرنسا عبر حقول لا نهاية لها.

انتهت رحلتي في فندق هليتون ستراسبورغ حيث واعدني أسعد البصري في قاعة الضيوف الصباحية، وكان عليّ أن أمكث لحظات متأملاً وجوه الموجودين، حتى تقدم إلى رجل بدين أسود حليق الرأس، باذخ الأناقة، وهو يصرخ باسماً "هاي شببيك، نسيتني، هي كله 40 سنة."

أسعد البصري الذي أمامي لا شيء فيه ممن عرفته قبل 4 عقود، لكنّ أناقته ببذلته البيضاء، وقميصه الحريري الأسود بماركة لاكوست مطرزة على ياقته، وحذائه الأبيض غريب الشكل، ويده الممدودة باتجاهي بخاتم زينته ماسة كبيرة، أوجزت لي قصة نجاح ساحق رسا باليساري الأسود البصري النحيف، إلى ساحل أهل القمة المعطر المخيف.

جلسنا ولم يفسح لي أن أسأله، بل عاجلني هو بقصص عالمه الغريب، على طريقة أهل المال والساسة والقادة الغامضين، ومضى مسترسلاً بحديث كان بدأه قبل أيام معي على الهاتف: "لن تصدق كيف وجدتك، كنتُ في اجتماع عمل في باريس، وكانت شاشة على الجدار تعرض أخبار قناة فرنسا 24 ، وفجأة ظهرت أنت وما كنت لأعرفك لولا عرضهم اسمك معرفاً تحت صورتك، وبدأت تتحدث، فاستأذنت الجالسين معي لحظات، ورفعت صوت التلفزيون، فوجدتك تتحدث عن محنة الايزيديات مع عناصر داعش، وبقيت تتحدث، فطلبتُ سكرتيرتي، وقلت لها أن تجدك وتؤمن لي اتصالاً بك، وعدتُ إلى الاجتماع. في اليوم التالي عادت لي السكرتيرة بإيميلك وبرقم هاتفك وحتى بعنوانك في سويسرا، وبصور لك على

النت، وهكذا وصلت إليك، ثم جئتني إلى هنا وأنت لا تعرفني فيما أنا أعرفك، في عصر المعلومات لم تبق أسرار ولم يعد أي شيء بعيد عن متناول المرء."

وتناول جرعة من عصير بكأس معقد التفاصيل، ودعاني أن أختار ما أشاء من مائدته العامرة، رغم أن الساعة كانت ما زالت تقترب من الثانية عشرة ظهرا. فسكبت لنفسي من ورق كريستال ضخم كأساً رشيقياً من عصيره ذي الطبقات الخمس، وبدأت اتجرع ذلك الشيء بقصبة زجاجية نحيفة.

وسألته بلهفة: يهمني أن أعرف أولاً كيف نجوت وصديقتك الفنانة من قبضة الأمن عام 1977؟

شقت وجهه ذات الابتسامة العريضة بالأسنان شديدة البياض التي ميزته منذ أربعين سنة، ثم قال: يا صديقي، أنا نفسي لا أعرف كل التفاصيل، لكنهم أخذونا من مقهى اللقاء مباشرة إلى بيت في منطقة القصر الأبيض، ثم فرقونا هناك، ولم أعرف مصير رفيقتي ح، ونقلوني بعد رحلة طويلة نسبياً معصوب العينين إلى زنزانة انفرادية صغيرة جداً، حتى أنني كنت مضطراً إلى النوم وساقى نصف ملتفة تحت ركبي.

بقيت سجيناً بلا تحقيق 10 أيام، وفجأة، جاءوا إلي ليلاً وأخذوني كما أنا بسيارة مرتفعة معصوب العينين إلى مكان قريب، وأنزلوني من السيارة معصوب العينين، وقالوا لا تفتح عينيك حتى تحسب إلى المائة. وبقيت أحسب وأنا أرتجف واقفاً حيث لا أدري، ثم فتحت عصابة عيني ووجدت نفسي في منطقة الرشاد قريباً من مستشفى الشماعية، هل كنتُ سجيناً في المشفى؟ لا ولن أدري.

وبعدها، ماذا جرى لك، وما مصير ح التي اعتقلت معك؟

نظر في كأسه متعدد الطبقات برهة، ثم قال " لم أسمع عن ح من يومها أي شيء، لكنني استنتجت مما جرى أنهم كانوا يريدونها، ولا يريدونني، ومع ذلك أرعبي ما جرى، فلم أكمل عامي الدراسي الأخير بكلية الهندسة، بل عبرت بعد أسبوع من من إطلاق سراحني إلى الكويت، ومن هناك بدأت قصة أخرى تماماً."

تنبه إلى رسالة وصلته على هاتفه الذكي، فانشغل به لحظة، ما دفعني كالعادة أن افتح هاتفني، ثم بدأت بقراءة تطورات الوضع في البصرة، حيدر العبادي تحاصره

جموع المتظاهرين في فندق عشار شيراتون، المتظاهرون يقطعون طريق أم قصر، أعمال عنف تطال مقرات حزب الدعوة، مقرات عصائب أهل الحق والتيار الصدري لم يقترب منها أحد... ثم خاطبني أسعد قائلاً "ما هذه التعاسة، هل نلتقي بعد أكثر من أربعين سنة، لنتابع الأخبار على الهاتف؟ أترك هاتفك يا صديقي، والأفضل أن تجعله على وضع طيران، وسأفعل مثلك، هذا اليوم سيكون خارجاً عن المألوف" ووضع هاتفه على وضع طيران، ففعلت مثله، وقلت له: "كنت اتابع أخبار البصرة، يبدو أن الأمور تشتد هناك."

"ما الجديد في أخبار البصرة، البحارة يسرقون النفط يومياً عبر مفاتيح تفريغ خاصة صنعوها في مناطق باتت معروفة ويحرسها مسلحون، ويهرّبون النفط الخام إلى مصفاة عبادان في إيران وإلى مصفاة رأس الخفجي في السعودية، حيث يحوّل إلى منتجات نفطية، ويتم تداوله مع المهربين بطرق سرية. البصرة اليوم، معبر نفط مهزّب كبير، وقرأت أنّ ما بين 100-300 ألف برميل نفط يسرق يومياً من عدادات النفط في البصرة وتصل قيمتها إلى 20 مليون دولار أي بما يعادل سبعة مليارات دولار سنوياً."

ولفت نظري أنه لم يتطرق إلى الحراك الجاري في البصرة، فسألته "ألم تسمع بما جرى ويجري هناك من تظاهرات واضطرابات؟"

ضحك والتقط بمعلقة بضع حبات رمان مهيلة من صحن كريستال، دسها في فمه وهو يقول "يا صديقي لا أتابع أخبار السياسة، بل أتابع نتائجها وتأثيراتها على الاقتصاد، وهذا ما يهمني."

سارعتُ أسأله "ولكنك لم تقل لي ما عملك اليوم، ما سر النجاح الذي يلفك اليوم؟" ابتسم بهدوء، والتهم مزيداً من حب الرمان المهيل، ثم قال "أنا أعمل في التجارة، وأبيع وأشتري كل شيء، تشتري 20 شاحنة من فلان، بسعر أقل من المعروض في السوق بنحو 25 بالمائة، ثم تبيعها إلى فلان بسعر السوق، فتكون حققت ربحاً معقولاً، وهكذا، المهم أن تعرف من أين تشتري، فالعروض من كل أنحاء العالم، وأين تبيع، فكل أسواق العالم تشتري، ولكن لكل سوق زبائنه."

سارعت أسأله بخبث على ضوء حديثه عن نطف البصرة المهرب "وهل تشتري النفط أيضا؟"

ابتسم بهدوء وهو يقول "قلت لك اشترى وأبيع كل شيء، ولكن كل ذلك يتوقف على سعر البيع، وهذا حديث طويل."

سارعت أسأله مرة أخرى لأبقي الحوار في ملعبه "أين تسكن، وما وضعك الأسري؟"

قال "مبدئياً أنا أسكن باريس، ولكن لدي بيت في لوكسمبورغ للعطل، ولدي بيت في أوكرانيا للعمل، ولدي جناح نصف محجوز بهذا الفندق بشكل دائم للعمل وخاصة للصفقات مع الزبائن الألمان، فهذا المكان قريب عليهم، ولا تقترب منه الفضائح، ستراسبورغ عالم غريب صامت."

والأسرة، ماذا عن وضعك الأسري، أين تسكن زوجتك وأبنائك؟

ضحك بشدة وهو يقول "أما عن الزواج فعندي زوجتان، واحدة فرنسية ولي منها ولد وبنت متزوجان يسكنان في باريس، وواحدة إرثيرية بلجيكية وهي تسكن معي في لوكسمبورغ، ولدي منها ولدان وبنت، وعندي صديقة في أوكرانيا، هي معي منذ 10 سنوات، ولي منها ولد وبنت وهم يسكنون في بيتنا بأوكرانيا."

اتكأت على مقعدي محاولاً أن أستوعب ما جعل أسعد البصري اليساري النحيف الفقير، مليونيراً يجول بين النساء والعواصم، ولم أتمالك نفسي من سؤاله بكل وقاحة: "كيف حدث هذا يا أسعد؟ كيف تغيرت من ذلك البصري الفقير الساكن في قسم داخلي بئس في باب المعظم والمطار من أجهزة الأمن، إلى مليونير باذخ ينتقل بين النساء والبلدان؟"

دفع نحوي بصحن كافيار صغير وهو يقول "جرب الكافيار الإيراني، إنه مفيد للباه ويطيل العمر، كل معه بعض الزبدة على شريحة خبز سمراء، وستلحظ الفرق هذه الليلة. يا صديقي لكل إنسان قصة، ولم يحن الأوان بعد لأروي قصتي خاصة وأن محدثي الآن صحفي فضولي قد يختلف معي ذات يوم فيكشف ما أخفي من تفاصيل حياتي أمام أنظار الناس. يا صديق العمر العتيق، دع عنك الأسئلة، ودع البصرة لأهلها فهي قد خربت من زمان، وخلينا في برنامجنا لهذا



اليوم وهذه الليلة، سأغادر ستراسبورغ غدا صباحاً إلى جزيرة أراك في جنوب إيران، ومنها إلى كييف، وعلينا أن نقضي الساعات المقبلة بطريقة لا تُنسى، لنفترق بعدها وربما لن يجمعنا لقاء آخر قط، أو قد يجمعنا لقاء في أجل غير معلوم."

حين عدت في اليوم الثاني إلى بيتي في ألمانيا، لم أكن قد عرفت عن عمل أسعد البصري أي تفصيل، رغم قضائنا نحو 14 ساعة معاً في ضحك وكلام وغناء بدد كل أوهامي التي حاول أن يوحى بها إليّ عن عدم اهتمامه بالبصرة ونفطها المهرب بملايين الدولارات.

\*\*\*

كتب لي على ايميلي الشخصي المعلن والمطبوع على كارت الزيارات الخاص بي، معرّفاً نفسه باسم " أمير علوان حيدري " صحفي متخصص في الشأن الإيراني، وطلب أن نلتقي في القاهرة متعهداً بدفع تذاكر السفر والإقامة في فندق ماريوت القاهرة ليلة واحدة.

وصلت مطار القاهرة بعد الظهر قادماً من شرم الشيخ، التقينا، وكما اتفقنا راجعت الاستعلامات وأريتهم حجز الغرفة، فارسلوا موظف الخدمات يأخذ حقيبتي اليها، وقادني شخص آخر الى شرفة رواق مظلة على النيل، تحت سقيفة من قماش شفيف لكنه ظليل. على طاولة مرمرية كبيرة اصطف على جانبيها تختان شرفيان كبيران من خشب ثقيل بني غامض اللون، فيما غطت الأرضية بسط مصرية صغيرة ملونة، وعلى المائدة صينية عملاقة من الفاكهة، وأباريق كروم لامعة للشاي والمشروبات الساخنة، هذا غير صحون المقبلات وهي تغطي المائدة العملاقة. حول الشرفة انتشرت أصص الزهر والأس والميموزا، كما انتشرت بضع فسائل من نخيل الكاريبي القزم. أمام الشرفة يرسو اليخت العملاق سميراميس في مياه النيل الزرقاء.

نهض رجل في الخمسين تقريبا، يرتدي بدلة سفاري عليها علامة لاكوست وينتعل صندلاً جلدياً بجوارب، واستقبلني بذراع ممدودة وابتسامة فسيحة وهو يرحّب بي ويعيد تقديم نفسه وكأنه يؤكد لي أنني قد وصلت الى الشخص المطلوب دون شك، وهو ما نبهني الى إحساسه الأمني العالي.

انسحب موظف الفندق، مغلقاً الباب العملاق خلفها، فبقينا وحدنا في الشرفة الخاصة نستمتع بالحديث وبمشاهدة النيل.

ما إن جلسنا حتى سألني الصحفي إن كنت لا أمانع تدخينه مبينا أنه اختار الشرفة المفتوحة لكي لا يضايقني الدخان، فبادلته ابتسامة مشفوعة بفتح ذراعي والقول " دخن كما تشاء يا سيدي، ففي النهاية يتطاير الدخان في هواء تشرين المطعم برائحة النيل ورطوبته".

لا يخفى عليك أنّ إيران منطقة تهم العالم العربي بشكل متزايد، أنا أبحث عن اتصالات عربية معنية بهذه المنطقة الحيوية، وسأروي لك ما جرى هناك، وقد نتفق بعدها على التفاصيل الأهم.

الموضوع يتعلق بعلاقة إيران بتنظيم القاعدة، فهي الراعي والخصم، وهي علاقة فيها غموض، ما عندي يبدأ كالتالي:

" تردد مير ميرزا رضا كثيرا قبل أن يفتح قلبه لحوار حميم معي. كان قد قضى 35 سنة من عمره البالغ 65 عاما في مخيمات اللاجئين العراقيين في إيران. هو مزيج أفغاني إيراني عراقي، وقد سقرته حكومة البعث في العراق حال أن دبّ الخلاف مع إيران الشاه حول حقوق الملاحة في شط العرب في سبعينيات القرن العشرين. كنت أريد من هذا الشيخ العالمي الراضي بسجنه المجهول الأسباب أن يكشف لي سرّ النساء المنقبات وأطفالهن الذين وصلوا الى مخيم إبراهيم آباد للاجئين العراقيين الواقع شمال شرق أراك عاصمة المحافظة المركزية ( في نيسان عام 2002).

بعد أن قرأ "دعاء كميل" كاملا على مسمعي، مضى شوط طويل من ليلة الخميس، وصرنا نقرب من منتصفها. عليّ أن أعود الى طهران غدا صباحا لأنّ اجازة دخولي المخيم تسمح لي بالبقاء ليلة واحدة. وقد تواريت بصعوبة عن بيت (... ) الذي اتخذت منه ذريعة لزيارة المخيم.

بكلمات تختلط فيها العربية البغدادية بالفارسية بنطق أفغاني غليظ قال مير ميرزا رضا: " هل سمعت بن لادن؟ هنا جاؤوا بعائلته بعد أن حاصر الأمريكان مقره في أفغانستان. هؤلاء النسوة زوجاته، وبعض الصغار أبناؤه وبناته، والفتاتان الكبيرتان يقال إنهما بنتاه من زوجته الأولى."

قاطعته متسائلا، وأنا أدس بضعة من ثمرة افكادوا مغموسة بالعسل و غارقة بمسحوق لوز دقيق في فمي " نحن نتحدث اذا عن بضع من عائلة الملياردير الإرهابي أسامة بن لادن؟"

نعم، أريد أن أذكرك هنا بتقرير خبري فرنسي صدر في آذار/ مارس 2013 وكشف أنّ بين هؤلاء فاطمة، ابنة بن لادن، و4 من أولاده هم عثمان ومحمد وسعد ) ومن العجائب أنّ اسم لادن الذي لا يملك أي جذور عربية يشير بالفارسية الى اسم

زهرة تشبه النرجس). التقرير كشف أنّ المشار إليهم قضوا سنوات طويلة تحت الإقامة الجبرية في إيران، ولكن السلطات الإيرانية ضمنت لهم السلامة والحماية والسرية. مصادر التقرير أكدت أن الاحتجاز لا يعني بالضرورة السماح لهؤلاء بأن يتخذوا من إيران قاعدة لعمليات ترتبط بالإرهاب الدولي.

تناول الكاتب أمير كأسا من بيرة الهالينغن الهولندية، وسكبه في جوفه بشغف ثم أوقد لفافة الثالثة وهو يقول:

لم يفاجئني كلام مير ميرزا رضا، لكن الشكوك في مدى دقة كلام الشيخ العجيب ظلت تعيش معي أسابيع عدة. بعد أعوام، نُقلت القافلة الثمينة بعد تقسيمها إلى منطقة "تجريش" في طهران والى مجمع "برند" السكني الحديث جنوب مدينة كرج (عند رباط كريم)، ولأكثر من مرة شوهدت السيدة الغامضة المخيفة التي ترافق القافلة العجيبة الملقبة بالدكتورة سهام - والتي يعتقد كل من يعرفونها أنها عميلة مزدوجة للمخابرات العراقية (في عهد صدام) والاستخبارات التي تدعى بالفارسية "اطلاعات" الإيرانية- تنتقل بسيارتها من نوع تويوتا برادو مظلمة الزجاج بين تجريش وبين معتقل كهريزك قرب مرقد الإمام خميني جنوب طهران.

وكان بإمكانني بسهولة أن أحس ماذا تريد إيران من احتجاز هؤلاء اذا ما تذكرت أسلوب الجمهورية الإسلامية في احتجاز الرهائن الأمريكيين حتى سقوط إدارة جيمي كارتر في الولايات المتحدة، واحتجازها قيادات المخابرات والاستخبارات العراقية حتى ثبت لها أن الغرب سيُسقط صداماً، فاطلقت سراهم بصفقة غريبة في شباط من عام 2002 فيما كان التحالف الدولي يقرع طبول الحرب ضد نظام صدام حسين.

وهذا يقودنا الى تفصيل سياسي بعض الشيء، فعلاقة الجمهورية الإسلامية في إيران بتنظيم القاعدة غامضة. إذ أن هذا التنظيم يمثل العدو الأيديولوجي الأشد للشيعا الذين يفترض أن إيران تمثل دولتهم الكبرى في العالم. لكن علاقة التنظيم بتشكيلات الحرس الثوري (باسداران) وبخلايا المخابرات الإيرانية "اطلاعات" لا تبدو سيئة البتة.

فقيادة مكتب الارتباط الخاص بتنظيم العلاقات الإيرانية مع التنظيمات السنية المتشددة المسلحة والمسمى "قراركاه قدس" ، تتولى نقل وتمرير قيادات التنظيم

من أفغانستان وإليها عبر محطاتها المنتشرة في باكستان إلى حد كبير وفي مناطق من العراق وجنوب لبنان وسوريا. العلاقة بين الطرفين يمكن وصفها بأنها صداقة لدودة، فالإثنان متباعدا الأهداف، مفترقا الطرق، متعاديان إلى حد التقاتل، لكن القاسم المشترك بينهما هو العداء لأمريكا وهو جسر يساعدهما دائما على تجاوز الخلافات لإلحاق أشد الضرر الممكن بـ "الشيطان الأكبر."

قاطعته برفق متسائلا ومعلقا في نفس الوقت : "ولكن هذه الشهادة تصب في صالح النظام الذي تتسامى براغماتيته المخابراتية فوق الأيديولوجيا الشيعية التي ما برح يعلنها"؟

رد برفق وهو يعبّ مزيدا من الجعة التي تقاطرت حبيبات مغرية شهية على زجاجاتها المصفوفة بعناية في حوض ثلج أنيق من الكروم ينتصب على الطاولة: يمكن أن يُفسر هذا بأنه براغماتية الدبلوماسية الخارجية الساعية إلى تصدير الثورة الإسلامية وهو هدف مشترك للجمهورية وللقاعدة، حتى أن الجانبين غالبا ما يوحدان جهودهما وينسقانها باتجاه أعدائهما التاريخيين المفترضين. وفي مواقع كثيرة، ساعدت عناصر متنفذة في القاعدة، عناصر ناشطة من الجمهورية الإسلامية في إيران على النفوذ إلى السعودية والبحرين واليمن، وذلك بشكل لا يمت إلى المنطق بصلة في ظل حرب السعودية الضروس على إيران وحوثيها في اليمن.

هذه البراغماتية ليست غريبة بتاتا، فقد قامت الثورة الإسلامية في إيران "انقلاب 57 بهمن" بتحالف بعض الإسلاميين مع قوى اليسار الإيراني : حزب توده "الشيوعيون"، فدائيو الشعب (بجناحين)، مجاهدي خلق، اتحاد الطلبة الجامعيين في إيران، والجبهة الشعبية الإيرانية "جبهه ملى إيران"، وأجنحة من حزب العمال الشيوعي في كردستان إيران. ثم ظهر تحالف علماء الدين وحزب جمهوري اسلامي فيما بعد لموازنة كفة الأحزاب اليسارية. وهكذا فإن المشروع السياسي الإسلامي الإيراني لم يأنف أن يتحالف مع اليساريين الملحدين لإسقاط الشاه، ثم انقلب عليهم وانفرد بالسلطة بعد أن صفاهم بالقتل والسجن والتشريد.

كي لا نبتعد عن أصل الموضوع، هل أفهم من كلامك أن إيران تأوي عناصر القاعدة وتدعمهم؟

ابتسم للسؤال وقال : لا أقول أنا، إسمع ما أكده جوناثان إيال رئيس قسم الدراسات الأمنية في المعهد الملكي للخدمات المشتركة في بريطانيا من أن إيران قد منحت اللجوء لعناصر عدة من تنظيم القاعدة بعد عام 2001، بما في ذلك عناصر من قياداتهم، مستدركا أن حق اللجوء لا يشمل بأي حال حق النشاط التخريبي أو السياسي أو (التبليغي بلغة الإسلام السياسي).

وذهب تقرير لوكالة الأنباء الفرنسية صدر في نيسان/ أبريل عام 2013 الى أن صهر بن لادن المدعو "سليمان أبو غياث" قد أبعده من إيران إلى تركيا ومنها إلى الأردن حيث اعتقل وسُلم الى الولايات المتحدة الأمريكية ليواجه القضاء. وحقبة أن إيران سلمته إلى تركيا بدلا من أن تسمح له بالتنسلل إلى باكستان، كما سبق أن فعل عدة مرات خلال السنوات السابقة، هذه الحقيقة تكشف عن توتر العلاقة بين السلطات الإيرانية وبين تنظيم القاعدة على خلفية دورهما في الحرب بسوريا وملابسات مقتل أسامة بن لادن.

قلت معترضا : مقتل أسامة بن لادن ما زال يحف به الغموض، ولست أظن أن لقاءنا القصير هذا قد يكشف عن جوانب خفية مهمة فيه؟

أجاب وهو يبتسم ويعدّل من وضع جلوسه ماذا جسده على الأريكة "معذرة ، اسمح لي أن استلقي وبوسعك أنت أيضا أن تفعل ذلك؟" الحقيقة أنني صحفي وقد جمعت خيوطا مما جرى في القصر الريفي بباكستان والذي قتل فيه بن لادن، حيث أن رسائل عُثر عليها في (أبوت آباد) -حيث قُتل أسامة - قد كشفت عن شكوك زعيم القاعدة في أن إيران تلعب دورا مزدوجا في المنطقة (متحالفة مع القاعدة والتنظيمات المتشددة السنية في بعض الأحيان، وواشية بها لمكاتب السي آي إيه المنتشرة في الشرق الأوسط عبر عملاء عراقيين وأفغان في أحيان أخرى). وفي هذا الصدد تحدث بن لادن عن دور إيران في الوشاية بابنه سعد الذي قتلت طائرة درون أمريكية أثناء عبوره الحدود من إيران إلى باكستان.

بل إن صحيفة "واشنطن بوست" في عددها الصادر في 12 شباط/ فبراير 2014 كشفت عن مغادرة أحد أكبر قياديي القاعدة الناشطين مؤخرا لأراضي إيران التي كان قد وصلها قادماً من أفغانستان عشية الهجوم الأمريكي على نظام طالبان عام 2001.

تقرير واشنطن بوست استند إلى معلومات صادرة عن مصدر في سي أي أيه رفض الإفصاح عن هويته واسمه، وهذه المعلومات كشفت أن مغادرة " ثروت شحاته" لأراضي إيران تثير أسئلة عن دوافع هذه الدولة في إرغام هذا العنصر المفصلي في قيادات القاعدة على مغادرة أراضيها رغم أنها قد أوته وغطت عليه طيلة عقد من الزمن.

وختم كلامه متسائلا : أمل أن أكون قد أفدتك بكل هذا الحديث؟

نعم بالتأكيد، وأنا بدوري أمل أن أتمكن من مساعدتك، إذ لم افهم حتى الآن ماذا بوسعي ان افعله لك كما أسلفت في البداية؟

طبعا، ولهذا اجتمعنا هنا، لكن دعنا نخرج من هذا المكان، وسأذهب معك الى مكان في داخل القاهرة لنلتقي بشخص يهمني أن تحاوره، هل هذا ممكن؟

نظرت اليه بريية ثم قلت: نحن اتفقنا أن نلتقي في هذا المكان، وأن نتحدث هنا، لذا لا أفضل أن أذهب الى أي مكان آخر. أما عن التحدث الى شخص آخر، فبودي أن أعرف من هو أولا، وعليّ أن أطلب موافقة من يدفعون لي لأجري الحوار، فقل لي اذا من هو؟

إنه قيادي في جماعة الاخوان المسلمين وأسمه عبد الحليم عبد المجيد، الى هنا يبدو الموضوع عاديا ويخلو من الإثارة، لكنّ هذا الشخص هو من المستبصرين( السنة المتحولين الى شيعة) ، وقد عاش في إيران 15 عاما، وعاد الى مصر بعد ثورة 25 يناير 2011 ، وظهر فجأة كقيادي في مكاتب الإخوان المسلمين في القاهرة، وخصصوا له مساحة اهتمام واسعة، رغم أنّه متشيع ودرس وكبر في إيران. هذا الشخص هو عزّاب زيارة محمود أحمددي نجاد الى مصر، هل تذكر حين زار محمود أحمددي نجاد القاهرة في 5 فبراير 2013 للمشاركة في القمة الإسلامية؟ تلك كانت واقعة خارقة حيث كان الرئيس المصري المسجون حاليا محمد مرسي على رأس مستقبلية في مطار القاهرة في مراسم استقبال رسمية. تلك كانت أول زيارة لرئيس بعد ثورة خميني عام 1979 التي كانت سببا في قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

المثير أنّ هذا الشخص هو عراب ذلك اللقاء، أما كيف، فهذه القصة يجب أن تسمعها منه، أنا أضعك في اتصال معه، واطنه متشوق أن يسرد لك كل ما عنده، أو على الأقل كل ما يريد أن يكشف عنه، ما رأيك؟

أعطني ساعتين، استحم فيها واجري اتصالاتي وأرد لك الجواب، ربما يكون مكان اللقاء سببا للرفض، فهل يمكن أن نعقد لقاءنا به هنا، في هذه الشرفة الجميلة هذه الليلة مثلا؟

لا أستطيع أن أجيب عنه، فأنا أيضا يجب أن أسأله، ردّ لي الخبر أولا وسنحاول ترتيب الأمر بالاتفاق.

\*

جاءني الردّ سريعا وحاسما: " خذ وقتك معه، ومن الضروري تأسيس اتصال بهذا الشخص وتأمين حوار معه".

وحين كلمت الصحفي أمير، أجرى اتصالاته وعاد لي بعد نحو ساعة بعرض آخر " نلتقي عصر يوم غد في فندق ارابيان نايتس في القاهرة وسيأتي لوحده يقص عليك ما عنده لمدة ساعتين ، ما رأيك؟"

أين هو فندق " ارابيان نايتس"؟

هو فندق 4 نجوم في مركز القاهرة، واسمه العربي هو فندق "سيدنا الحسين"، وينزل فيه السياسيون الاسلاميون وضيوفهم، في مركز القاهرة لكنه يقدم خدمات درجة أولى لضيوف من مختلف أنحاء العالم، يمكنك أن تراه على النت الآن.

اجريت بحثا سريعا على النت، ورأيت الفندق ومكانه، فأخبرته بموافقتي. ثم اتصلت بخلود وأبلغتها أنني سأبيت ليلة أخرى في القاهرة، كما هاتفته شخصا آخر وأبلغته تأجيل لقائي به المتفق عليه يوم غد ليلا الى موعد آخر.

تلك الليلة التقيت ثانية بأمير، وأخذنا يخت سميراميس في سهرة برحلة نهريّة عبر النيل، وألهب مغنٍ ومغنية وراقصات شرقية تلك الليلة. حين عدنا الى الفندق كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا.

\*



قضيت صباحي في تصنيف بعض ما وصلني من معلومات، ثم تناولت طعام الغداء ومع مضيفي وتجادبنا أطراف الحديث عن خبراته في الملف الإيراني، فلمح لي أنه يعرف تفاصيل عن مشروعهم النووي لكنه لا يود كشفها ما لم يحصل على بعض الأرباح. لم أجه، بل تركت الفضاء مفتوحاً بيننا لأرى ما يمكن عمله ولأرى مدى حماسه لبيع ما عنده ومدى جدواه، أغلب المعلومات المتعلقة بالأسلحة وبرامج التسليح التي تأتي من وشاة ومخبرين غير حقيقية ومظلمة، ولست متأكداً أن أحداً سيهتم لما يعرضه هذا الصحفي.

بعد الظهر، أقلتنا سيارة أجرة إلى فندق "سيدنا الحسن" الذي تشبه بوابته مدخل مسجد، كما تدل أغلب نوافذه المؤصدة على نوع ضيوفه. دلفنا إلى الاستقبال وكلمناهم عن موعدنا فقادنا أحد الموظفين إلى شرفة عربية فوق السطح. ودلفنا لنجلس على تخوت عربية بانتظار وصول ضيفنا. بعد عشرين دقيقة وصل شخص قصير القامة، يرتدي بذلة بموديل قديم، رمادية اللون، وتحتها قميص أزرق بياقة مفتوح زرها الأعلى فحسب، وتغطي وجهه لحية خفيفة وليست لحية على الطريقة السلفية، ومد يده مصافحاً وهو يقدم نفسه بابتسامة محببة لكنها غامضة: عبد الحلیم عبد المجید. صافحته، ثم صافحه أمير وجلسنا .

ابتسم وهو ينظر إليّ بشك ثم شرع يقول: لنبدأ من حيث قصتك.

قلت له: ما يهمني هو هذه التوليفة الغربية في شخصية قيادية اخوانية شيعية قادمة من إيران، لكن لننتقل إلى إيران، ما هي انطباعاتك عن بقايا إمبراطورية تضم أمما شتى، حيث يشكو كردها وعربها وبلوشها ظلم القومية، ويشكو سنتها ظلم شيعتها، ويشكو مسيحيوها ظلم مسلميها، ويشكو زرادشتيوها ظلم إسلاميها، ويفر بهائيوها بأرواحهم هرباً من قوانين دولتهم الجائرة، فيما تشكو مدنها تسلط أريافها؟

قال وهو يختلس النظر الي كآني قد أشي به للسلطات ! أنت يا سيدي مطلع تماماً كما يبدو على المشهد الإيراني لكن دعني أقول لك ما أفرزته خبرتي في هذا المجال من خلال 15 عاما قضيتها متنقلاً بين المدن المختلفة ولاسيما قم ومشهد

، لقد وضعت الجغرافية إيران في عين عاصفة التاريخ، فتظافر عاملان تخلف دائما عنهما عنصر الحياة - الماء- الشحيح في هذه البلاد. والتعدد، وهو سمة تميّز أرض فارس التي لا يشكل الفرس سوى 63 بالمائة من مكوناتها، لذا يصبح الحديث عن الشعب الفارسي والحضارة الفارسية وأرض التشيع مصادرة لحقائق التاريخ وابتزازاً لحق الجغرافية.

يصرّ الإسلاميون في إيران على تلقين الشعب لقب الدولة الرسمي "الجمهورية الإسلامية في إيران" لكن الشعب يرفض ذلك في الغالب. بل إنّ العالم - وخاصة على مستوى الصحافة والإعلام وأروقة السياسة - يتعامل مع مصطلح إيران كوصف نهائي لكتلة الجغرافية والتاريخ التي حملت الوصف عبر مئات السنين. ورغم ضغط الخارج الدولي والإقليمي، علاوة على ضغط قوى الرفض والمعارضة في الداخل، فقد نجح الإسلاميون في أن يبنوا بلدا قويا وصناعة متينة واقتصادا لا ريعيا متنوع المصادر وهذه كلها أثبتت فاعليتها حين عجزت 10 سنوات من الحصار الدولي عن ترك أي تأثير على الاقتصاد الإيراني(رغم تدني سعر صرف الريال داخليا وخارجيا بشكل سريع).

أسمعُ في لهجتك تذكرا من المشروع الإيراني الإسلامي؟ كيف هذا وقد عشتَ في كنفهم وتربيت على عقائدهم، بل واخترت التشيع طريقا لك؟ اخترت التشيع لأنني غريب، ولا سبيل لغريب غير شيعي أن يعيش برحاء في هذا البلد ، إنها الشفرة السحرية " شفرة دافنشي" بلغة اليوم.

دعني أقول لك من يحكم هذا البلد: إنهم الأذريون الترك، وهم القوة الخفية في "الجمهورية الإسلامية" ويحملون الورقة الراححة، فمنهم "مرشد الثورة" علي خامنئي ( ويلقّب على المستوى الرسمي مقام معظم رهبري) واللقب نفسه يثير اشكالات كبرى وانقسامات داخل المجتمع الإيراني، فكثيرون يرفضون النطق به ويكتفون بالقول خامنئي، أما المتدينون الراضون للقب الإمبراطوري الإسلامي فيقولون باختصار " سيد علي".

الأذريون هم العمود الفقري لقوات حرس الثورة "باسدران" وللجيش الإيراني ) فمنهم أغلب المتطوعين في صفوف الجيش وبذلك فإن نسبة كبرى من ضباط

الصف في الجيش النظامي هم آذريون). كما إنّ كثيرا من رجال ونساء " الجمهورية الإسلامية" وأذرعها الضاربة والقوية هم آذريون.

الآذريون في إيران يدرسون الفارسية في مدارسهم، ويعتبرونها لغة العمل ولغة التعايش مع سائر وطنهم إيران، ولكنهم في بيوتهم وقراهم ومدنهم يتكلمون الآذرية بتأثيرات مختلطة اكتسبوها من جوارهم الفارسي أو التركي أو العربي بشكل أقل.

ولكن هذا التكوين الغريب، سهل للآذريين النفوذ في مراكز القرار الإيراني العليا ، خاصة بعد قيام الجمهورية الإسلامية عام 1979، إذ تسلق هرم النفوذ مئات منهم، وبناتوا يمتلكون ناصية القرار في مناح كثيرة، وفي النهاية ، وفي عام 1989 تربع آية الله العظمى علي خامنئي ( الآذري القادم من ناحية خامنه شمال غرب مدينة آراك عاصمة محافظة "استان مركزي" التي تضم اليوم مفاعل آراك النووي المثير للجدل) أعلى هرم السلطة في إيران بعنوان " مرشد الثورة" مستفيدا من ذراعه المعاق وعينه الزجاجية البديلة التي حصل عليها في تفجير ميكروفون كان يخطب خلاله حين كان رئيسا لجمهورية إيران في ثمانينات القرن العشرين نفذته منظمة مجاهدي خلق القوية آنذاك، تربع خامنئي اعلى هرم السلطة بوصية الخميني فتح الباب لمزيد من النفوذ التركي الشيعي في إيران الفارسية الشيعية ! هذا الوضع المزدوج لم يخلق حالة تململ في أوساط الآذريين، ولم تتصاعد أي أصوات مطالبة بحقوق قومية للآذريين، لكن وفي المقابل تصاعدت أصوات فارسية كثيرة تندد بالنفوذ الآذري الخفي الذي يسحب البساط من تحت أقدام المكوّن الفارسي الذي يرى نفسه سيد إيران تاريخيا بلا منازع .

قاطعته مرة أخرى متسائلا: هل تقول لي إن الطبقة السياسية العليا في إيران آذرية، على طريقة التكراتة في العراق زمن صدام حسين، والعلويين في سوريا على طريقة الأسدبن الأب والأبن؟

ليس بهذا الشكل، بل إنهم العمود الفقري لجيش ايران اليوم، فهم يشكلون قاعدته من صغار الضباط وضباط الصف والجنود، بنسبة تصل الى 60% ( حسب تقديرات غير رسمية). ولكن هذا لا يعني أنّ سلك كبار الضباط يخلو منهم، فهناك أعداد كبيرة من الجنرالات الآذريين في جيش الجمهورية الإسلامية، وهم يدينون

بالولاء المطلق للخامنئي . والملفت للنظر هنا، أنّ أشد منافسي خامنئي على السلطة مير حسين موسوي الذي قاد الحركة الخضراء، هو الآخر آذري من منطقة خامنه التي تحدر منها خامنئي نفسه. بين هذين القطبين المتنافرين ينشط عدد كبير من الشخصيات السياسية والعلمية والعسكرية في مختلف أنحاء إيران. النقطة غير المرئية الأخرى والتي تكشف حجم نفوذ الأذريين غير المرئي هي سيطرتهم على خدمة أهم مَعلمين دينيين شيعيين في إيران، وهما الحرم الرضوي في مشهد، وحرم السيدة معصومة في قم.

وهكذا فإن أي تغيير في أعلى هرم السلطة في إيران يمكن أن يحدث اختلالا اثنيا وانشقاقا مجتمعيا قد يشعل حربا أهلية فيها.

أقاطعه بلطف محاولا جره إلى أحداث أكثر حداثة وأقل عمومية، هل زور الإسلاميون انتخابات عام 2009؟

رغم أنّ وسائل الاعلام العربية والدولية بشكل عام تصرّ على القول إن الإسلاميين قد زورا الانتخابات الإيرانية، فإن هذا يبقى ادعاء عارٍ عن الصحة. حقيقة تلك الانتخابات أنّ المدن الإيرانية الكبرى لم تصوّت للإسلاميين ونفوذهم، وذهبت لتصوّت للإصلاح الإسلامي السياسي. والتظاهرات الكبرى التي رأيناها في المدن، وواقعة اطلاق النار على المتظاهرين التي أدت الى مقتل طالبة الموسيقى ندا اغا سلطان في شوارع طهران كمثل صارخ، هي اثباتات اعلامية حقيقة تثبت رفض سكان الحواضر لجمهورية الإسلاميين الريفية.

لكن ما لم يره الإعلام غير الإيراني وجمهوره، أنّ الريف برمته صوّت للإسلاميين، وهذا يجعل النسبة بحدود 65% من الشعب مع الإسلاميين (سكان الريف الذين تسميهم أدبيات السياسة الإيرانية "مناطق محروم كشور")، وما تبقى راوح بين انتخاب الإصلاحيين وبين الحنين لاستعادة المجد الشاهنشاهي .

قلت له من وحي معرفتي بكثير من الإيرانيين في المهجر: لكن ما نراه من الإيرانيين في الخارج شيء آخر تماما، انهم متفاعلون ذائبون في قيم العالم الغربي، وتحديدًا في القيم الأمريكية، فهل نحن أمام نوعين من الإيرانيين؟

إنه في الحقيقة انقسام حاد في نسيج المجتمع، فبتنا نرى الإيرانيين داخل إيران والإيرانيين خارجها. الإيرانيون المهاجرون ينتمون غالبا الى الطبقة الوسطى

والطبقة المرفهة، لكن على المراقب أن يخوض بحذر في هذا الميدان، فالحدود بين هذه الطبقات وألوان نسيجها معقدة.

الا ترى أنّ النساء الايرانيات المسافرات وحال مغادرة الطائرة الأجواء الإيرانية يذهبن الى مرحاض الطائرة ويتخلصن من كل قطعة ملابس تنتمي الى الحجاب الإسلامي؟ وهو ما بات الشباب الرجال أيضا يفعلونه. انتزاع مظهر النظام السياسي الإسلامي هو أول إعلان لطلاق المسافرين مع كل ما ينتمي الى الدخل، وهكذا تنمو الفجوة بين الشعبين ! أهل الخارج يضعون كل أهل الداخل في سلة الولاء للنظام والانصياع له، بالمقابل فإنّ أهل الداخل يضعون كل أهل الخارج في سلة قلة الوطنية والولاء لأمريكا على وجه الخصوص.

اتفق معك وبوسع أي مراقب لوضع المهاجرين في الولايات المتحدة والعالم الغربي أن يميز بسهولة الإيرانيين عن غيرهم، فهم الأكثر انسلاخا عن منظومة القيم الأخلاقية والمجتمعية الإسلامية في العالم. ولكن ورغم الحديث عن 5 ملايين إيراني مهاجر لا يملك هؤلاء أي قوة معارضة حقيقية تهدد النظام الإسلامي، هل هي قوة النظام أم ضعف المهاجرين؟

كلاهما، إذ لا يجد المرء أي إيرانية محجبة خارج إيران، كما لا يجد أي إيراني متدين خارج " الجمهورية الإسلامية " وهو ما يختلف جذريا عن وضع المسلمات المهاجرات من العالم العربي والإسلامي. الإيرانيون هم الشعب المسلم الوحيد الذي لا يملك مساجد في الخارج، وإيرانيو الخارج لا علاقة لهم بالإسلام خاصة ، وأقول هنا إن هذا يدعو المتخصصين لدراسة ظاهرة رد فعل الشعوب لضغوط أحزاب الإسلام السياسي في البلدان التي تملك فيها تلك الأحزاب زمام السلطة، ولعل في مصر بعد سنة مرسى والإخوان كما تسموها في الإعلام الغربي مثال عربي حي على هذه الظاهرة.

يبدو أنّ الإصلاحيين قد نجوا في التخفيف من دعوات تصدير الثورة التي تصدرت المشهد خلال عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، كيف تصف ذلك؟

هم يعملون وفق مبدأ شراء المكونات المولية للسلطة عوضا عن الملايين المهاجرة الراضة للإسلام على طريقة الماللي، وقد صادق مجلس الشورى

الإيراني خلال شهر نيسان/ ابريل 2016 على قانون يتيح للحكومة منح الجنسية لعائلات أجانب قضاوا خلال قتالهم "لمصلحة البلاد" أثناء الحرب العراقية الإيرانية والحروب التي تدور رحاها حاليا في سوريا والعراق. ويعني تعبير "مصلحة البلاد" أنّ القتلى قضاوا في سبيل قضية نشر الإسلام السياسي على الطريقة الخمينية.

ويمكن أن يسري هذا القانون على "المتطوعين" الأفغان والباكستانيين الذين قتلوا خلال المعارك إلى جانب القوات السورية، وأنت مطلع حتما على ما تنشره وسائل الإعلام الإيرانية بانتظام عن مقتل متطوعين أفغان وباكستانيين في سوريا والعراق، ويجري دفن جثثهم في إيران.

هم يعملون على طريقة شراء الولاءات، كما فعل صدام حسين في العراق وآل الأسد في سوريا، أي منح الامتيازات لذوي الولاء المحسوم بغض النظر عن أصولهم، هل هذا ما ترمي إليه؟

نعم، وقد فعلوا ذلك منذ أيام الحرب العراقية الإيرانية، فقد قاتل الوف المهجّرين العراقيين (الذين هجّروهم وعائلاتهم صدام حسين من العراق بتهم التبعية الإيرانية على مدى 3 عقود)، علاوة على الوف المنتمين لأحزاب الإسلام السياسي الشيعية التي عارضت سلطة صدام، واختارت أن تقف الى جانب "الجمهورية الإسلامية" في حرب السنوات الثمان، وقاتل معهم بضع مئات من المقاتلين الأفغان وهم في الغالب من المهجّرين من العراق أيضا، كل هذا الخليط قاتل الى جانب نظام الجمهورية الإسلامية ضد العراق. كل الأحياء من أولئك وكل أسر من قُتلوا منهم، يتمتعون بحقوق مواطني الدرجة الأولى في إيران، وتسنّم منهم البعض مناصب عليا في الدولة .

وتتبنى حكومة "الجمهورية الإسلامية" نفس الموقف من مقاتلي حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله في لبنان، اذا تمنح عائلات قتلاهم امتيازات داخل إيران، تصل الى مستوى منحهم الجنسية الإيرانية، ومنحهم وحدات سكنية في مشاريع السكن العملاقة التي تقيمها الحكومة والبازار على أطراف المدن فتقوي الاقتصاد، وتحل أزمة السكن وتشتري ولاءات ملايين المنتمين لمشروع "الجمهورية الإسلامية" التي تمثل إيران أولى حلقاتها بانتظار اكتمال حلقات السلسلة الأخرى .

وإذا اردت أن تسألني عن خبرتي الشخصية، فقد تولى عناصر من الاطلاعات الايرانية طيلة فترة مكثي في ايران تأمين مواردني المالية، في حين كنت اشتغل بمركز أبحاث تابع لوزارة الخارجية وأشرف على تحرير مجلة تصدر بالعربية لتحسين العلاقات بين إيران وجيرانها العرب. هم كانوا يدفعون لي مقابل أن أروج لقضاياهم في العالم العربي.

سؤال حيوي يتعلق بتطورات الوضع هذه الايام، سمعت عراب زيارة الرئيس الإيراني محمود أحمدني نجاد الى القاهرة في 5 فبراير 2013 للمشاركة في القمة الإسلامية، ما صحة هذا التقييم لقدراتك؟

لا سبيل للبحث في تفاصيل هذا الموضوع يا أخي، لكنني أحد المصريين القلائل الذين يتقنون اللغة الفارسية، والوحيد الذي يملك علاقات بمستوى مدراء عامين في وزارة الخارجية الإيرانية، والمصري الإسلامي الوحيد الذي تعامل مع مفردات وخفايا المشهد السياسي في إيران، لذا لم يكن مستغربا أن تطلب مني الخارجية المصرية تأمين قنوات الاتصال مع الجانب الإيراني لتأمين الزيارة، أما التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالمبادرة نفسها ومن بدأها ومن أطلقها وكيف استجاب لها الطرفان، فليس من الصلاح أن أبوح بها لأحد في هذا المقطع من التاريخ.

امتد الحوار بيننا وتشعب، فكان لابد من استراحة لشحن طاقاتنا، نحن بحاجة الى فاصل غذائي وهذا ما أعلنته.

فقال مضيفنا الشيخ عبد الحليم، نعم لابد من استراحة، وأريد أن أصلي المغرب، أنا بالمناسبة صائم ولا بد أن أفطر بعد الصلاة، وأدعوكم لأن نفطر معا، هل تمانع في ان نفطر معا؟

بعد صلاة المغرب، التقينا حول مائدة افطار شرقية حرّكت في ذهني ذكريات بعيدة من ماضٍ اترعته الطقوس الشرقية الإسلامية. وما إن أتمّ الشيخ عبد الحلیم افطاره، حتى سارعت أسأله مرة أخرى:

إيران لا تبدو لي عن بعد دولة متماسكة، رغم أنّ ما يميزها هو مساحة شاسعة من تفاوت بين تاريخ متحضر عريق طالما وضع شعوب أرض فارس في حروب اطماع ملوكها الغزاة ضد أمم الجوار، وبين تاريخ أعقب الهزيمة أمام غزو عرب البادية وهم يحملون سيوف ورايات الإسلام ليقهروا بها التحضر الامبراطوري. كأنّ إيران مهد لتفاوت وتباين واختلاف لا ينتهي، ولا يسع المراقب الا أن يتساءل، كيف بقي هذا النسيج ملتحمًا كل هذه القرون؟

مد ساقه وهو يستند الى ذراع التخت العربي ويمضغ بقايا أدام في فمه، وقال:

بالعكس، أنا أرى هذا البلد متماسكًا، وإذا شئت المقارنة فهو متماسك كما روسيا الشاسعة المتباينة، وكما تركيا الكبيرة التي قضت اطرافها لتصبح كما نراها اليوم، ولكن دعني أبين لك أين تكمن أبرز علامات التباين السياسي المجتمعي. إنها تكمن في صراع المدينة والريف، فالحوضر الكبرى في إيران تشمل 8 مدن مليونية بينها أربع عواصم لأربع ممالك شاسعة. طهران (تهران) العاصمة القاجارية البهلوية الإسلامية يتراوح عدد سكانها بين 10 ملايين نهارًا و8 ملايين ليلاً، ومن الغريب أنّ الجمهورية الإسلامية التي غيرت كل شيء لم تفكر أن تتخذ لنفسها عاصمة جديدة تناسب وضعها الإسلامي رغم أنّ في البلد مدينتي مشهد وقم المليونيتين وتصلح كلّ منهما أن تصبح عاصمة الدولة الشيعية.

إنها امبراطورية تمتد على مساحة شاسعة بحضن آسيا، تضم أصداد وتناقضات مجتمعية ونسجية واخلاقية وقيمة قلّ نظيرها، ويتجلى ذلك في اطرافها البعيدة عن المركز الفارسي - الأذري ( آزرى ) غالبًا.

في مشهد يتجلى فشل سلطة المعتمدين على مدى أربعة عقود من عمر دولتهم، فولاية خراسان (أستان خراسان) المطلة حافاتها على باكستان وأفغانستان وتركمانستان، تضم مدينة مشهد (الطوس) التي فيها مرقد الإمام علي بن موسى الرضا. ويقترّب عدد سكانها اليوم من 3 ملايين نسمة، تعيش رسميًا على السياحة



الدينية، وعلى إنتاج السجاد، وزراعة القمح لكنها مركز لحواضر مجاورة في إيران وفيما حولها وتمثل رأس ممر طريق الحرير القديم، الذي بات اليوم ممرا لتهريب المخدرات وقطع السلاح وكل بضائع آسيا الشرعية وغير الشرعية تقريبا . أرضها حقول لورد الزعفران، وهو واحد من أغلى المحاصيل في العالم. ورغم أنّ ولاء أهل مشهد ( الشيعة غالبا) ينبغي أن يعد محسوما للحكومة الإسلامية، لكن مشكلات المخدرات وما يتفرع عنها من تجارة الأعضاء البشرية وبيع المدمنين لزوجاتهم وبناتهم وأخواتهم تجرح ولاء المدينة للسلطة وتجعلها إحدى المدن النائية ( 13 ساعة عن طهران بالسيارة) المثيرة للمشاكل.

اقاطعه وهو يمضي مستطرداً في سياحته الديموغرافية: ولماذا قلت إنّ مشهد هي مظهر فشل المعممين؟

لأنهم سعوا جاهدين أن يجعلوها بديلا عن مدينة النجف في العراق التي يقدها الشيعة عبر العالم، محاولين الاستفادة من اسقاطات سياسية كثيرة حاولوا إضفائها على مشهد ساعين الى نقل المرجعية الشيعية إليها باعتبارها تضم أحد مدافن أئمة الشيعة، لكنّ المرجعية الشيعية العراقية أفضلت جهدهم.

ومن عجائب الصدف أن يقع في جنوب مشهد إقليم سيتسان وبلوشستان "أستان سيستان و بلوچستان" الذي يتحدر من احدى قراه المرجع الشيعي الأعلى عبر العالم علي السيستاني. أهل سيستان في الغالب شيعة، وأهل بلوشستان في الغالب سنة، لذا ربطت الحكومة المركزية الولايتين في ولاية واحدة لتخفيف الفرق وتغليب المذهب الأكبر.

وتسكن إثنية البلوش في مناطق الحدود مع افغانستان وباكستان ولغاتهم البلوشية و البراهوئية و الرخشانية، وأغلبهم من السنة، وعاصمة هذا الإقليم مدينة زاهدان البالغ عدد سكانها نحو نصف مليون نسمة، هم خليط مختلف غريب من أمم تجمعت في مركز واحد يصدر ويمرر ويستورد "الجهاديين"، والراغبين في الهجرة من الأفغان، وتجار المخدرات من أفغانستان وباكستان، وكل أنواع القراصنة في بحر العرب وجنوبه.

مناطق بلوشستان وزاهدان تضم معابر المخدرات والخدمات والمومسات والعمالة والسلع الرخيصة الآسيوية كافة الى شواطئ الخليج لتتجه الى دول

الساحل الغربي العربية الغنية أو لتواصل الإبحار الى أمريكا وأستراليا والعالم العابر للمحيطات، أو أنّ تلك المهرّبات المطلوبة في أواق العالم السفلي تتجه غرباً موعلة في السير عبر تركيا ومنها الى أسواق أوروبا عموماً.

هذا لا يعني طبعاً أنّ الاقتصاد الإيراني الرسمي يعيش على المخدرات وقائمة المهربات الممنوعة، فحكومة الجمهورية الإسلامية تحارب هذه المصالح غير القانونية بشكل شرس، وتشنق المهريين على الرافعات علناً في الشوارع - وتشنق معهم كل المعارضين للجمهورية الإسلامية بتهمة تهريب المخدرات "قاجاق مواد مخدر" - وتتلف المواد المهربة في حملات علنية تحرق فيها أطنان من المخدرات قيمتها مليارات الدولارات، لكن كميات كبيرة تتخلف عن هذه الأطنان المحروقة فتتسرب مواردّها الى جهات غامضة.

ليتك حدثتني عن المشهد السياسي في إيران، كيف رأينا مفاجأة الثورة الخضراء، من أين ظهرت الأصوات المعارضة، هل توجد معارضة أصلاً في بلد المعممين؟

نعم توجد معارضة، وفي هذه المناطق التي ذكرتها بالذات تنشط أحزاب سنية دينية، يغلب عليها التوجه السلفي .

دعني استوقفك هنا، فقد التقيت قبل مدة بمعارض إيراني من الأحواز، وهي الجزء العربي في إيران، وتحدث عن ظلم كبير يلحق بعرب الأحواز السنة خاصة، وتحدث عن خذلان عرب الخليج لهم، ما قصة جنوب إيران العربي، ولماذا هو منسي ولا يمر عليه العرب رغم خلافهم مع دولة المعممين الشيعة؟

مرة أخرى وشت به نظرتة الشبحية المذهولة وكأني أوشك أن أدلّ عليه السلطات، وما لبث أن قال: جنوب إيران على وجه الخصوص يصعب رسمه جغرافياً، فهو صغير مدبب ينتهي بالحدود الباكستانية على أعالي بحر العرب، لكن تنوع الديموغرافية يمتد صعوداً مع سواحل شرق الخليج وصولاً الى البصرة جنوب العراق. جنوب هذه السواحل يتكلم الناس اللغة البلوشية والجدگاليالدرية متأثرين الى حد كبير بلغات جنوب غرب باكستان، وأغلبهم من السنة.

ابتداءً من بندر عباس وجزيرة كيش تصبح العربية لغة أهل المنطقة التي تسكنها قبائل عرب الأحواز - (ويسمونها الإيرانيون أهواز بالهاء وينكرون على العرب حاءهم التي يدعونها "هاء حسني") وهي عموماً مختلطة بأقوام أخرى. هؤلاء

العرب أغلبهم من السنة ولا يدينون بالولاء للجمهورية الإسلامية بل يرون فيها نظاماً يصادر عروبتهم ويلغي هويتهم المذهبية، لكن الأغنياء في هذه المناطق لهم مصالح مشتركة عبر الخليج وفي البازار الموالي للحكومة المركزية، وتتحرك رؤوس أموالهم العملاقة عبر المياه الدافئة الى كل العالم.

وصولاً الى مناطق حدود العراق، تكون العشائر الساكنة على طرفي الحدود) كعب، مالك، السواعد، طرفة، بني لام، الزرقان، السود، البيض، بني تميم، زبيد، وقبائل اخرى كثيرة) في الغالب شيعية، وهنا أيضاً انقسام سياسي قومي، فقد نجح صدام حسين في استمالة بعض هذه العشائر فسلّحها وزجها في الحرب ضد إيران، وبعد انتهاء الحرب عام 1988 أسكنها مناطق غرب العراق (الرمادي والخالدية) وكان يخطط لحشدها ضد إيران في المستقبل)، بعد اسقاط صدام، ارتبكت أوضاعهم وهاجر كثير منهم إلى بلدان عربية واوروبية ومن بقي منهم احتشد مع بعض عشائر المنطقة التي بايعت تنظيم الدولة الإسلامية.

اليوم، لدى عرب الأحواز أحزاب سياسية سرية تعارض النظام لكن أغلبها ينشط خارج إيران. في الداخل يوجد نشاط فردي سياسي تقمعه السلطات بقوة.

كإجراء مضاد، نجحت السلطات في اعداد وتجنيد كثير من وجوه قبائل عرب الاحواز وجعلتهم في مناصب قيادية حاسمة، ولعل أشهرهم هو الأميرال علي شمخاني أمين مجلس الأمن الإيراني.

لم اتوقع ان يكون العرب بهذا الانقسام والتباين في إيران، كنت أظنهم شيعة على الإطلاق، بل أني سمعت مرارا من أهل العراق الذين عاشوا على حدودهم أنه شيعة، هل غيروا مذهبهم؟

لا ، ولكن جغرافية وديموغرافية التنوع الإيراني حتمت اختلافهم.

اضافة إلى العرب فإن الاكراد في ايران عموما ضد السلطة ولهم قضيتهم على مدى التاريخ. هم ضد السلطة أولا لأنها ترفضهم كقومية (كما الحال في تركيا) وضدها مرة أخرى لأنها تخالفهم المذهب ويرون أنّها تمنعهم عن عباداتهم، ولكنهم عموما ليسوا متمسكين بالعقيدة الدينية قدر تمسكهم بقضيتهم القومية، ولم تتجح الحركات السلفية التي نشطت في الشريط الحدودي المقابل في العراق ( وادي بياره وطويله، ووادي بنجوين) في أن تجد لنفسها موطئ قدم بينهم. إيران

اللر والكرد سماها البعض قديما "عراق العجم" طمسا لتاريخ الكرد، وتمييزا لها عن العراق الذي ضم المدائن وما تحتها وما فوقها وصولا الى ميدان بأعلى وادي حلون في ديالى بالعراق وسموه "عراق العرب".

وماذا عن المعارضة الكردية وعملياتهم الكبرى التي نسمع عنها، وماذا عن دعم صدام حسين لهم أيام الحرب العراقية الإيرانية؟

لا لم يدعمهم صدام حسين قط، مع أنهم يحبونه حتى اليوم ويعتبرونه الزعيم العربي الوحيد الذي لقن إيران دروسا في السياسة والقمة حجارة السكوت والذل. لكني أؤكد لك أنّ صدام لم يدعمهم، بل كان الوضع مقلوبا، إذ أنّ قيادات الأحزاب الكردية العراقية كانت تلجأ الى عمق كردستان إيران هربا من أنفال صدام واسلحته الكيماوية، وقد قتل إدريس بارزاني "شقيق مسعود بارزاني رئيس اقليم كردستان العراق في إيران بمنطقة سربل زهاب بمحافظة كرمنشاه. لكن المعارضة الكردية قوية، ففي كردستان إيران 15 حزب ومنظمة، أهمها: الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني، حزب كومه كردستان إيران، حزب "پژاک". هذه الاحزاب تمتلك فصائل مسلحة، وهي مصدر قلق دائم لحكومة الجمهورية المضطرة لوضع أكثر من 4 فرق عسكرية مفتوحة بشكل دائم في مناطق كردستان. وتقوم مفارز مسلحة من بعض هذه الأحزاب بهجمات منظمة على القوافل والمخافر والنقاط الجبلية الحكومية وتكبتها خسائر ملحوظة، لكن الإعلام الرسمي لا يمر على ذكر ذلك.

سكت الشيخ عبد الحليم عن البوح، وارتسمت على وجهه نفس النظرة الحائرة الوجلة إليّ ثم قال: أعتقد أنّ ما قلته يكفي، ففي البوح هنا أصبّت راحة كبرى. ربما التقينا في مكان وزمن آخر فأروي لك المزيد.

\*

عدت الى شقتي في بيروت محاولاً أن أجد طريقاً أو خارطة طريق لعلاقتي بخلود، والتي باتت تشغل مساحة كبيرة من حياتي، وبت أشعر أنّها أكثر من عشيقة. قصص الحب ما عادت تهمني بعد كل هذه التجارب، لكن امرأة تستطيع أن تشعلني مثل خوخة لابد أن تكون شيئاً خاصاً جداً.

قررت أولاً أن أغير شقتي الى شقة أصغر اقتصاداً في النفقات، ولكن مثل هذا ليس سهلاً في حالتي، عليّ أن أسأل، هل بوسعي ذلك.

حين سألت أجبني صوت على الخط من الجانب البعيد، ولماذا تغير، هل قررت أن تسكن في شرم الشيخ مع عشيقتك؟

لم تفاجئني معلوماته وقراءته حتى لما في داخلي، فسارعت لا أنفي عن نفسي ما يعرفه مجيباً: نعم، فأنا في الحقيقة أقضي جلّ وقتي معها، فلماذا أستاذ شقة في بيروت بأربعة الاف دولار في الشهر؟

قال بأسلوب مداعب ولكن حاسم: ولماذا تهتم، أنت لا تدفع ذلك، هناك من يدفع. أعتقد أنّ من الأفضل أن تبقى في مسكنك الحالي، هذا يحفظ موقعك الاجتماعي، كما أنّ كثيرين يعرفونك الآن في هذا العنوان، ولن تغيب عنهم إذا احتاجوك.

هذا بالضبط هو ما يقلقني، كثيرون يعرفون مكاني هذا، بودي أن أذهب الى مكان لا يعرفني فيه أحد.

ضحك الصوت على الطرف الآخر من الهاتف وقال: وما الفائدة في أن لا يعرفك أحد، لن تجد من يروي لك حكاياه، وهذا ما يهمنا، ونحن ندفع لهذا السبب. الأفضل في هذه المرحلة أن تبقى حيث أنت، الا إذا تعرضت لخطر ما، ففي الإمكان تغيير سكنك بسهولة. أما فكرة أن تسكن لفترات طويلة مع عشيقتك، فهي مفيدة تماماً، فهذه السيدة تعرف الكثير، وكلّ ثقة بأنّها ستصل بك الى كثيرين. وبالمناسبة، أعطيك معلومة عن زوجها الغائب المقدم نبيل، إنه عندنا.

صعقت لهذا الكلام، وهالنتني بساطته في البوح، فسارعت أسأله إن كان معتقلاً لديهم، فضحك الصوت وقال، لماذا نعتقله؟ إنه من خيرة مهندسي السلاح في المنطقة، الحقيقة أنه يعمل عندنا في مصنع حربي متقدم، ووضعته الاجتماعي

فاخر، والأكثر من ذلك، فهو يعيش في بيت وثير يطل على البحر مع عشيق له، وهذا سرُّ لا أدري كيف ستتعامل معه.

صعقتني قوله، فسارعت أسأل: هل هو مثلي؟

ضحك الصوت وقال: نعم، في عالم اليوم هذا ليس غريباً، فملايين الناس ومنهم قادة ووزراء وملوك وسلاطين يعلنون مثليتهم، ولكن المشكلة مع مقدم نبيل أنه لا يستطيع أن يعلن هذا بسبب الكتمان الذي يحيط بوظيفته، كما أظنه حريصاً على ألا يصل خبر علاقته المثلية لزوجته خلود، رغم أنها تعيش في دفاء وهناء مع عشيقها الجليس!

انتهت المكالمة، ووقفت أنظر من نافذتي الفسيحة إلى البحر الأبيض المتوسط والسفن التي تتلاشى في الأفق، وأفكر، كيف سأتصرف بالمعلومة التي حصلت عليها الآن بشأن زوج خلود عشيقتي التي تحبني لأنني أشبه زوجها؟

هل أقول لها إنه حي متوارٍ ويعمل في دولة أجنبية؟

هل أقول لها إنه هجرها ليعيش مع عشيق فيقضيان وقت فراغهما عاريان يتناغيان على البحر وقد نسيا جنس الإناث برمته؟

المقدم نبيل لا تهمة الأنثى، وقد نجح في إخفاء هذه الصفة عن زوجته سنوات طويلة، لكن الأقدار غيرت مسار ذلك، وكشفت له عما في داخله، فاختر أن يهجرها دون سبب معلن، ليدخل عالم الأسرار الغريب الجديد.

\*

قضيت في بيروت أسبوعاً فهزني الشوق بشدة إلى خلود رغم أننا نتكلم دائماً على الهاتف ومعاً على فيسبوك ومعاً في واتس أب لكن كل ذلك يتوارى أمام لمسة واحدة من شعرها الفاحم وهو يمسد صدري، أو فحيح لسانها وهو يأكل أذني.

عدت طائراً إلى شرم الشيخ، وحين وصلت بيتها، كان شوقٌ غريب ولهفة جامحة تشدني إلى أن أدلف فجأة فاحتضنها في عناق طويل.

دلقت فوجدتها قد خرجت توا من الحمام وهي ملتفة ببرنس الحمام الأزرق وقد عقدت حول شعرها منشفة ترفعه إلى أعلى، فركضت نحوها هاتفاً باسمها

والتفتت، وكان عناق بلا كلام، أغمدت رأسها في صدري، وضممتها بكتنا  
ذراعي بشوق كئنا نقبل بعضنا كالمجانين، وبلا هدف، فمرة في العين، ومرة في  
الجبين وفي الشعر وفي الشفاه وفي الرقبة، ونضونا ثيابنا بلا روية، فبتنا متعانقين  
نتوسد أرض البيت ونغرق في بعضنا.

انطفأ الحريق، فمشت متراخية الى الحمام، ولبثتُ عارياً على الأرض ثملاً بحسن  
جسدها الذي كان توأماً جزءاً من جسدي، ثم لحقت بها، لنعوم معا في حوض  
الحمام المرمرى الأسود، وندلك بعضنا ونقترب أكثر بالصابون والماء الفاضح  
من كل التفاصيل البدائية الخلاقة.

\*

تلك الليلة، ذهبنا الى صالة فندق حيث أقامت الأميرة ميريام حفلاً لأصدقائها على ساحل شرم الشيخ.

في باب الفندق أخذ السائق سيارتي وتركنا ندلف إلى صالة الحفل يقودنا نادل آخر، ضحكت في داخلي وأنا أتذكر حفلات ملوك ومليونيرات ونجوم وساسة أوروبا، حيث يدلف الحاجب ويعلن أسماء الداخلين، ودلفنا الى المكان، صالة أنيقة تغمرها الأنوار الملونة، وانتشرت حولها أطعم أرائك بيضاء وثيرة كسيت بأفرشة من جلود الحيوانات، كل طقم أو نصف طقم تتوسطه مائدة عامرة بالمآكل والمشروبات، كما تنتصب على جناحه مائدة مستديرة أخرى، مرتفعة بعض الشيء، صفت فوقها أنواع السكاثر وأوان المقبلات وبعض الكحوليات لتسهيل خدمة الواقفين من الضيوف، أو الراقصين منهم، إذ تبدأ في تمام العاشرة حلقة غنائية كبرى يحييها نجوم من مصر ومن لبنان.

لفت نظري أنّ بين الضيوف بعض نجوم الغناء والسينما الأوروبية، وبعض الرياضيين العالميين، وخاصة نجوم من ريال مدريد وبايرن ميونخ كما شرحت لي خلود ونحن جالسون نقرع الكؤوس ونعبها.

طافت على الضيوف الأميرة ميريام وزوجها علي، هي أميرة إثيوبية صومالية، وحين وصلتنا، صعقتني جمالها رغم أنها في منتصف الأربعين، وهالني قدها الرشيق كأنها عارضة أزياء، خاطبتني بعربية سليمة لكنّ فيها لكنة واضحة، ثم طلبت أن تحدث الجميع بالإنكليزية. زوج الأميرة هو علي بغدادي، تاجر دولي خليجي يبدو أصغر منها سناً، وحين كلمنا بالعربية وجدت في لهجته غلظة غريبة في مخارج بعض الحروف، ثم فهمت لاحقاً أنّ أبيه عربي من الخليج وأمه إيرانية فارسية.

كان حفلاً باذخاً للنخب، وفي كل زاوية كانت تعقد صفقة، وكنت بدوري أبحث عن صفقة. قادتني خلود إلى زاوية جلست فيها ميريام، مع سيدة أفريقية ذات قوام غليظ، فستانها الأخضر اللامع يكشف عن كتفين مكورين، ونهدين نافرين منتفخين، وجنات وجهها متعاليتان على الأغلب بفعل البوتكس، وإن كانت



الوجنات النافرة ملمح أفريقي بامتياز. قدمتها خلود لي باسم " نهلة الساحلي، سيدة أعمال".

وما إن تكلمت الحسناء الساحلية حتى أيقنت أنني أمام حوت كبير وليس مجرد سيدة صالونات. وبحسها المغامر وجدت ضالتها فيّ، فطلت تتكلم بعربية واضحة لكن فيها بعض لكنة أفريقية وعينها عليّ " كان الربيع العربي قد أربك القائد الرئيس القذافي، وفيما كان هو منشغلاً في صياغة خطاب يرد به على الحملة الإعلامية العربية الخليجية الدولية التي تصفه بالطاغية الأخضر، ومعتوه ليبيا، كان معارضوه يقتربون من العاصمة، بل ينتشرون فيها في كل صوب. وفاجأني أنّ قيادات مخابرات وأمن ليبيا لم تكن تعي ما يجري قط، ولم تقدر حجم الهجوم المقبل الذي بدأ يدبّ في كل مكان، وحين عرضنا عليهم نوعاً من التعاون، طلبوا منا موافقة القائد على مشاركتنا".

قاطعتها بلهفة مصطنعة " لم أفهم يا سيدتي أو آنستي، هل كنتِ تعملين في سفارة دولتك بالعاصمة طرابلس إبان وقائع التغيير العربي؟".

ضحكت كاشفة عن أسنان سليمة ناصعة البيض في فم كبير مكتنز الشفتين " بل سيدة، أنا كنت الضابط الثاني في طاقم حماية الرئيس القذافي".

تكلمت بسرعة مفتعلة عفوية ترافقها بسمة غامضة تبدد الشك لأمنعها أن تلحظ شدة اهتمامي بأهميتها" ياه، الراهبات الخضري، الراهبات الثوريات، الأمزونات، مفاجأة العقيد القذافي في تسعينات القرن العشرين وهو المعروف بآرائه السلبية عن المرأة في السبعينات، وفي كتابه الأخضر. أذكر أنّه وصف المرأة مراراً حتى في أحاديثه المتلفزة بالقول " إنّ دور المرأة يقتصر على التدبير المنزلي والأمومة"، وهو نفسه عاد و قال بضرورة توظيف الكادر النسائي لاعتقاده أنّ الرجال المسلحين يجدون صعوبة في إطلاق النار على النساء. ولكنني أعتقد أنّ الامزونات كنّ في الواقع مجرد جانب من استعراض ملك ملوك أفريقيا، وإن كنت مخطئاً فأرجو أن تصححي لي".

استفرت كلماتي انتباهها الشديد، فقالت من خلف ابتسامة متدلّية قسراً على فمها " جزء مما قلت صحيح، لكننا الفريق الوحيد الذي كان يرافق الرئيس أينما ذهب، وكنا وحدنا نتولى حمايته، فكيف يأمن على نفسه إذا كنا مجرد فتيات استعراض؟".

هذا يعني أنه أوكل لكن كل قضية الحماية، لكن هذا الفريق اختفى تماماً في ساعات محنة العقيد، وحين انتهى قتيلاً برصاصة مشفوعة بهستيريا التكبير والصراخ، وتزاحم عليه الرجال حتى دس أحدهم قضيباً معدنياً في مؤخرته لم تكن معه أي من الأمزونات".

انتابها الجد، وأجابت دون ابتسام "المرحوم منح الفريق إجازة قبل أن يغادر قصره في طرابلس إلى معقله المؤقت بمدينة سرت التي اعتبرها حصنه الذي سيحميه من هجمات المتآمرين، وغادر كل الفريق تقريباً ليبيا إلى جهة لا أريد أن أكشف عنها حفظاً لسلامتهم، كما منح القائد كل واحدة من أعضاء الفريق مكافأة سخية واحتفظن جميعاً بجوازات سفرهن الدبلوماسية".

لماذا قلتِ تقريباً؟ هل بقي بعضهن معه؟

نظرت الي متفحصة كأنها تريد أن تقرر هل تطلق لسانها العنان أم تسكت، ثم مدت يدها إلى كأس الشمبانيا الطويل الرشيق أمامها ورفعته لتقول "نخب سلامتهن!"

قرعنا الأنخاب، وضحكنا، فاستأذنت نهلة لتذهب إلى الحمام. وبقيت مع الأميرة ميريام، فلم أبدو الوقت بل التفت إليها بكل جوارحي متسائلاً "سمو الأميرة، أظن أنّ قصصك أكثر أنساً من حكايا شهرزاد، لبتك تروين لي قصة الإمارة الصومالية، لم أسمع بوجود إمارة في هذا البلد قط".

كشفت عن أسنانها الرائعة في بسمة لا تفارق السمرات الرشيقات حتى باتت علامة مسجلة باسم افريقيا، بشرة سمراء صقيلة وأسنان بيضاء لامعة مصفوفة كاللؤلؤ، وقالت دون تردد "هي ليست إمارة بل "سلطنة عدل" وعاصمتها "زيلع"، هذه السلطنة حلت محل سلطنة إيفات عام 1402 ، وقد توسعت في عهد السلطان عمر دين بن محمد وفي عهد الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي فاتح الحبشة. كان من ضمن أراضيها معظم أراضي سلطنة هرر- التي من ضمنها منطقة أوغادين الحالية، وبعد انكماشها وضعفها- بسبب دخول الاستعمار البرتغالي للمنطقة وتأميره مع مملكة الحبشة ضد الوجود الإسلامي- انفصلت عنها بعض الممالك والإمارات الإسلامية مثل ممالك فطجار ودوارو ومملكة بالي، وسلطنة

عروسي، وهدية وسندفا، وكلها قامت في الأقاليم الشرقية والوسطى لما يعرف حالياً بـ"إثيوبيا".

قلت لها معبراً عن إعجاب ودهشة حقيقيين "يالها من تاريخ، قرأتُ عن هرار التي كانت مركزاً لتصدير الرقيق والسلاح والأبنوس والعاج، ونشطت في القرن التاسع عشر وقبله بشكل فاضح ثم انطفأت، ولكن ما لم أعرفه هو: أين أضع سمو الأميرة ميريام في هذا التاريخ الشيق؟"

طربت لمجاملتي وهزت قدح المارتيني في يدها، فاقترب من الظلام نادل ليملاه بالسائل السحري، فبات كأساً يتراقص بين أصابعها الرقيقة الطويلة "أنا ميريام بنت إبراهيم بن سلمان عثمان ميرغن سفر...حفيدة الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي، باني هذه الأمة وصانع تاريخها".

في هذه النقطة وصل زاويتنا زوجها الأنيق اليافع علي بغدادي، واستأذن قبل الجلوس إن كان لا يقاطع حديثنا؟ فبادلته المجاملة ببسمة ودٍ وسارعت إلى القول "أبداً حبيبي، نحن نتكلم في تاريخ "سلطنة عدل"، ومن العدل أن تكون معنا فأنت نسيب السلطنة الشرعي" وقدمت له وجنتها الرقيقة المرتفعة ليلثمها بحب وهو يجلس.

أشار إلى نادل يحمل صينية كؤوس شمبانيا، فمر بنا وتمرر صينيته علينا، أخذ علي كأساً، وأخذت لي كأساً كأنه راقصة باليه نضت ثوبها. وما إن ابتعد النادل حتى قال موجهاً حديثه لي ولزوجته "حين قالت خلود إنك موجود هنا، وددنا فعلاً أن نلتقي لتبادل حديثاً صميماً قد ينفع الجميع في عصر العولمة والثورات حيث الاستقرار بات صعباً".

استلمتُ الرسالة بوضوح، فقلت له، وهل تكون نهلة الساحلية جزءاً من حوارنا فننتظرها، أم نمضي وحدنا إلى مكان هادئ فنتحاور؟

قالت الأميرة ميريام "نهلة جزء فاعل في الحوار، ربما علينا أن ننفق على موعد حبيبي علي لنواصل فيه الحوار نحن الأربع؟" وبقينا نثرثر بانتظار عودة نهلة الساحلي الأمزونية الغربية. حين عادت، اتفقنا على لقاء يوم الأحد المقبل على يخت الأميرة واشترطت المرأتان أن ترافقني في اللقاء خلود.

\*

سأتكلم بإيجاز، الوجوه الأبرز في الاجتماع هي:

نهلة الساحلي، الضابط الثاني في قيادة فصيل الامزونيّات، متزوجة من الكابتن بحري عايش السنوسي، الضابط الثاني في قيادة القوة البحرية في عهد العقيد القذافي. حال بدء الحراك السياسي في ليبيا. طلب منها العقيد القذافي أن ترحل الى مكان آمن مع زوجها برفقة الأسطول الرئاسي الذي يضم اليخت- المدمرة " الشراع الاخضر" الذي انجز في عام 2009 في مصانع اليخوت الفاخرة و السفن الحربية الايطالية بكلفة 500 مليون دولار، إضافة الى 6 زوارق دورية متوسطة كلفت 200 مليون دولار لحماية اليخت المدمرة.

رافقهما في الرحلة التي انطلقت في الأول من نيسان / ابريل 2011 بعد بدء عمليات الناتو ضد القذافي، نائب محافظ البنك المركزي الليبي معن الساييس مصطحبا معه موجودات الخزانة الليبية السائلة بشكل عملات صعبة قُدرت بعشرة مليارات يورو ودولار وباوند استرليني.

رسا الأسطول الذي رافقه ضباط وجنود من القوة البحرية ومن عناصر المخابرات الليبية في جزيرة تيران بالاتفاق مع جنرال في البحرية المصرية وافق على حمايتهم دون اطلاع القيادة المصرية مقابل 20 مليون دولار وضعت بحساب ابنته في مصرف بجزيرة مالطا.

بعد أن تحرك الشارع المصري، نسي الجميع قضية السفينة، واختفى الجنرال المصري الذي كان يحميها، لكنها بقيت راسية في تيران، بحماية عناصر مسلحة اسلامية من المنطقة كان الفريق المسافر على السفينة يدفع لهم أتعاباً شهرية زهيدة ويجهزهم بالسلاح والعتاد من مخازن القذافي التي نقل الضباط الهاربون من ليبيا أغلبها الى مخازن سرية في جزيرتي صنافير وتيران سرا.

اصطحبت نهلة الساحلي مبلغاً يقدر بأربعة مليارات يورو نقداً سائلاً، بتكليف من عائلة القذافي، لتكون رصيماً مضموناً للعائلة في حال سقوط النظام وفرارها إلى الخارج، وكان مقرراً أن ترافق عائشة القذافي نهلة وفريقها في رحلتهم، لكن التطورات المتسارعة في ليبيا منعتها من مرافقة الأسطول. هذا الفريق اليوم يبحث عن منطقة نفوذ يستثمر فيها أمواله وتكون قاعدة ثابتة له.

الأميرة ميريّام وزوجها عليّ البغداديّ. تطمع ميريّام في أن تكون حاكمة عليّ كل أو عليّ جزء من الصومال، وقد عرضت مشروعها الطموح عليّ عدد من الدبلوماسيين الإثيوبيين والمصريين عليّ أمل المساعدة، لكنها لم تحصل عليّ مساعدة حقيقة عليّ الأرض. زوجها عليّ البغداديّ هو تاجر سلاح يتقن العربية والانكليزية والفرنسية والفارسية، تزايد نشاطه بعد ما جرى في تونس وليبيا ومصر، وتولّى بيع جزء كبير من ترسانة السلاح الليبية اليّ مشتريين عبر العالم. يتولّى شحن صفقاته فريق قراصنة صوماليّ تونسيّ ليبيّ. يقوم حالياً بتمرير صفقات سلاح اليّ حركة حماس وحزب الله وتنظيم جند الله في اليمن، وتقدر موجوداته السائلة بنحو مليار دولار، هذا علاوة عليّ موجوداته المحفوظة في مصارف دولية بحسابات تحمل أسماء أقاربه وأقارب زوجته.

خلود عبد العال، عنصر ارتباط مع وزارة الخارجية المصرية، وما دامت ميريّام ونهلة قد أصرتا عليّ حضورها في لقاء الأسبوع المقبل، فإنهما تخططان لمشروع تزيّدان أن تكون أطرافاً مصرية متنفذة شريكة فيه.

أنهيت كلامي لتكون هذه خلاصة اجتماعي عليّ شبكة "سكايب تلغرام" المشفّرة، مع العقيد عبود ماسياس، والدبلوماسية لليلي صافر اللذان طلبا مني اصطحاب التابلت الخاص بالعمليات الخاصة والمجهز بدائرة اتصال ساتلايت مستقلة عن الشبكات الدولية. وطلباً أن أتولّى اعداده لينقل لهما عليّ الننت وقائع اللقاء فيما يحافظ عليّ مظهره كتابلت كومبيوتر بلانر للعمل المكتبي دون أن يظهر عليّ لوحه أثر أي اتصال بشبكة انترنت أو شبكة هاتف.

\*

يخت ميريام، الأنيق أسمه ميريام وقد كتبت بحروف انكليزية مجنحة، حين اعتلينا سطحه، عرّفتنا الأميرة ميريام على الكابتن بحري عايش السنوسي زوج السيدة نهلة الساحلي، وعجبت لدقة المعلومات التي وصلتني، وعرّفتهم على صديقتي خلود وهي في أحلى انوثتها الطاغية بسروال جينز ابيض، وبوت من جلد بلون الجوز يصل ركبتها، وكنزة شاموا فوقها سترة حمراء قصيرة يحار المرء في خامتها.

انطلق الزورق مبحرا يبتعد عن ميناء شرم الشيخ. بقينا نتبادل المزاح واللطائف والتعليقات فيما يقود الزورق قبطان أفريقي عملاق وسيم لا يتقن العربية وتكلمه ميريام بالإنكليزية. بعد أقل من ساعة وصلنا الى ساحل تيران، ثم غادرناه الى جزيرة صغيرة بين تيران وصنافير أسمها "لوبة" هي ليست أكثر من قبة ترابية عائمة يجللها البردي والقصب. رسا اليخت على ساحلها، وأوقف محركه، ثم دعتنا ميريام الى جوف اليخت، حيث قاعة أنيقة وسطها طاولة يغطيها فرش مخملي أزرق بخطوط صفراء كأنه بيرق. جلسنا الى الطاولة وعليها أنواع من المشروبات الباردة والساخنة، واطباق معجنات وسناكس متنوعة، فيما تقف الى جانبها نادلة أفريقية جميلة بنصف ملابس وعلى وجهها ابتسامة ترحيب لا تسقط بضيوف الأميرة.

دعتنا الأميرة إلى الجلوس وأعلنت أنّ " دابي" تقف في خدمتنا ولكنها لا تتكلم سوى الانكليزية والسنغالية، ثم ابلغتنا أن المنطقة التي نحن فيها مقفوزة إلكترونياً ولا تعمل فيها الهواتف الخليوية ولا شبكات الانترنت، ثم أضافت وهي تبتسم " حتى شبكات الأنترنت الفضائية الخاصة لا تعمل هنا، وهي نعمة إلهية تريحنا لوهلة من الرقميات التي أصابت العالم بجنون المعلومات".

وضعتُ التابلت الخاص بي على الطاولة وأنا أعلن للملأ أنّه لوح كومبيوترى لتدوين بعض الملاحظات التي قد نحتاجها، وليس فيه اتصال هاتفي ولا بالإنترنت". ثم شرعت أكتب على صفحة وورد فيه، تاريخ اللقاء واسم الجزيرة "لوبة" ليطمئن الناس أنّه لوح كتابة إلكتروني لا أكثر.

بدأت الحديث ميريام وهي تنظر اليّ مباشرة " نحن بصدد مشروع كبير، مشروع سياسي، سيغير المنطقة التي تعيش حراك "الربيع العربي" ومعنا في جهدنا شركاء كبار، وكما تعلمون تسقط الحدود الآن وتقوم حدود دول أخرى، وفي اعتقادي أنّ بوسع مجموعتنا هذه أن تشارك في رسم الخارطة الجديدة، وخاصة في منطقة نشاطنا الحيوي "البحر الأحمر" باعتباره بحيرة عربية دولية يجب أن تبقى مفتوحة للجميع وليس للعرب فحسب".

ثم صارت تتقلّ بصرها بين الآخرين شارحة رؤيتها لما يجري وما سيحدث في حال أطلقنا المشروع الذي تحلم به. ومرة أخرى انتبعت إلى دقة المعلومات التي وصلتني من مصدري. " لا بد من إقامة شراكة دولية سياسية، لصناعة دولة في الجزء الشمالي الشرقي من الصومال، دولة تحمي حقوق الصيد وحقوق الصومال في حماية شواطئها من الصيد الجائر ومن الاطماع الدولية ومن النفايات السامة التي تدفنها الكارتلات الدولية في سواحل الصومال منذ عقد من الزمن. هذه الدولة هي جزء من الحق التاريخي لسلطنة عدل، وتضم أراضيها ومياهها ثروات تؤهلها أن تكون دولة، كما أنّ التوازن الدولي الحريص على إبقاء مضيق باب المندب مفتوحاً سيسمح بهذا المشروع لا سيما أنّ إيران تتحرك في اليمن من خلال حركة جند الله والتنظيمات الشيعية الأخرى، وهي تريد في النهاية أن تسيطر على الممر الدولي وتخنق من خلاله البحر الأحمر. الخليجيون لن يقبلوا بهذا وكذلك المصريون، والإسرائيليون يرفضوه بالتأكيد، نحن سنطلق مشروعنا بتحالف مع هذه الأطراف، ولكننا قبل الشروع نريد أنّ نرى إمكانات المنطقة لقبول الدولة الجديدة "إمارة عدل"؟

كنت قد دونت بضع ملاحظات علناً على التابلت في صفحته المفتوحة أمام أنظار الجميع، ثم دخلتُ على خط حوارها وأنا أرقب جمالها الأخاذ الذي يتناقض مع جدية الطرح الذي تقوله وخطره، وقلت محاولاً أن لا أبدو معترضاً ولا موافقاً " سمو الأميرة تتحدث عن تغيير جيوسياسي في منطقة تتشابك فيها المصالح الدولية، ما حجم وإمكانات الإمارة التي تتحدثون عنها هنا، ومن سيتولى دعمها؟ القوى الدولية الكبرى لا تريد تجربة مثل العراق وترفض أن تقيم دولة على المقاييس الغربية، لذا يجب أن ينهل المشروع من نبع مصادر وموارد المنطقة ويقوم بقوة سواعد أهلها، عند ذاك سينهمر الدعم الدولي على الإمارة الفتية بما يهبها الحياة. وأمامنا تجربة دولة جنوب السودان، التي حظيت بتأييد دولي، فقامت

بسرعة دون مشاكل وأزمات بقيادة سيلفا كير، فهل تملك "إمارة عدل" هذه المقومات؟ أم أنّ المشروع ينتظر دعماً دولياً لكي يولد؟".

نظرت الأميرة في وجوه الجميع، ثم عادت تنظر في عيني وهي تقول "نحن هنا لنبحث معكم هذه الإمكانيات، سنعرض هنا بالتفصيل ما تملكه الإمارة المقترحة من مقومات حياة خاصة في مجال الموارد والقوة العسكرية التي سوف تحميها وتعفيها من شروط حروب القبائل والفصائل والقراصنة. مصادر التمويل متعددة، لكن قسماً كبيراً منها يأتي من السيدة نهلة الساحلي وفريقها، أما التسليح فمصدره الأصلي السيد علي البغدادي، والسيد عايش السنوسي، عندنا في الحقيقة تحت اليد ترسانة أسلحة خفيفة ومتوسطة كبيرة جداً، إضافة إلى 50 دبابة روسية تي 72 كاملة التسليح، ومدافع ميدان مسحوبة من أعيرة مختلفة عددها نحو 100 مدفع، إضافة إلى عشرين مدفع ميدان ذاتي الحركة من عيار 155 فرنسي الصنع و20 راجمة روسية غراد محمولة، ولدينا 200 صاروخ قصير المدى صيني الصنع يطلق من قواعد أرضية أو بحرية حسب الرغبة. وعندنا فوق هذا 1000 سيارة وعجلة ميدان صغيرة ومتوسطة وثقيلة، أغلبها روسية الصنع من مخلفات الجيش الليبي والجيش العراقي. وهناك نحو 400 ألف إطار سيارة عسكرية بأحجام مختلفة مكدسة في مناطق الزنتان وبرقة في ليبيا ولا بد من جهد لنقلها إلى قواعدنا. بحرياً، عندنا ستة زوارق دورية مجهزة بقواعد إطلاق صواريخ صينية 30 ملم (وأكد هذا دقة معلومات مصدري).

وكما تعلمون فإنّ القدم الأولى لإنشاء جيش هي توفير السلاح، والقدم الثانية لإكمال الخطوة الأولى هي إدامة تدفق العتاد والصيانة لهذا السلاح. وهنا تبرز الحاجة إلى تعاون دولي يمدنا بالعتاد والمهمات ومعامل الميدان والصيانة، وأعتقد أننا هنا بحاجة إلى مصادر روسية أو من أوروبا الشرقية.

أما بالنسبة للحشد والدعم على الأرض، فإننا على اتصال وثيق بعدد من شيوخ القبائل ومن قيادات القرصنة المنتفذة في المنطقة، وأكبرهم إبراهيم عبد الله شحاذ الذي يأمر على 300 مسلح، وتضم ترسانة أسلحته زوارق تحمل قواعد راجمات صينية بحرية خفيفة ورشاشات ثقيلة وحتى بطرية مدفعية عيار 37 ملم مقاومة للطائرة مع خطوط عتادها الثلاثة.



شمال شرق وشمال غرب الصومال تساندنا قبائل الغبويبي والهرتي الورسنجلي والدولباهنتي وقبائل النوري والسمرون وأفخاذ من قبيلة الدارودن الأبرز منها مريحان، ماجرتين، ليلكسي ودبيس، وكلها قبائل مسلحة. ولكي أختصر فقد وعدنا زعماء هذه القبائل بتعبئة 50 ألف مقاتل في المرحلة الأولى من عملياتنا، وهذا العدد بالطبع مرشح للارتفاع كلما حققنا انتصارات سريعة. ولا بد من القول هنا إنّ القبائل تملك أطنانا من السلاح والآليات، لكنها دون عتاد ودون صيانة فباتت في حكم الخردة.

أريد أن أوضح هنا بضع مسائل استراتيجية وجيوبولتيكية هامة:

\*نحن غير مهتمين بإقامة إمارة عدل في عموم الصومال، لأنّ هذا الأمر صعب لوجستيا، نريد أن نقيم إمارة بمنطقة الشمال برمتها غرباً وشرقاً.

\*كخطوة أولى للخروج من الفوضى التي تعم الصومال، لا بد من إغلاق حدودنا مع ما تبقى من دولة جنوب الصومال.

\*الخطوة الإدارية الأهم هي التخلص من نظام "الحير" الذي يعتبره الصوماليون نظاماً قانونياً مستمداً من أحكامهم العرفية وقوانينهم العشائرية، وهو عبارة عن دستور أو أقرب ما يكون إلى ميثاق متعدد المراكز القانونية. المشكلة الأصعب هنا هي عدم وجود وكالة أو هيئة أو جهة احتكارية معينة توضح ماهية القانون، والحكم المتبع في حالة قضائية معينة، إذ يرجع التقييم كل مرة إلى رئيس المحكمة العرفية أو مجلس العشيرة لتحديد الحكم المناسب وكيفية تنفيذه. وهذا بالتحديد هو سبب الفوضى في هذا البلد، انه بلد بلا قانون، والجهل المتفشى والمجاعة والحروب تعمق هذا.

\*لا بد من التذكير هنا أنّ اللغة العربية لغة غير معتمدة رسمياً في الصومال رغم أنه عضو في الجامعة العربية، هذا البلد في الحقيقة أفريقي وليس عربي، وقد حاول محمد سياد بري أن يتعلّق بأذيال حزب البعث في العراق وسوريا والسودان منذ سبعينات القرن الماضي ليضمن لنفسه وبلده مواردتهما ودمهما. لا بد أن نعتمد اللغة الصومالية وهي اللغة الرسمية للبلاد.

\*لا بد من تأمين مناطق إيواء فورية للمقاتلين وعوائلهم وقبائلهم، وهذا سيؤسس لمناطق مدنية تخضع لسلطة الإمارة وتعززها.

\*لا تريد إمارة عدل الخوض في مشكلة النفايات السامة والصيد الجائر التي تضرب الصومال اليوم وتساعد في هدمه وتشتته. في هذه المرحلة نحن بالتأكيد غير معنيين بهذا الأمر.

\*لابد من تأمين مراكز إسعاف ميدانية ومستشفيات جواله ومراكز جراحة بشكل سريع في مناطقنا، ما يحقق تفوقاً على محيطنا في جيبوتي وأرتيريا وجنوب الصومال وحتى في إثيوبيا.

\*تأمين جبهة القراصنة هام جدا بالنسبة لنا، ولنعمل هذا سنضمهم ضمن تشكيلات مقترحة لقوة بحرية خفيفة ننشئها في البحر الأحمر.

سكنت الأميرة ميريام ونظرت في وجوه الحاضرين بانتظار تعليقٍ أو سؤال، فبادرتُ القول "أعتقد أنّ السادة الحضور هنا مطلعون على أغلب ما تفضلتِ به، الموضوع بالنسبة لي وللسيده خلود جديد بكل تفاصيله، لذا أدعو السيده خلود لإبداء رأيها".

لم تؤخذ خلود بمقترحي الرسمي على حين غرة، بل ابتسمت ووضعت زجاجة الكولا التي كانت في يدها على الطاولة وقالت "المشروع كما عرضته سمو الأميرة لم يتطرق إلى نقطة استراتيجية هامة، العنق الشمالي للبحر الأحمر تمسك به مصر، وإذا لم توافق مصر على مشروع إمارة عدل فلن يتم. أمل أنّ لقاءنا هنا سيمهد للقاءات بمستوى قيادات البلدين للتفاهم على المشروع قبل الشروع بأي خطوة على الأرض".

فاجأتني خلود بدقة طرحها وعمقه، أكثر مما فاجأني كل ما يجري حولي. هذه المرأة التي تبادلتني عشقاً بعشقٍ بلا حدود، تتكلم اليوم بمستوى دبلوماسي في وزارة الخارجية المصرية. أظن أنّ الانثى التي فيها أعمتني عن حقيقتها. عشيقتي مدير عام في وزارة الخارجية، أو مدير مكتب في إدارة المخابرات العامة! هل كنتُ فعلاً أجهل هذا أم كنتُ أغض الطرف عنه؟ اشتراطات الأميرة ونهله الساحلي على إشراك خلود، لم تأت من مبادرة نسوية تريد تأمين جانبي الذكري بأنثى مرافقة، بل هما تدركان منذ البداية أيّ امرأة هي. طبعاً لم أنس قط زوجة من هي، ولا مستوى علاقتها بالنائب في مجلس الأمة.

تدخل في الحوار عياش السنوسي الذي أسمع صوته أول مرة " الحقيقة أنّ حكومة مصر وقفت موقفاً مشرفاً من طلباتنا بشأن ليبيا، وحين عرضنا إعادة السلطة الى الشرعية الملكية السنوسية، أيّدت مصر ذلك، وقد التقيت شخصياً بوكيل في وزارة الخارجية المصرية آنذاك، وأبلغني أنّ بلاده تدعم عودة الشرعية الملكية الى ليبيا. مواقف مصر تضعها دائماً في مرتبة قيادية بالمنطقة العربية وفي الشمال الأفريقي. أما عن مشروع إمارة عدل، فالقائمون على هذا المشروع يضعون نصب أعينهم دائماً الدولة الأفريقية والعربية الأكبر مصر الشقيقة الكبرى التي شاركت في رسم كل سياسات المنطقة منذ قرنين. مصر ستبقى محتفظة بحقوقها بحرية الملاحة في البحر الأحمر، و في حال قيام إمارة عدل سيضمن القائمون على المشروع للدولة المصرية ممرات بحرية أكثر أمناً من الآن تضمن زيادة واردات مصر من قناة السويس، وسنضمن للمجتمع الدولي أيضاً القضاء على النشاط القرصاني الصومالي الارتيري في عموم البحر الأحمر والمحيط الهندي. كما أننا نضع نصب أعيننا علاقة مصر الخاصة بإسرائيل، اللاعب الأقوى في المنطقة العربية رغم صمتها".

دون أن يظهر على وجهها أي تعبير قالت خلود" أريد أن أتبه هنا إلى أنّي لا أمثل مصر بشكل رسمي في هذا اللقاء، ولا يمكنني أن أعطي إجابات نهائية عن كل الأسئلة والتوقعات، لكن باستطاعتي التأكيد أنّ مصر لا تعارض خيارات الشعوب العربية والأفريقية، وإذا كان شعب الصومال يؤيد قيام إمارة أفريقية في الجزء الشمالي منه، أو إذا عجزت حكومة الصومال الحالية عن رفض هكذا مشروع، فإن مصر ستختار الوقوف الى جانب رأي الشعب كما أعتقد".

أخذ المبادرة علي البغدادي وقال وهو يقسم نظراته إلى الجميع بالتساوي مانحاً خلود قدراً أكبر من التركيز "ربما لا يعلم كثيرون أنّ الأحزاب الإسلامية في مصر دفعت مبالغ كبيرة جداً لتجار السلاح الدوليين لتجهيز ودعم وتسليح الحركة الإسلامية في السودان والصومال وأرتيريا، وقد يكون من المناسب أن تضع مصر اليوم ثقتها في مكان آخر، لا سيما أنّ الوضع في الربيع العربي يسير إلى مساحات غامضة والعسكر في مصر لا يرغبون أن تُرفع فوق ثكناتهم رايات القاعدة".

كلمات علي وضعت خلود في زاوية حرجة كما يظهر، لكنها سارعت إلى اتخاذ قرارها وقالت " بالطبع القوة في مصر اليوم ليست محسومة، والأيام المقبلة ستكشف عن اتجاه البوصلة، ولكل حادث سيكون حديث".

نهضت الأميرة ميريام، وأضاءت شاشة كبيرة على جدار القاعة الصغيرة، ثم شغلت عارض الصور فظهر غرافيك ملون على الشاشة، يحدد حدودا مقترحة لمشروع " إماره عدل" ، وبدأت تؤشر بعصا الكترونية قصيرة المناطق وتقول " أريد أن أوضح هنا أن المناطق التي أتحدث عنها ستشمل مشروع صومالي لاند المسماة "جمهورية أرض الصومال" التي تمتاز بدرجة عالية من الاستقرار والأمن مقارنة ببقية أرض الصومال، والتي تحتفظ بحكومتها بعلاقات غير رسمية مع بعض الحكومات التي أرسلت وفودا بروتوكولية غير معلن عنها إلى العاصمة هرجيسا. كما تملك إثيوبيا مكتبا تجاريا في هرجيسا. ومع ذلك، لا يزال هذا النظام غير معترف به من قبل أية دولة أو منظمة دولية. وقد وصلنا الى تفاهم مع مسؤولين في اثيوبيا وبريطانيا والبرتغال وإسرائيل بشأن دمج مشروع صومالي لاند بمشروع إماره عدل، وبذلك ستكون للإماره حدود على المحيط الهندي وعلى البحر الأحمر".

قاطعتها برفق دبلوماسي لبق بالقول " سمو الأميرة، ليتك كنت دعوت لهذا اللقاء من يمثل حكومة جمهورية أرض الصومال لنسمع رأيه".

قالت الأميرة وهي تبتسم: أعتقد أن نهلة الساحلي تملك إجابات هنا.

تحدثت نهلة الساحلي بلهجة حاسمة: " يتكون سكان صومالي لاند من قبيلة إسحاق وقبيلة القديريسي أو السمرون قبائل الغوبيي والهري الورسنجلي والدولباهنتي. وتشكل قبيلة إسحاق 70% من سكان جمهورية أرض الصومال، وتنتشر هذه القبيلة في شمال غرب الصومال في إقليم هود وأوغادين وإقليم الصومال في إثيوبيا وجيبوتي وحول بعض المدن مثل هرجيسا وعيرجابو وبربرة وبرعو وسيرجابو.

شيخ قبيلة هبر جيعلو كبرى قبائل اسحاق التي تنضوي تحتها الأجدم الستة هو أخي، وقد تحدثتُ معه مطولا عن هذا المشروع وأبدى استعداده للدخول في مشروع اتحادي ضمن الإمارة.

أما بلاد بونت (بونت لاند) الواقعة شمال شرقي الصومال والتي تشكل 33% من الأراضي الصومالية ويقطنها حوالي 2.5 مليون نسمة والتي تتحكم فيها الآن الجبهة الديمقراطية لإنقاذ وخلص الصومال فهي تنازع جمهورية أرض الصومال على منطقتي "صول" و "سناج". وأعتقد أن الأميرة ميريام قد ضمنت ولاء زعماء القبائل والقراصنة بما يؤمن لها 50 ألف مقاتل، وهكذا ستكون إمارة عدل دولة كوندراالية من صومالي لاند وبونت لاند، التحدي الأكبر هو المحاكم الإسلامية ومن ارتبط بها من تنظيمات وفصائل متشددة صغيرة أخرى، فهم يتمركزون اليوم في العاصمة مقاديشو وجنوب البلد ويهددون كل المنطقة".

سارعت إلى عرض نقطة لم يشر إليها الجميع فقلت بنبرة سؤال "هل حاور أحد إثيوبيا فيما سيجري على حدودها؟ إثيوبيا لعبت دورا كبيرا في سياسات القرن الأفريقي، وخاصة في الصومال وإقليم اوغادين وجمهورية صومالي لاند".

سارع البغدادي إلى عرض النقطة الأصعب في الحوار "إثيوبيا حليف إسرائيل القوي في القرن الأفريقي، ونحن نعلم أن وجود إسرائيل في إثيوبيا ضمن خططها للمستقبل، كما لا يخفى أيضا على المراقب تطلعات إسرائيل نحو الدول المحيطة بأثيوبيا، خاصة الصومال، ونعتقد أن إسرائيل تبحث عن دور استراتيجي لها يمر عبر إثيوبيا تمهيدا لاستغلال الحدود الطويلة التي تفصل بين إثيوبيا والصومال، والتوجه نحو العمق الصومالي خصوصا الأقاليم الشمالية المحكومة بواسطة سلطة موالية لإثيوبيا وغير مهتمة بالبعد العربي وتبحث هي أيضا عن تقارب مع إسرائيل، ونحن معنيون ومهتمون بتطوير علاقات استراتيجية مع إسرائيل وأثيوبيا بما يضمن أمن البحر الأحمر والقرن الأفريقي واستقرارهما، وقراءتنا للموقف الإثيوبي هنا تنطلق من اتصالات أجريناها مع مسؤولين عسكريين ودبلوماسيين في هذا البلد، وكشفوا فيها أنهم سيدعمون مشروع إمارة كوندراالية شمال الصومال تشكل حائط صد ضد التمدد الإسلامي المتنامي الصاعد من عمق أفريقيا عبر المحاكم الإسلامية وبوكو حرام" نظر إلي وهو يشير بطول ذراعه وقال "الكرة الآن في ملعبك يا صديقي، أنتم من يستطيع أن يحرك الموقف ويضع مفتاح الموتور في وضع التشغيل".

فهمت رسالته بوضوح، فسارعت إلى القول "أنا وأنا وسيط بين القوى، لا أنتمي لجهة بعينها، كانت وظيفتي وما زالت الاستماع الى الجميع، وخصوصا من

أحظى بثقتهم، ولكني قد أستطيع تقريب وجهات النظر وجمع الأطراف ذات المصلحة للقاء في منطقة محايدة تضم كل أطراف العلاقة الذين تحدثنا هنا عنهم".

قالت نهلة الساحلي وهي تنظر إلى الأميرة مريام" بعد أذن سمو الأميرة ميريام، أود أن اقترح لقاء على سطح يختي المسجّل دولياً باسم "الشراع الأخضر" وفيه أيضاً مهبط طائرات هليكوبتر لضيوف قد تحملهم طائرة. اليخت يرسو على ساحل جزيرة تيران، ويمكننا الإبحار به إلى المياه الدولية لنبعد عن المياه الإقليمية المصرية، فنصبح في منطقة محايدة تجتمع فيه الأطراف ذات العلاقة وتتجاوز وجهها لوجه".

قلت بسرعة سأوصل لكم الجواب في أقل من 24 ساعة، ولكن، أعتقد أنّ من المناسب دعوة طرف من صومالي لاند وطرف من بونت لاند وطرف من أثيوبيا، وأترك الأطراف القبائلية والقرصانية لحسن إدارة سمو الأميرة، ما رأيكم؟"

قال عياش السنوسي مخاطباً خلود وهو يبتسم: " وهل يشاركنا اللقاء الحاسم المقترح ولنسمه "مؤتمر البحر الأحمر" من يمثل مصر في قرارٍ بهذا الحجم، أعتقد أنّ السيدة خلود يمكنها تأمين ذلك؟"

ابتسمت خلود وهي تنظر لي ثم قالت: " سأسعى بنفس الوتيرة مع الآخرين واحتاج أنا أيضاً الى 24 ساعة على الأقل للإجابة".

وكان الختام أنخاباً وأطباقاً من الكافيار وعصير البرتقال والافوكادو وأطباق حلوى لم أرّ مثلها قط.

\*

عدت إلى شقتي ببيروت، وعرفت من بعض العلامات الخاصة أنّ غرباء (غير سيدة التنظيفات) قد زاروا مسكني، ولم يقلقني هذا قط، فالمكان ليس مسكني بمعنى الكلمة بل هو أشبه بمكتب عمل، وإصرار مشغلي على أن تبقى الشقة مفتوحة قائمة حين عرضت عليهم إغلاقها والانتقال إلى بيت خلود أكد لي أنّ هذا مكتب عام للعمل وليس مجرد سكن خاص بي. بعد أيام في بيروت فاجأني هاتف برقم العراق يطلبني بالحاح على واتس آب، طلبت الرقم بعد الموافقة، فأجابني صوت فيه جرس كأنه موسيقى، لرجل عرّف نفسه بسرعة بالقول "مساء الخير، إسمي سليم سلام سلامة، من سلالة سين وأنا الوريث الوحيد لمؤسسة سين للسيرك وحفلات الأكروبات عبر العالم العربي والشرقي والغربي".

تشرفت بمعرفتك يا سيدي، أنا في خدمتك، تفضل.

سمعت عنك من حيث لا تتوقع، ويهمني أن ألتقيك وأروي لك حكاية سين قافلة العجائب التي تسحب التواريخ خلفها لإمتاع الناس، قصتي التي لم يسمع بها أحد قد تهملك، ولكني لا أملك أن أدفع لك تذكرة الطائرة والفندق. أنا في أربيل الآن في كردستان العراق وبقا فيها لأربعة أشهر مقبلة، لو زرتني لك مني ليلة ساهرة في سيرك سين المطابق للقياسات الدولية والخالي من الحيوانات المفترسة.

تعددت أن تصلني أغرب طلبات الأصغاء لكن لم يدر بخلدي قط طلب من هذا النوع. قلت له "عليّ أن أنظر في جدول أعمالي، هل عندكم إعلان يمكن أن أطلع عليه؟"

نعم عندنا إعلان، ولدينا صفحة الكترونية أسمها "سين سيرك العجائب".

اعطني بضعة أيام وسأعود لك بالجواب.

لك ما تريد يا جليس أهل القمة، وأقول لك إنني لست من أهل القمة، لكن عندي ما قد يسرهم ويثير اهتمامهم. "العذر ممنوع والعنب مرفوع والرزق على الله" يومك سعيد، وأنتظر منك رداً بالإيجاب والموافقة. أغلق هاتفه، وبقيت أتأمل كيف يسكون وضعي مع صاحب سيرك سين إن ذهبت.

مؤتمر البحر الأحمر الذي انتظرته بشوق أنعقد أخيرا قبل أيام (لم أعرف بالتحديد متى وأين) دون أن توجه لي دعوة المشاركة، كما أنّ الخارجية المصرية لم تُشرك خلود في المؤتمر، وهكذا انتهى دورنا التعريفي في صفقة دولية من العيار الثقيل جدا. عليّ في هذه الفترة أن أحصل على جواز سفر جديد، ولا أدري أين ستكون محطتي المقبلة.

بحثت في النت عن "سين سيرك العجائب" فظهرت لي صفحة ملونة ومبهجة فيها صور مهرجين ولاعبين سيرك ونعامات وحُمر وحشية وقرود وجماهير غفيرة تقف في صفوف الدخول الى خيمة عملاقة تتربع وسط أربع خيم أصغر للخدمات على الطريقة التتيرية في بناء الخيام.

عليّ الآن أن أعرف هل بوسعي الذهاب أم لا؟

حين اتصلت وكلمت "الطفي" ضحك وهو يقول "مقاولاتنا لا تشمل أصحاب السيرك، الحقيقة أنه لم يخطر ببالي قط أنك قد تجالس مدير سيرك أو مدير مدرسة وما شابه. لكن المغربي في الموضوع، أنّ هذا العرض متزامن مع مأمورية في كردستان العراق، نريد أن نفتح مكتب علاقات عامة هناك، ونحتاج الى من يؤسس للمكتب مستلزماته الإدارية والفنية، وأعرف أن هذا ليس من صميم عملك، ولكن هذه المأمورية هي الوحيدة التي قد تمكنك من مجالسة السيد سيرك في أربيل. اعتقد أنني أحتاج بعض الوقت لأعود لك بالجواب".

مسألة أخرى مهمة، جواز سفري ينتهي بعد 3 أشهر، أنا بحاجة الى جواز سفر آخر.

هذا موضوع هين يا عزيزي، أكتب الى يونان، واخبره بهذا الأمر فهو المكلف بمتابعة الجوازات والسماوات والبطاقات وما الى ذلك.

عندي اجازة إذا، حتى تفتح خيمة سين رواقها لي سأذهب اذا الى خيمة خلود، فهي الأحلى في هذه الإجازة .

هاتف خلود يرن ولا يرد، كتبت لها على مسنجر فيسبوك وأرن عليها على فايبير ولا شيء... أكتب لها إيميل وانتظر.



ليس يسيرا أن يصنع الإنسان لنفسه بيتا، البيت أولا امرأة ورجل، ولكي يكون المفهوم مقتربا من الدفء الأسري ومن أمان لا يخترقه الغرباء، لابد أن تكون المرأة بمستوى أكثر من أنثى والرجل بمستوى أكثر من ذكر. هل يكفي لقبا أم وأب لتحقيق ذلك؟

لعل هذه الخاطرة تأخذني لقرار طال هروبي منه، هل أريد بيتا آمنٌ إليه؟ هل أريد امرأة تكون لي وطنا؟ ومن تكون هذه المرأة بعد كل السنين التي مرت؟

حتى الآن ما كنت أريد بيتا، وطالما سألتني أمي لِمَ كل هذا القلق، ولم أحر جوابا لأنني لا أملك له سبيلا، وفي الخمسين، هل تكفي امرأة هي مزيج من أنثى ومن شيء خطير ملغم بالأسرار لتكون مشروع بيت؟

أشكُّ حتى في إجاباتي، وها أنا أواجه لوحدي من نافذة غرفتي في بيروت البحر الأبيض المتوسط، وليس سهلا أن يتأمل المرء البحر وحيدا، فهو أمر يبعث على الخوف والملل في آن واحد، كما أنّ الشمس حين تغرب على غرفتي لا تجد من تلقي بخيوط نورها عليه سواي، وهذا مؤلم للغاية. تلك كانت عبارتي في محاولة كتابة متعثرة لرواية بعنوان "شمس الليالي" كتبتها لحبيبة غابت عني لسوءفعالي، وتواريت عنها هاربا من فشلي الملازم لعطفها المفرط.

لن تؤنسني الكؤوس ولن يسليني السفر. حين كنتُ أكثر يفاعا، كنت أطير فرحا لكل مناسبة تحملني الى بلد آخر، وشعب آخر ولغة اخرى. الناس يأكلون وينامون ويتناسلون ويخرجون فضلاتهم ويهرمون، لكنهم يفعلون ذلك في كل بلد بشكل مختلف بعض الشيء، وهذا الذي كان يثير فضولي. اليوم وبعد الخمسين، بات السفر مجرد جزء من روتين الأيام، أنجزه دون كثير تفكير ودون شوق، وحين أفرغ منه لا تعتريني لذة النصر ولا نشوة الذروة الجنسية.

القراءة أيضا في عصر الأنترنت والكومبيوتر لم تعد لذة اكتشاف ودهشة تقليب كتاب أو مجلة أنيقة تكتنز الأسرار، فمحركات البحث والكتب المحملة على النت تغنيك عن أي كتاب أو مجلة، وهذا اليسر في الوصول الى المعلومة والفكرة حرم الإنسان من التمتع بالاكشاف.

النوم بات أصعب، وكنت لا أنام إلا حين أتعب، أما اليوم فكلما تفاقم تعبتي، سرقني الأرق ساعات لذيذ الكرى.

بتوفر كل الأغاني على النت، ما قيمة أن ننصت لمغنٍ نحبه؟ كل لحظة يولد فنان ، وتتناسل على صفحته الإلكترونية وأغنياته المحملة على يوتيوب ملايين المشاهدات، وحين تقرأ الاسماء تجد نفسك غائبا عن هذا العالم. يقول المتزوجون إن أطفالهم هم بوابتهم للعالم، ولمن لا يملك أطفالا هل تبقى الأبواب موصدة؟

كنا نتسابق لشراء كاسيت حفلة فيروز الجديدة، ثم صرنا نتسابق لشراء سي دي لآخر كليبات كاظم الساهر، كل هذا بات دون جدوى ما دام النت فيه كل شيء، ومادام كل شيء بات متوفرا على الهاتف الذكي. في هذه العصر تدفع خمسمائة دولار لهاتف ذكي وبضع دولارات لاشتراك شهري فيمسي كل العالم قيد أناملك، ويمسي الغناء بلا طعام والفن بلا معنى، كل النساء جميلات بالمستحضرات، وكل الأغاني لها ملايين المشاهدات.

أدخل على حفلات فيروز أو عبد الحليم حافظ أو الساهر على يوتيوب، وأنظر الى عدد المشاهدات فأصاب بخيبة أمل لقلتها حين أقرنها بفيديو توأم ألماني لمراهقتين وضعنا تقليدا لمطالع أغاني المغنين على يوتيوب، وخلال 6 أشهر وصل عدد المشاهدات الى 50 مليون مشاهدة. مغنية أمريكية مصنوعة لعالم المراهقين، وضعت كليب على يوتيوب، بعد 9 أشهر حقق الكليب مليار ونصف مليار مشاهدة!

كومبارس يسخر من صناعة المطبخ يضع فيلما تافها على يوتيوب كلف انتاجه عشرين دولارا فحقق خلال سنة 100 مليون مشاهدة... ما قيمة الفن والإبداع إزاء هذا اذا، ولمن يحرق الفنان نفسه ومشاعره؟

لكن كل هذا السيل من "الفن" الرخيص لا يحرك في نفسي شيء، وحين أحضر حفلة سمر لمجموعة ممثلين عرب تلقينهم محطة منوعات لبنانية، وأدفع مبلغا ليس صغيرا لتذكرة الحفلة، أجد اللقاء رتيبا بطيئا مملا مكررا مقلدا لما تعرضها الشبكات الغربية، والخلاصة، أطلع في النهاية ضجرا مقرفا محبطا .

العمل مع أهل القمة بما فيه من ترف وبذخ وتباهي وفياشة، سيارات فاخرة وبيوت راقية وشقق أنيقة وسفر لا ينقطع وسهرات بانخة، يبقى تحدٍ يتطلب جهدا، ولا يحقق لمن يعتاده أي لذة.

حين يرتفع دخل المرء، ترتفع سطوح مطالبه، ثم تستقر عن مستوى معين وتصبح جزءاً من يوميات مملة تتكرر عليه.

حتى الجميلات المترفات المثيرات وهنّ يتقلبن معي على فراش اللذة، ما عدت أجد فيهنّ أيّ لذةٍ استثنائيةٍ. المرأة الجميلة جدا عادة تافهة جدا بسبب التزام الذكوري حولها. وحين تكون جميلة الجميلات ثرية، يصبح التزام حولها بالملايين وليس بالعضلات والوسامة والرجولة. الجميلة الثرية حين تحتاج رجلا فوق العادة، تجده في متناول خنصرها، فلا تجد في لقياه هي الأخرى لذةً استثنائيةً.

أرن هاتف خلود مرة أخرى بشكل آلي، فلا يجيبني أحدٌ على الطرف الآخر. ألقى بنفسي إلى حضن بيروت بحثاً عما يسلي وحدتي، وفي بيروت يموت الوحيد لشدة ضجره.

\*

تحلق الطائرة فوق أربيل فتبدو قلعة المدينة فوهة مظلمة مرتفعة تحيط بها الأبنية كأنها أذرع تتوسل الى سمو مترفع. حول أربيل صحراء مجدبة لا خضرة فيه، بل أنّ المسافر على متن طائرة يعرف أنه يحلق فوق العراق حين يصبح المنظر تحته رمالاً ومرتفعات بلون الرمال تتخللها شوارع ضيقة ويسيل بامتدادها النهران مثل نصلين لامعين رفيعين يسيلان بلا أمل في محيط أجرد لا تشوبه الخضرة. كيف باتت أرض السواد مجدبة؟

حطت الطائرة على مدرج صغير، وكتب على الجدار " أهلا بكم في مطار أربيل الدولي" ، الباء من "بكم" سقطت متدلّية ( ربما خجلا من حجم الاسم مقارنة بالمكان المتواضع).

أخذتني سيارة أجرة الى فندق تديره سيدة عراقية في أواخر الثلاثين، ثوبها البنفسجي يلتصق على صدر نافر ومؤخرة متمردة، وببيدها ثلاثة هواتف نقالة وجملة معدات الكترونية ، تحجز لي الغرفة وهي تنظر في عيني بوقاحة وتسالني بغنج ظاهر " عراقي بجواز سفر دبلوماسي لبناني ينزل في فندقنا، أحلى خبر سمعته منذ شهر، أهلا بك وسهلا، هل تريد غرفة بخط انترنت عادي أم مقوى؟" ما الفرق بينهما؟ بالطبع أحتاج أنت بشكل أقوى.

قالت: الفرق في نوع الخدمة وفي السعر طبعاً، اذا سأعطيك جناحاً في الطابق الأول، ولحسن حظك لدينا جناح فارغ، بسبب معرض أربيل التجاري الدولي ومعرض أربيل الدولي للكتاب كل الفنادق محجوزة، وهذا هو المتيسر، أرجو أن يروق لك.

الحقيقة أنّ سائق السيارة هو من اختار الفندق وقد انبأني مسبقاً أنّ الفنادق مشغولة بسبب المعرضين، شكراً لكم سيديتي.

ضحكت وهي تضع هواتفها على المكتب وتعبث باللاب التوب الوردية المثيرة كأنها تغازل شاشته ثم قالت " شعارنا هنا، الزبون على حق حتى حين يكون سكرانا، وأمل أنك ستلمس حقيقة هذا الشعار خلال إقامتك، لا تنس زيارة حمام الساونا والمساج الصيني أسفل الفندق... إنه الأول من نوعه في أربيل. الفطور مفتوح حتى الساعة الحادية عشرة، وعندنا تنور يقدم الخبز ساخناً على مائدة

الطور. البوفيه في الليل مشاوي عراقية فحسب، وليس عندنا اختيارات مطعم كامل. البار يغلق في الحادية عشرة ليلا، ولا توجد عندنا خدمة طعام في الغرف للمحافظة على النظافة، أرجو أن لا يضايقك ذلك".

انطباعي الأول عن الجناح الذي خصصته لي السيدة أنه كبير مريح، لكنه للأسف يطل على شارع حيوي لا ينام، وتنقصه كثير من وسائل الراحة، كما يغيب عنه الذوق الرفيع غالبا في تفاصيل الأثاث والستائر والأرضيات والحمام (الحمامات دائما سيئة في فنادق العراق ولا أعرف سبب هذه المثلية)، بالنسبة لمائة وعشرين دولار في الليلة بدا المكان ممتازا.

ما إن وضعت رحالي في فندق الليالي، حتى بدأت رحلة البحث عن مكتب للعلاقات العامة. وأجريت اتصالات بهذا الشأن مع مختصين ومعارف. الموضوع ليس سهلا، فالعروض المقدمة ليست كلها مغرية. المكان يجب أن يكون محميا أولا، لذا فمن الأفضل أن يكون قريبا من مقرات حكومية أو نيابية مهمة تتوفر لها حماية الاسايش (قوات أمن الإقليم). مضى يوم كامل من المحاولات مع مكاتب الدلالية والعقارات، دون أن أحقق شيئا ملموسا.

نصحتني أحد المعارف أن أسأل في مكاتب الفنادق، فعندهم عادة اعلانات مخصصة للأجانب الباحثين عن مكاتب أو شقق للإيجار.

تلك الليلة، أويت مبكرا الى سريري، بعد أن حاولت عبثا الاتصال بخلود. هاتفها لا يجيب وحسابها على فيسبوك لا يجيب ولم يسجل فعالية منذ أكثر من اسبوعين. لم تجب ايميلاتي ايضا، وهذا يبعث على الاستغراب.

في الصباح بعد أن تناولت فطوري، مررت بمديرة الفندق (أو صاحبتة) فبادرتني بالسلام وهي ترتدي سروال برومودا وردي أنيق، وعليه بلوزة زرقاء مقرنصة النهايات، وتضع في قدمها حذاء رياضيا غالي الثمن...في يدها سيكاره وقدر قهوة أنيق وهاتف. شيء في هذه المرأة يذكرني بخلود، ربما حس أنثوي عدواني يحتك بشدة بذكورة الرجال.

بادرتني بسؤال تزاحمه ابتسامة عريضة من فمها الذي يبوح بالشهوات "هل قضيت ليلة هادئة؟ أمل أنك استطعت النوم رغم بعض السيارات التي تمر في الشارع".

نعم، تعب السفر غلبني فتمتُ مرتاحاً، ولكن لي سؤالٌ صغير لو سمحت؟

تفضل !

أبحثُ عن مكان يصلح أن يكون مكتباً، بخدمات خمسة نجوم طبعاً. قيمة الإيجار ليست بالأمر الهام، قدر أهمية عوامل الأمن والسلامة والخدمات.

ضحكت، ونظرت في عيني وقالت: تفضل الى مكنتي لنتحدث على انفراد.

دخلنا مكتبا أنيقا كل ما فيه مؤنثٌ، وأغلقت بابهُ الزجاجي المورّد. كل ما في المكتب باللونين البنفسجي أو الليلكي. الهاتف، الستائر، طاولة المكتب، اللاب توب، أقداح الشاي، أرضية الغرفة مغطاة بسجادة تتبادل اللونين. علقت مـمازحاً: يبدو أنني دخلت مملكة السيدة البنفسجية !

ضحكت وهي تدعوني لانتخاب علبه عصير فاكهة فاخترت البرتقال وجلست الى إحدى الأرائك البنفسجية الليلية، فجلست على أريكة مقابلة لي وهي تقول " لابد أن أعرف أولاً لأي غرض تريد المكتب، تجارة، إعلام، صيرفة؟؟"

قلت لها" أريده مكتباً للعلاقات العامة، مسجل باسم شركة الخلود للعلاقة العامة عبر الشرق الأوسط"

ابتسمت وهي تنظر لي بتحدٍ " ماذا تعني علاقات عامة، إعلانات، تجارة، في أي شأن سيعمل مكتب العلاقات العامة؟"

قلت وأنا أتجرع عصير البرتقال " في كل شيء، تجارة، إعلام، إعلان، عقارات، أفلام، تصدير صناعة استيراد، صيرفة، كل شيء تقريباً. المهم أن يكون متكامل الخدمات، وفي موقع محمي وآمنٍ تماماً".

فهمت، أغلب الأماكن هنا في الإقليم آمنة، الإرهاب ضعيف جداً هنا والجريمة محدودة، لكني لم أفهم ماذا تقصد بموقع محمي؟"

محمي، أعني أنه يجب أن يكون قريباً من مبانٍ حكومية أو نيابية تحميها قوات الأسايش، فتكون عينها على المكتب أثناء عملها ولا يجرؤ أن يقترب منه أحدٌ ليل نهار.

غام وجهها بعض الشيء وقالت " من الصعب الحصول على مكان بهذه المواصفات تحديداً، ألا يمكن حماية المكتب باستئجار عناصر حمايات خاصة؟"

لا للأسف هذا غير ممكن، فالمكتب أحيانا سيكون خالٍ، وسيكون من التبذير والإسراف وضع عناصر حماية وحرس على مبنى خالٍ! الأفضل أن يكون قريبا مما ذكرت لك".

صمتت برهة وهي تفكر، ثم قالت " أحتاج بعض الوقت لأجد لك من يمكنه تأمين ذلك، لا أخالك في عجلة من أمرك؟".

يعني، مع نفسي خصصت لهذا الأمر أسبوعا ليس أكثر، لأتمكن بعدها من تأمين إحتياجات المكتب وافتتاحه والعمل فيه.

بأي حجم تريد المكتب، وهل تفضله في مبنى مستقل أم شقة في بناية، أم من مكاتب المولات؟

هذا يرتبط بنوع المكان يا سيدتي، فاذا كان شقة واسعة في عمارة حكومية محمية دائما فهذا أفضل الخيارات، واذا توفر مسكن مستقل بهذه المواصفات فلا بأس، أما خيار مكاتب المولات فهو أسوأ الخيارات.

وضعت بين شفتيها نهاية قلم ذهبي للمس الالكتروني، وهي تتصفح تابلتها الوردي، ثم كتبت فيه شيئا وقالت، هل عندك رقم هاتف أتصل به؟

أعطيتها أرقام هواتفها الدولية ورقمي الجديد في أربيل.

\*

تلك الليلة اتصلت بسليم سلام سلامة صاحب سيرك سين، فدعاني لعرضهم الساعة السابعة، وبعدها للقاء في مكان جميل هادئ حسب وصفه.

كان العرض فعلا مطابقا للقياسات الدولية الجديدة، إذ خلا من الأسود والنمور والتماسيح والثعابين والفيلة، واقتصر على الطيور والخيول الذكية والقطط العجيبة. كما خلا من عروض الأكروبات الخطرة ومن العاب الرماية والتهديف، واقتصر على عروض اكروبات خفيفة ممتعة، وعروض دراجات ودراجات نارية معلقة، وعروض خيول راقصة ورقصات على الحبال.

الملفت للنظر أنّ أكثر من نصف رجال ونساء السيرك كانوا من الأفارقة، بعضهم رشيق طويل القامة، وبعضهم ممتلئ القامة قصيرها، نساء برقاب طويلة وشعور جدلت لصق جلدة رؤوسهن، أطفال برؤوس حلقة يتقافزون في أداء اكروباتي رائع.

أهم مشهد في العرض، كان لكبش بقرنين جبارين، وأربع نعاج. نصبت خيمة شرقية قرمزية مزركشة، وفي أطرافها تدلت حبال مجدولة من البريسم، وفوق وتدها الأوسط استقرت راية غامضة سوداء حاشيتها شريط أخضر. دخل الكبش الى الخيمة التي رفعت أروقتها بحيث يرى جمهور السيرك ما يجري داخلها من جميع الجهات، فدخلت نعجة منقادة لإرادة الفحل الى الخيمة، وامتطأها الكبش في مشهد رمزي قصير، ثم خرجت مسرعة، تتحني للجمهور، وتبعثها النعجة الثانية لتقوم بنفس الدور والثالثة فالرابعة وتعالى تصفيق وصفير الجمهور بعد أن وقف الكبش واصطففت النعجات المطيعات الأربع خلفه وهم يحيون الجمهور.

بعد العرض أخذني سليم سلام سلامة لمكان نادر من نوعه، فهو كازينو للنخبة، الموسيقى تنساب بصوت هادئ والإنارة خافتة، والزبائن يجلسون في كابينات وشرفات مغلقة منفصلة عن بعضها. والخدمة تقدمها نادلات يرتدين ما قل ودل من الملابس.

جلسنا في شرفة تطل على صالة توزع فيها الزبائن على طاولات البوكر والبلاك جاك والروليت.

قال سليم " هنا لا يهتم الناس سوى لشأنهم، والموجودون في الصالة مشغولون باللعب حتى أنهم ينسون بيوتهم " .

فوق الخمسين، برأس حليق تماما، وبحاجبين أشقرين وعينين رماديتين، وجسم بقيت منه كتل عضلات غير مترهلة، بدا سليم بقامته المديدة ممثل سينما أسطوري أكثر منه ل لاعب سيرك. ما إن جلسنا حتى قال لي بلهجة لم أعرف الى أين أنسبها، " هل أطلب لك سمكا مع ويسكي؟"

بل مائدة لبنانية مع عرق يا عزيزي!



وهكذا كان، فاجتمعنا حول صحون الحمص بطحينة والكبة نية وكبة بلحم والشامية والتبولة والعرايس، وسطها وضعت النادلتان الرشيقتان أربع قوارير عرق صغيرة، كما تعرض كازيونهات زحلة بلبنان بالضبط.

ما إن شرع في الكلام، حتى نسيت أنني في جلسة عمل، وهذا يحدث نادرا معي، كان المكان والحديث حميما الى درجة شعرت فيها أنني أحاور صديقا قديما في جلسة سمر لا جلسة عمل.

قال وهو يقاطع نفسه بجرع العرق ولقيمات المزة" يبدأ صاحب السيرك دائما كلاعب سيرك، إنها ليست مهنة مقاولات يتولاها رجل أعمال يوفر المال ويشترى الخبرة، بل مهنة تبدأ من بيدق لتصل الى ملك، وهو ما يختلف حتى عن الشطرنج، هل تعرف أن كلمة شطرنج فارسية هندية أصلها "هشت رنج" أي "ثمانية صفوف" في إشارة الى المربعات والى توزيع البيادق؟ على كل حال لا أريد أن أذهب بك بعيداً، فقد بدأت مع أخي الأكبر الذي كان لاعب اكروبات على الحبال، لكنه أصيب بفوبيا المرتفعات بعد سقوط زوجته من ذراعيه ومقتلها، فترك الحبال وعاد ليلعب اكروبات على الأرض. لا فرار من السيرك، فحين تبدأ لا خيار لك إلا أن تستمر أو تموت أو تصاب بما يقعدك عن العمل، وحتى المقعد في السيرك يمكن الاستفادة منه للطبخ أو البيع أو لإطعام الحيوانات ورعايتها أو مع الاوركسترا.

بيتي هو قافلة السيرك وخيامه وأقفاصه، أنا أمير القافلة وراعيها منذ سبعة أعوام، كم تعطيني من العمر؟

قلت وأنا اتلذذ بقضم كباية شامية بحجم قطعة بقلوة" عبرت الخمسين توا".

"بل أنا في الثانية والستين، ومن حسن حظي أن هذا لا يظهر عليّ فهذا يحسب لصالحني في عالم النسوان!" ضحكنا لعالم النسوان، وعاد يروي لي حكاية إمارة سين.

كنت صبيا ألعب بين وفوق قدمي أخي وهو يشقلبني شمالا وجنوبا دحرجة وتقاذفا كأني كرة، ثم تعلمت لعبة السكاكين، فكنت مختصا برمي السكاكين حول جسد لاعبة فاتنة كانت تقف بالمايوه على خلفية حمراء. كان ذلك شائعا جدا في تلك الأيام، قبل أن تخرج على العالم العربي شمس البارودي وزوجها الفنان حسن

يوسف ببذعة الحجاب والتوبة. وكنت في الثامنة أو التاسعة عشرة من العمر. ثم طورت اللعبة الى ألعاب السحر بالسيوف والسكاكين، وهي خدع الصندوق وما يحتويه. ثم انتقلت الى ألعاب الدراجة النارية المعلقة في الكرة الحديدية، ثم صرت ألاعب الدببة، وأخيرا أستقر بي الحال على مهرج الفواصل. وما زلت أحيانا أقوم بهذا الدور، يظن البعض أنّ المهرج هو الأقل شأنًا في السيرك، لكن الحقيقة هي أنّ السيرك ليس فيه مراتب، وكرامات بل هو عالم القدرات، واللاعب يتحول حسب قدراته.

هل رأيت السيدة التي تبيع ساندويتشات أثناء الفواصل؟ السيدة المسنة؟ إنها كانت نجمة سيرك سن الأولى قبل 30 عاما، ثم تغيرت الأحوال فباتت بائعة ساندويتشات، لم يقل شأنها، بل تغيرت وظيفتها. من يبدأ في سيرك لا يغادره، بل يغير عمله، الحياة تسير هنا، نحن بحاجة الى مدارس وسائقين وطباخين ومربي حيوانات وباعة ومصورين، هل رأيت المصور الشاب الذي يرسل صوراً لمن يرغب على حسابه في فيسبوك؟ إنه أبني من زوجتي التركية الثالثة. وقد كبر في هذه القافلة وليس بوسعه مغادرتها. أصعب ما يواجهنا هو المدارس، فأنظمة التدريس في العالم العربي وما حوله وأفريقيا متفاوتة، واللغات مختلفة، ولهذا لا يقبلون الشهادات، لكن في بعض الأحيان ننجح في ضم أولادنا الى مدارس بعض البلدات فتسير الأمور. المشكلة الأكبر هنا هي عدم استقرارنا، فنحن متجولون رحالة لا نستقر وكيف لتلميذ أن ينهي دراسته وهو لا يستقر؟

ماذا عن التأمين الصحي والاجتماعي، بما أنكم رحالة تنتقلون، كيف تجري آلية التأمين؟

هذه مشكلة أخرى، لكن بعضنا يملكون بطاقات تأمين من البلدان التي يحملون جنسيتها، إبنى مثلا يحمل جنسية بلد أمه (تركيا) وهو مؤمن عليه صحيا هناك، لكن هذا التأمين غير فعال في دول أخرى. بعض الزملاء المصريين مشمولون بنظام الرعاية الاجتماعية والصحية في بلدهم، الأصعب هم السوريون، فبلدهم اشتراكي النظام والعلاج مجاني، لكنهم لا يتمكنون من العودة الى بلدهم غالبا لأسباب سياسية، وهكذا يحتاجون دائما الى تأييد من جهة ما لتلبية احتياجاتهم الطبية.

أريد أن أسمع منك أهم تجربة مرت في رحلتك الطويلة مع قافلة السيرك؟

طلبات غريبة كانت تردنا من أمراء وحكام ورؤساء وملوك. كُنَّا نُدعى أحيانا الى دولٍ عربية لتقديم عرض واحد في قصر الأمير أو الشيخ أو الملك. عرض واحد ، نغادر بعده البلد بعد أن نتقاضى أجورا تعادل أجرتنا في العمل لمدة شهر. وهذه أفضل العروض، ولكنني لا أجرؤ هنا أن أوح بأسماء مضيفينا.

أما أغرب ما تلقينا من طلبات فجاءنا من صدام حسين عام 2001. كان العراق حينها في أوج الحصار الاقتصادي الدولي، والحديث عن دول محور الشر التي يتصدرها العراق يطلقه الرئيس الأسبق جورج بوش الأب في كل مناسبة. جاءتنا دعوة من المكتب الرئاسي العراقي، فحضرت أولا بنفسي لتلقي الدعوة من سفارة العراق في إسطنبول حيث استدعوني. أبلغني موفد رفيع من الرئيس العراقي الأسبق أنه ينقل لي طلب صدام حسين بتقديم عرض خاص في أحد قصوره في تكريت، وشرطه في هذا العرض أن تروضوا الخرفان وتقدموا بها عرضا تمثيلا يليق بممثلين حقيقيين من بني البشر.

سألته وما هو المشهد الذي يريد أن يراه بالتحديد؟

قال لي بالحرف الواحد هو يريد مشهدا تتصرف فيه الخراف كأنها بشر، ليعرضه "في مناسبة النصر الأكيد القادم على أمريكا ورئيسها بوش الذي يتناول على العراق ورئيسه، نحن نريد أن نجعلهم مضحكة للشعوب ومسخرة للأمم" هذا نص كلمات سيادته بلا تحوير، وقد كتبتها بنفسى على هذه القصاصة وحفظتها لأنقلها لك.

قلت له، سأحاول أن أجد خرافا وأدربها لمثل هذا العرض. ولكن كيف أوصل لكم الجواب؟

قال: تتصل بالسفارة وتقول لهم أسمك الثلاثي وتبلغهم أنك تحمل رسالة للسيد الرئيس، وسأبلغهم أن يرسلوا لك السمات المطلوبة اضافة الى بطاقة طائرة مرجعة لتوصل لهم رسالتك.

بعد ستة أشهر، بات العرض جاهزا، فاتصلت هاتفيا من ليبيا حيث كنا نقدم عروضنا آنذاك وأخبرت السفارة بما اتفقنا عليه، فأرسلوا لي بطاقة الطائرة مع فيزا الى تركيا. وحين وصلت اسطنبول واطلعتهم على تفاصيل العرض الذي طلبه مني "ع.ح.م" ممثل الرئيس، طلبوا مني التريث حتى الاتصال بالقصر.

وبعد أن أمضيت في فندق بإسطنبول 3 ليالٍ دفعت حقها السفارة العراقية، أبلغوني أنّ الرئيس راغب في مشاهدة عرضي في 17 تموز 2002 حيث ذكرى الثورة، وسألوني عن حجم القافلة التي سوف تتوجه الى العراق. قلت لهم هل يريد سيادته فقط هذا العرض أم يريد مشاهدة عروض السيرك بأكملها. عادوا واتصلوا بالقصر الجمهوري، وبعد انتظار دام 24 ساعة أخرى أبلغوني أنّ سيادته مهتم بهذا العرض فحسب، ولكن بوسعي أن آتي بالسيرك ليقوم في أطراف العاصمة لبضعة أسابيع لتقديم عروضه للناس على أن لا يجري عرض الكباش والنعاج هناك ولا في أي مكان في العالم، فهو عرض خاص لسيادته، وسيتكفل طبعا بكامل نفقاته.

وهكذا انشغلت في الأشهر التي تلت بأعداد فريق الخرفان لتقديم العرض الرئاسي. قاطعته متسائلاً "هل هو العرض الذي قدمتموه الليلة؟"

أجاب مفتخراً "هو بعينه، وبات هذا العرض من أهم وأنجح عروضنا، ولم أقدم العرض الى الجمهور علنا إلا بعد أن أسقط الأمريكيون صدام حسين وبعد إعدامه".

وكيف قدمت العرض لصدام، هل قابلته، هل أعجبه العرض؟

"جرى العرض في مساحة من الأرض قرب قصره في قرية العوجة، في يوم 18 تموز 2002. حضر العرض صدام وأبناء قصي وعدي، ومجموعة من المسؤولين العراقيين من الخط الأول.

إرتدى الجميع ملابس مدنية وعربية، وجلسوا متحلقين على تخوت منخفضة كأنهم في مضيف، وشاهدوا العرض واستمتعوا به، وقال لي الرئيس بعد نهايته " هذا العرض أريدك أن تقدمه في ساحة الاحتفالات الكبرى بعد النصر النهائي الحاسم على أمريكا بعون الله. نحن أمام منازل كبرى، وسنجعل الأمريكان خرفان مطيعة مثل خرفانك".

كلمات صدام حسين وطريقة القائها كانت مرعبة حقا، وكنت أخشى أن أزل أو أرتكب خطأ ما فتطير رقبتى أو أنتهي في السجن، وهكذا اكتفيت بالانحناء والإيماء برأسي علامة الاتفاق والرضا.

توقف الرجل عن الكلام وقال " هذه أهم واقعة حدثت في قافلة السيرك، وأردت أن أرويها لك فأرتاح بعدها لأنني لا أكتب ولا أدون ولا بد أن يوصل أحد هذه القصة الى العالم."

\*

أجمل ما في جمهورية مالطا، أن كل شيء قريب منك، وكل شيء تدركه بلا جهد، والانتقال من المطار إلى المدينة وبالعكس يستغرق بضع دقائق. وهكذا اخترت اليوم أن أصل مطار الجزيرة في وقت مبكر، ففيه مطعم جميل يقدم مآكل شهية من مختلف مطابخ العالم، كما أن وصلة الانترنت فيه قوية وتدخل ضمن عروض المطعم، وعلي اليوم أن أرتب تقارير نهاية رحلة العمل المزدحمة التي انتهت في مالطا بلقاء صديقي القديم جيري وصديقتي المالطية ماغي.

تناولت طعامي متمهلاً ، وحال أن انتهيت منه، شرعت أعمل على اللاب توب، أمامي نحو 3 ساعات حتى إقلاع الطائرة، وهذا يكفي لإنجاز التقارير. وسط انشغالي اقترب مني نادل يافع حليق الوجه في وقت يطلق فيه أغلب الشبان لحاهم وشواربهم بكثافة، ثم استأذن مني ليرفع الصحون عن مائدتي.

غرقت في العمل لنحو نصف ساعة، وفجأة بدأت وصلة الانترنت تضعف، فتلفت أبحث عن من يمكن أن يساعدني في حل المشكلة، ومرة أخرى اقترب مني الشاب اليافع الحليق، وسألني بإنكليزية ضعيفة إن كانت وصلة الانترنت لا تستجيب؟! ابتسمت لأنه أدرك مشكلتي، فأومأت براسي إيجاباً، وقلت له أعتقد أنهم رصدوا وقتاً محدداً لكل زبون؟ ابتسم هو الآخر وسألني بعربية أهل العراق إن كنت أتكلم العربية، أجبته بلهجة بغداد: بلي يا عيني، وأهلاً بالعراقيين الذين ألتقيهم عبر العالم حرفياً في كل مكان!

انبسطت أساريه، وأنطلق يتحدث بلهجة بغدادية فيها بعض الثقل وقال: صاحب المحل حدد مدة جلوس الزبون بنحو ساعة، وأنت قد تجاوزت الساعة، أفضل حل هو أن تحول كابول الربط ب"واي فاي" إلى الوصلة المجاورة، لن ينتبه أحد لأنهما متقاربتان، وبعد ساعة، يمكنك أن تعود للوصلة الأولى، شرط أن لا يكون زبون آخر قد جلس بقربك وشغل الوصلة.

فعلت كما قال، فتجدد الارتباط وقوي النت، شكرته ووضعت في يده قطعة نقد معدنية من فئة 2 يورو. فاعتذر عن أخذها، مشيراً بلغة تملؤها العاطفة أنه سعيد للقاءه بعراقي يحدثه بلغة بلده، وأضاف مؤكداً بإصرار "خليه عمي، شكراً لك!"

وتركني أعمل، واتطلع بين وقت وآخر إلى لوحة توقيتات الرحلات المغادرة والوافدة متابعاً توقيت رحلتي المرتقبة. وبعد نحو ساعة أخرى، أعلنت اللوحة، أن الطائرة المغادرة إلى اسطنبول-التي سوف استقلها- ستتأخر رحلتها نحو ساعتين!

في نفس الوقت بدأت وصلة الانترنت عندي تضعف، فسارعت أنقل الكابل إلى الوصلة الأولى، فقويت الشبكة، واقترب مني الشاب العراقي مبتسماً وفي يده فنجان قهوة وهو يقول بود " عمي القهوة تناسب الشغل، انتبه أن لا تفوتك طائرتك!"

فاجأني كرمه، فسارعت أدفع له بورقة 10 يورو، قيمة القهوة مع البقشيش لخدماته الرائعة، لكن الرجل رفض بإباء، واقترب مني وهو يقول: عمي لا أريد منك سوى أن تسمع لي، ففي داخلي قصة لا أجرؤ أن أرويها سوى للعراقيين لأنهم الوحيدون الذين يفهمونها، هل تسمعني؟

المفاجأة الأخرى من هذا الشاب، أنه يعرض عليّ أن أمارس عملي، غير مدرك لوظيفتي كجليس، فابتسمت وقلت له، بالتأكيد، قل ما عندك!

وقف قريباً مني وقال: ليس هنا يا سيدي، فالمدير سيراني أتحدث إليك طويلاً وقد يعاقبني، هل يمكن أن تخرج إلى صالة الانتظار، حيث قاعة المسافرين المغادرين، سأتي لك وأجلس معك نحو ساعة لأحدثك، ممكن؟

نظرت في لوحة الرحلات، فوجدت أن أمامي نحو ساعتين ونصف حتى اقلاع الطائرة، وما زال في يدي تقرير أخير يجب أن انجزه، فقلت له: نعم ممكن، لكن امنحني نصف ساعة حتى أنجز ما في يدي، وسأذهب إلى صالة الانتظار لتحدث على الراح والسعة.

غادرني مبتسماً بانسراح، وانهمكت في كتابة التقرير، فاستغرق ذلك نحو 40 دقيقة، رزمت بعدها اللاب توب، وأخذت امتعتي مغادراً إلى صالة انتظار المسافرين المغادرين، حيث انتخبت مقعداً في آخر الصالة، يطل على مدرج الطائرات، وجلست انتظر ورود "زبوني" العراقي الغريب.

بعد دقائق، جاء الشاب، وسارع يجلس قربي ويمد يده لي بالتحية وهو يقول: علي إبراهيم، من بغداد!

أخذت يده أشد عليها محبباً، ورددت مبتسماً دون أن أعلن اسمي، بل عرّفت نفسي بالقول: أهلاً وسهلاً بك، تشرفت بمعرفتك، أنا أبو صباح!

جلس إلى جانبي، فأخرجت هاتفي المحمول وقلت له: هل تسمح بأن أسجل ما ستقول، أنا لست صحفياً، بل أسمع قصص الناس، وأسجلها عندي للمستقبل، ربما كتبت بها رواية في زمن ما!

بدا على وجهه الحزن وهو يقول: بل أنا يهمني أن تنشر قصتي، عسى أن يسمعها من يمكنه حقاً أن يحل مشكلتي!

شغلت تطبيق التسجيل، فقال علي: بدأت الحكاية عام 1980، فقد قرر صدام حسين أن أهلي ذوو تبعية إيرانية، رغم أنهم عراقيون من الكرد الفيلية، وهكذا فقد نقلت حافلة عسكرية جدي وجدتي وأمي وخالاتي الثلاث إلى الحدود في منطقة يقال لها ميدان، وتركوهم يسيرون ليلاً باتجاه إيران بعدما أخذوا معهم فقط ما تمكنوا من حمله، وهكذا فقدنا بيتنا في محلة الكاظمية ببغداد، وفقد جدي محل بيع السجاد الخاص به في سوق السجاد بشارع المصارف بقلب بغداد. أنا طبعاً لم أكن قد ولدت آنذاك، لكنني سمعت القصة من أهلي. أها...وفاتني أن أذكر أن الشرطة اعتقلت خالي حيدر وكان عمره آنذاك 19 سنة وهو طالب في كلية الإدارة والاقتصاد بجامعة بغداد، ووضعوه في سجن التسفيرات، ولم نسمع خبره منذ ذلك التاريخ.

تضاعفت المأساة حين وصل أهلي إيران، فقد وضعوهم في مخيمات المسفرين ويسمونهم في إيران "معاود" وبلغت أعدادهم كما سمعت عشرات الألوف، واستقر أهلي في مخيم بمدينة كرج جنوب العاصمة طهران، وحلوا كلهم في خيمة واحدة لمدة نحو 6 أشهر، ثم منحوهم غرفة في ما يعرف بـ "أردوكاه" وتعني مضيف مؤقت للوافدين.

تطاولت الأيام، ولم تُحل مشكلتنا، فالمسفرين من العراق وأغلبهم من الكرد الفيلية نوعان، القسم الأكبر منهم، لديهم صحائف في السجل المدني الإيراني، لأن جدودهم ذوو أصول إيرانية، وقد هاجروا إلى العراق قبل عقود، تصل أحياناً إلى مئة سنة، لذلك، جرى منحهم وثيقة تثبت أنهم إيرانيون ريثما تصدر لهم الوثائق الرسمية.



أما الأقلية التي لا تملك صحفاً في السجل المدني الإيراني فهم عين المأساة. العراق طردهم باعتبارهم إيرانيين، وإيران ترفض استقبالهم وتجنيسهم لأن أسامي أجدادهم غير مثبتة في السجل المدني الإيراني، وهكذا تعتبرهم إيران عراقيين! سكت وقد تشعب الحزن في وجهه، فانطفأت شبه الابتسامة التي كانت تلوح على وجهه اليافع الحليق. وعاد يقول بصوت يشبه الهمس: وقامت الحرب، فاشتدت المشكلات على أهلي، وتزوجت أمي بأبي، وهو أيضاً من المسفرين الفيلية، وللأسف فقد كان هو أيضاً بلا صحيفة في السجل المدني الإيراني، ورزقا ببنتين، ثم توقفا عن الانجاب لأن المولودين في إيران لأبوين لا يملكان أوراقاً ثبوتية تثبت تابعيتهم لا يسجلون في السجل المدني. وحتى زواج أمي بأبي كان زواجاً شرعياً، غير مسجل مدنياً.

عام 1993 ولدتني أمي وقد كانوا يسكنون في مدينة كرمنشاه، وهي من مناطق لرستان الإيرانية التي يقطنها اللر وهي التسمية الفارسية للفيلية. ومن المفارقات أن عمي كانت له صحيفة في السجل الإيراني فكان مواطناً إيرانياً، كما كانت له صحيفة في السجل المدني العراقي، ولذا كانت له حصة تموينية، كان يعبر الحدود كل شهر ليستلمها من خانقين! ويعود ليعطيها لعائلة أخيه أي عائلتي وقد كنا نعاني من ضيق اليد.

كبرت في كرمنشاه بلا مستمسكات، ولم يتمكن أهلي من تسجيلي في مدرسة، لكن أبي تمكن أن يلحقني حين بلغت العاشرة من العمر، بمدرسة دينية عراقية في قم، كانت تقدم دروساً حوزوية للعراقيين مجاناً وتؤمن لهم مبيتاً وحداً أدنى من الحياة. في تلك المدرسة اتقنت التحدث والقراءة والكتابة بالعربية. وفي عام 2003 اسقطت أمريكا صدام حسين، فعدنا إلى العراق عام 2004، وحاول أهلي أن يستخرجوا لهم صحيفة في السجل المدني العراقي بلا جدوى، فسكننا في كردستان بلا مستمسكات، وفي عام 2011 قررت الهجرة إلى تركيا، وخرجت عن طريق التهريب، واشتغلت في العديد من المدن التركية، لكن لعنة عدم امتلاكي لهوية ظلت تلاحقني أينما ذهبت، حتى يئست من البقاء في هذا البلد، فغادرته عام 2014 إلى مالطا عن طريق التهريب بالزوارق، وها أنا أعيش في هذا المكان منذ ذلك التاريخ!

توقف عن الكلام، وعلى وجهه ملامح ألم وحسرة، وكان ما رواه صاعقاً حقاً، فسألته عن أوضاعه في مالطا، وهل قدم على طلب لجوء أم لا، فجاءت إجابته صاعقة إذ قال: أنا لست في مالطا، أنا أعيش منذ ورودي للجزيرة في هذا المطار، أمارس أعمالاً متنوعة، أغلبها في التنظيف وخدمة المطاعم، وأعيش بشكل غير قانوني في المطار، لدي مكان أنام فيه مع مجموعة عمال البناء والصيانة، وأحياناً أنزل إلى المدن فأتجول وأعود صباحاً لأدخل المطار بالحافلة التي تجلب عمال الخدمات، وهذه النزلات محفوفة دائماً بخطر أن أنكشف ويأخذوني للحجز، ثم يسفروني، وقد حدث معي مثل ذلك في تركيا، فحجزوني وحاولوا أن يعيدوني إلى العراق فرفض العراقيون لأنني لا أملك جوازاً عراقياً، ثم حاولوا أن يعيدوني إلى إيران، فرفضت إيران دخولي لأنني لا أحمل جواز سفر إيراني، وفي النهاية خففوا من إجراءات الحجز علي فهربت وجئت إلى مالطا!

ذهلت لما قاله، وسألته مرة أخرى كم سنة هو على هذا الحال، فقال إنه في المطار منذ 3 سنوات، ولا يجد أفقاً يشجعه على مغادرة المطار.

سافرت بي الأفكار ذاهلاً مع رحلة هذا الرجل، جاوز عمره ربع قرن وما زال بلا هوية، ينتقل بين البلدان وهو لا شيء، قانونياً هو غير موجود! إنسان لا وجود له رسمياً! أي عالم غريب عالمنا؟ يعني الورقة الرسمية أهم من وجود الإنسان. عدت أسأله: ماذا تنوي أن تفعل، لماذا لا تطلب اللجوء، فأوروبا تمنح اللجوء للإنساني للقدامين من بلدان الحروب.

أجابني أنه ينوي أن يفعل ذلك، لكن عليه أولاً أن يصل ألمانيا، وهناك يعلن لهم أنه سوري هارب من حلب مثلاً، ولا يملك أوراقاً ثبوتية، وقد يمنحوه لجوءاً يتيح له الحصول على هوية!

أطفت تطبيق التسجيل، وشكرت علي وصافحته مودعاً وقد ألح في أن أنشر قصته لعل أحداً "من المسؤولين" في أي بلد يلتفت لمأساته ويغيثه.

انتهت قصة علي إبراهيم الحزينة التي لا تشبهها قصة، فهو ضحية الهجرات، والبيروقراطية واختلافات السياسة، وجهل الأهل الذين أنجبوا ولداً دون أن يهيئوا له مساحة قانونية في الحياة!

مطلع عام 2012 شهد منعطفاً جديداً في حياتي، فقد أبلغوني أنّ عليّ ترك مكتب بيروت، والإقامة في أربيل وإدارة مكتب العلاقات العامة هناك حتى إشعار آخر مع فريق عمل سيلتحق بي حال إكمال تجهيز المكتب.

وسافرت إلى بيروت، وشحنت ممتلكاتي من شقتي إلى مكتب أربيل. ثم سافرت إلى شرم الشيخ بحثاً عن خلود فكانت مفاجأة صاعقة. بيتها في شرم الشيخ كان فارغاً ومغلقاً، ولا أثر لها. اتصلت هاتفياً برقم النائب منير بعد المعطي، وسألته عن خلود وهل يملك خبراً عنها، فاجأه سؤالي فقال "ظننتكم تعيشان معاً أو قريبان أو شيء من هذا القبيل، الحقيقة أنني لا أعرف عنها شيئاً قط سوى ما جرى فيه الحديث أمامك من بحثنا عن آثار لزوجها المفقود المقدم نبيل".

تفاقت حيرتي واستغرابي، ثم قصدت دائرة المرور في الغردقة حيث سيارتي مسجلة، وسألته عن مصير السيارة، فأخبرني أحد المأمورين بعد العودة إلى السجلات أنّ السيارة مسجلة باسمي، ولا بد أن تكون معي، وسألني إن كانت قد سرقت أو تعرضت لحادث، فشكرته واعتذرت عن إزعاجه بعد أن وضعت في جيبه 500 جنيه مكافأة للجهد الذي بذله معي.

في الأيام التي تلت انتابني ذهول مشوب بالحزن لغياب خلود الغريب، ثم وضعت الأمر في سياقه، مسلماً أنها كانت تقوم بوظيفتها كما كنت أقوم بوظيفتي وانتهت المهمة وذهب كل منا لحال سبيله.

هكذا فجأة انثرتُ من عالم ملون جميلٍ عشت فيه نحو عامين وألقيت بقوة في عالم جديد لا أعرف ما ينتظرني فيه، ولا أدري من سيكون جليسي التالي فيه.

كانت الأوضاع في سوريا وليبيا واليمن والعراق تتفاقم، وأعتقد أنّ مكتب العلاقات العامة في أربيل سيكون معنياً بهذه الأوضاع وتداعياتها.

تمت كتابتها في بون/ ألمانيا في شتاء عام 2017